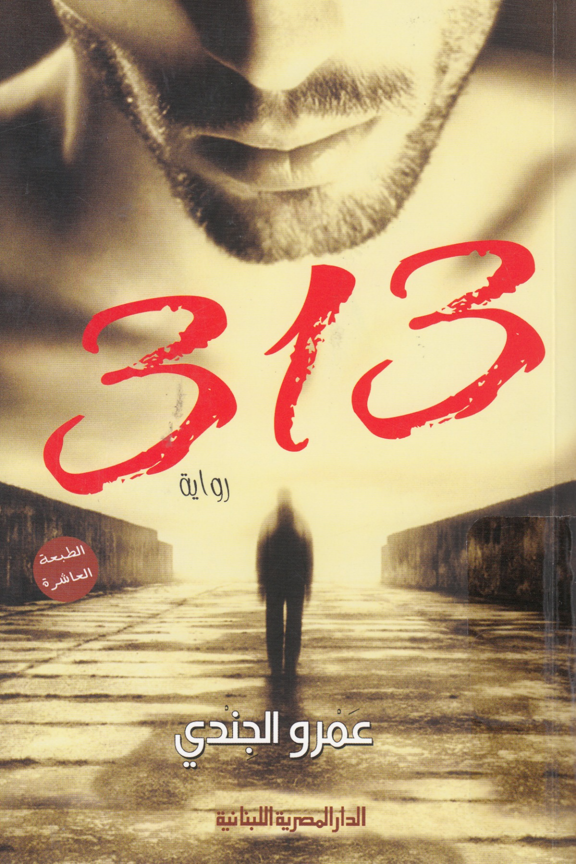
313
رواية
الطبعة
العاشرة
عَمْرو الجِنْدي
الدار المصرية اللبنانية

"أن تعيش مع المجهول شيء سيئ للغاية، وأن تموت من أجل الحقيقة فهذه هي الحياة نفسها، فإن الحقيقة لا تأتي إلا من خلال الألم، فكلما كان الألم عميقا، كانت الحقيقة أكثر وضوحا. في هذه الرواية عشت تفاصيل حياة قد تتكرر، ولكن أن تعيش شيئا يبدأ من النهاية، فهذا شيء مختلف".

د/ يسر سميث

رئيس المركز الطبي بمدينة كارسون
ولاية نيفادا – الولايات المتحدة الأمريكية

هذه الرواية رحلة في ألم خطيئة الإنسان الأولى، خداع النفس الرافضة للواقع وهروبها منه لواقع آخر ترسمه لنفسها، ومفاجأتها حين تصطدم بالحقيقة، فهل من الخطيئة مَهرب؟

عمرو الجندي .. كاتب وروائي مصري، وعضو اتحـ
درس الأدب الإنجليزي بجامعة ليفربول في بريطانيا
الأولى "فوجا" عام 2011، وصدرت له رواية "9

تصميم الغلاف: أسامة علام

9 789774 278358

الدار المصرية اللبنانية

313

رواية

الجندي، عمرو.
313: رواية / عمرو الجندي .- ط 10.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
384 ص؛ 20 سم.
تدمك: 8 - 835 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ - العنوان 813
رقم الإيداع: 2013/14643

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعات

الأولى ـ السابعة 2013م
الطبعة الثامنة: ربيع أول 1435هـ - يناير 2014م
الطبعة التاسعة: ربيع آخر 1435هـ - فبراير 2014م
الطبعة العاشرة: جماد أول 1435هـ - مارس 2014م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز، بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

313

رواية

عمرو الجندي

الدار المصرية اللبنانية

لأن علمي جاهل جدا، اخترت البؤس،

ورغما عني سأخرج منه.. ببؤس آخر..

الإهداء

جلست كثيرا أفكر لمن أهديها، والهدية لا يجوز ردها، كتبت هذه الرواية على مراحل مختلفة ولكنها اتفقت جميعا مع الألم، المعاناة، الضجر من هذه الحياة، ولكن اتضح لي مع كل مرحلة أني أكتشف نفسي من جديد، وجدت أنها رحلة من الشك إلى اليقين، ومن الظلام إلى النور، ولذلك وجب عليَّ أن أهديها لكل القراء، لكل من قرأ لي حرفًا قبل ذلك، شكرًا وعرفانًا بالجميل، إلى كل من ذاق باسم الحرمان .. ألمًا، باسم الحب .. وهمًا، باسم الإنسانية .. جفاءً، وباسم الحريات .. سجنًا .

باسم الله الكبير، الذي يملك القاتل والمقتول، السجين والمسجون، من حرَم والمحروم، ولأن كل ذلك بإرادته أمنح نفسي وإياكم جرعة من كل ذلك في هذه ..

ع. ج

شكر خاص

أستاذي الرائع / مايك ماير ..

أستاذ الأدب الإنجليزي والمخرج المسرحي والفيلسوف، من بلاد الشرق الجميل أهديك أول رواية، من الألم، من المعاناة، من ابتسامة صادقة وحوار حار عن هتلر الذي زحف تحت سريري وقتله البرد بين ذراعي امراة، وصولا إلى عتبة اللامنزل، اللاوطن.. حينما تعرفت وعرفت أن الكلمات تموت فقط حينما لا تُكتب.. حينما لا تُنشر في عقول الفولاذ؛ ليصبح الأمل صناعة والجهل وراثة الأغبياء، في ليلة أقل جمالا من ليلتنا هذه، ستقرأ، وتقرأ، وحينما تنتهي اعلم أنه أنا ..

شكر خاص للعباقرة الذين ساعدوني دون أن يعرفوا وليتهم يعرفون ..

فيدور دستويفسكي

ليو تولستوي

أنطون تشيخوف

فيكتور هوجو

تشارلز ديكنز

نجيب محفوظ

يوسف زيدان

ستيفن كينج

«إن الله يساعد فقط من يساعدون أنفسهم».

ج.ع

عزيزي ديفيد

"إن الآثام الكبرى لا ينتج عنها إلا آلام كبرى".

بيتر سميث

1

في البداية اعتقد أنه كان ميتا، ولكن لم يكن الأمر كذلك حينما شعر بذلك الألم يدق رأسه، يدق جسده، يدق كل جزء فيه، والموتى لا يتألمون، أو ربما يتألمون ونحن لا نعلم، حقيقة مرعبة لو أُثْبِتَتْ يوما ولكن الألم كفيل ليذهب عنه تلك الفكرة الآن، ذلك الألم الرهيب الذي يعزف كسمفونية طويلة ومرعبة، تتعالى رويدا رويدا، تكاد تدفعه إلى الجنون فينتحر، إنها ليست قداس الموتى بكل تأكيد، ولكنها ربما لا تختلف كثيرا في هذه اللحظات، لم يستطع أن ينهض من سريره فإن هذه الفكرة بدت له مرعبة حتى قبل أن يفكر جسده فيها، عاد برأسه إلى الخلف قليلا، بعد أن نهض زحزح نفسه مستخدما يديه بصعوبة كبيرة بلا وعي بجزئه العلوي؛ ليواجه ظهره خلفية ذلك السرير، زاحفا وهو يجر جسده كمن أصيب بالشلل في قدميه، واستمر إغلاق عينيه، استمر طويلا لوقت لا يعلمه نسبيا لأن الألم الذي ينتشر في كل جزء منه جعله يشعر بأن الوقت ملك له وحده، بل إن الوقت البطيء تآمر عليه فنسي الجميع وتذكره هو فقط.

هذا الألم لم يبدُ له منطقيا بأي شكل من الأشكال، فكيف تسلل له كل ذلك دون أن ينتبه حتى لو كان قبل الثانية الأخيرة؟ فما يعلمه جيدا عن الألم أنه يأتينا رويدا، بعد أن يدق إنذارات التحذير البينة، إنه الزائر المنبوذ والضيف المرفوض ولكنه أخيرا يأتي رغم كل شيء، بعد برهة قصيرة علم أن فكرته عن الألم لم تكن مكتملة حيث إن هناك أنواعا من الألم لن تأتيك أبدا بشكلها التقليدي، لن تقول أبدا: «أنا على وشك التعب»، «إنني أشعر بأنني لست على ما يرام»، لن يحدث ذلك، فهناك آلام خبيثة تأتي كالسارق الذي لا تكتشف وجوده إلا بعد الصدمة التي تلي اكتشافك لفقدان شيء ما إن لم يكن كل شيء، تمنى في هذه اللحظات لو أن يتبقى شيء له حتى يستطيع أن ينهض من سريره مرة أخرى.

حرك قدميه بصعوبة وهو ما زال مغمضا لعينيه، فأشعل ذلك ألما رهيبا في ساقه اليسرى، تأوه مُصدِرا أنينا مفزعا حتى لنفسه، مَطَّ شفتيه لوهلة ثم قرص على شفته السفلى بأسنانه من فرط الألم، وبعد ثوانٍ من الترقب الثقيل منتظرا انسحاب ذلك الزائر الثقيل شرع يفكر، لم يشك للحظة بأنه أعمى، لن يستطيع تحمل هذه الفكرة أبدا، قد يقبل بشلل أي جزء منه لكنه أبدا لن يقبل بالعمى، إن الأمر مرفوض تماما، ولكن هاجمه الألم مرة أخرى كفيضان صارخ في رأسه فانكمش ما بين عينيه وارتجفت ملامحه واصطكت أسنانه

من شدة الوجع، ضغط على رأسه بكفَّيه محاولا بقدر الإمكان احتواء هذا الألم، أو ربما ليخلع رأسه من مكانها حتى يتخلص منه إلى الأبد، لم يشعر كثيرا بقوة الألم الذي يضرب ساقه في هذه اللحظات؛ لأن المطرقة التي تدق في رأسه أعنف كثيرا من أي شيء آخر يجول بجسده، وبعد دقيقتين من التأوُّهِ والأنين المتبادلين قرر ذلك الفيضان أن يهدأ قليلا، فقط قليلا، كان يعلم ذلك، شرعت أنفاسه في الهدوء كذلك صدره الذي كان يعلو ويهبط كموجة غاضبة في محيط ثائر.

إنها الراحة المؤقتة في هذه اللحظات، وعليه أن يخمد قليلا مستغلا ذلك الهدوء النسبي، شرعت الرجفة تقل رويدا؛ مما ساعده على تحمل ألمه، مال بجانبه الأيمن قليلا وهو يفك بهدوء وحذر يديه من على رأسه بينما أسنانه ما زالت تصطك ولكن بهدوء، شرعت ملامحه تترك الرجفة رويدا، بلل شفتيه مستخدما لسانه فقد كان يشعر بأن صحراء قاسية تجوب حلقه، شفتاه ثقيلتان ناشفتان جدا، هل تخلصنا من الحياة دون أن يعلم؟! شعر ببرودة، لا بل كانت البرودة هنا منذ استيقاظه من غفوته، «هل كان غافيا؟!»، هكذا مرَّ السؤال عليه ولكنه لم يفكر كثيرا في الإجابة حذرا واستعدادًا لهجوم الألم مرة أخرى، بعد دقيقتين شعر بالاطمئنان قليلا كان خلالهما يحاول النهوض، ولكن هناك شيئًا في ساقه اليمنى يمنعه

من ذلك، شيء ينبض بقوة مؤلمة فيها كلما حركها، إن الأمر أشبه بجر وزن ثقيل مربوط بقدمه هذه، وعليه أن يجره أو عليه أن يظل ثابتا إن كان لا يريد العبث مع لعبة الألم المرهقة.

تذكر في هذه اللحظات أمه وهي تعده بأن تأخذه إلى حديقة الحيوانات؛ ليشاهد الثعلب الذي يحبه إن حمل معها تلك الأغراض إلى داخل المنزل، تذكر ولعه بالثعلب بل بذكائه الكبير، لم يره ماكرا ولكنه كان يرى أن ذلك المكر هو الوسيلة التي وهبها له الله ليحمي نفسه من بطش الغابة بسكانها الوحشيين، يدرك جيدا أن الله يعطي لكل منا وسيلة دفاعية للجوء إليها وقت الحاجة، فلا يوجد أبدا ضحية، بل سوء استخدامنا لما وهبنا الله هو ما يجعلنا ضحايا.

تذكر كم كان قويا وهو يحمل ما فوق استطاعته بين يديه ويدخله إلى المنزل، بينما كانت أمه تعنفه خوفا عليه لو سقط شيء منه أو عليه، ولكنه لم يكن يستمع لها أبدا فهي لا تدرك أنه لا يستطيع الانتظار للفوز بهديته، برؤية الثعلب.

أخذ نفسا عميقا وبلل شفتيه مرة أخرى، وعاد بجسده من وضعيته المائلة ليستند مرة أخرى على لوح السرير الرأسي الذي يقع خلفه الحائط مباشرة، وقبض على الفراش بقبضتين قويتين وشرعت أسنانه تصطك بشكل خفيف، قرر أن يحرك قدميه دفعة واحدة، لا ليس الآن، لأكن مستعدا أكثر.. لا تتسرع يا ديفيد.. كن

قويا ومثابرا، فالقوة تأتي من المثابرة، وكن ماكرا كالثعلب وفاجئ آلامك، كما تفاجئك، لا تستسلم لذلك الألم اللعين.

كان يصرخ كالطفل وهو يتلوَّى على السرير من شدة الألم بعدما حرك قدمه اليمنى، يقبض على الملاءة بقبضتين قويتين تصارعان الموت، رمى الوسادة على الأرض، شعر بأنه لا يريد شيئا حوله، لا يوجد منقذ، إنها «الآه» الصامتة، الأنين المتوقع، لكنه أبدا لم يتوقع أن يكون الألم قاسيا إلى هذه الدرجة، كان نائما على بطنه في هذه اللحظات بعد صراع خانق وغير متكافئ، يعفر رأسه في السرير، وكأنه يعفر رأسه في التراب، يداه مطروحتان على جانبيه بجانب رأسه، يقبض بيديه على الملاءة وأسنانه تصطك بقوة حيث كان صوتها عاليا، وكأن عاصفة ثلجية ضربتها اليوم بينما كان جسده يرتعش بقوة، اعترت جسده رجفة متشنجة، لم يعلم ديفيد أنه بعد لحظات قليلة قد غاب عن الوعي..

غاب تماما...

2

شعر ببلل يحيط فمه، إنها الملاءة التي يقبع فوقها، هذا يعني أنه لم يغب عن الوعي كثيرا، أو أنه كان يصب عرقا أو ربما كان ريقه ينحدر بشكل مستمر ومقزز أيضا، أفزعه التفكير في الأمر وشعر باشمئزاز، شعر بتلك البرودة التي تحيط جسده، للحظة شعر بأنه داخل ثلاجة في إحدى المشارح داخل أحد المستشفيات.

«افتحوا تلك الثلاجة اللعينة، فما زلت أتصبب عرقا، ما زلت أنبض بالحياة».

حرك رأسه قليلا إلى أعلى، كان يشعر بالألم وهو يهمس في قدمه، إنها الهمسات السريعة التي تنذرك بالصراخ القريب، لم يجرؤ على تحريك قدميه للحظة رغم رغبته في ذلك، ورغم أن همس الألم كان سريعا ودقيقا أيضا لا يخطئ موضعه، إلا أنه كان صامدا محاولا بكل الطرق ألا يبكي، سقط رأسه مرة أخرى فوق ذلك البلل كريه الرائحة فأيقن أنها رائحة العرق الممتزجة بريقه العفن.

ظل ثابتا دون حراك لدقائق وهو يفكر مشمئزا، بينما الألم يئن في قدمه بانتظام، شعر بوصول الهمس الآن إلى منطقة الرأس، نعم

سيعاني في القريب، القريب جدا، شعر بأنه لو استطاع الوصول لقدمه لقبلها أو لقطعها بسكين حتى لا يشعر مرة أخرى بأي شيء، أو ليدخل في غيبوبة إلى الأبد، غيبوبة تتبعها حياة بلا ألم.

قرر أن يلف جسده في هدوء ليجلس، وقرر أيضا قرارا صعبا للغاية في هذه اللحظات، قرر أن يكتشف العالم بعينيه، كان مرتعدا من أن يفتحهما فلا يرى شيئا، مرتعدا من أن يكون مصابا بالعمى، الفكرة في المجمل كانت مفزعة، وهو على هذه الوضعية قرر أن يفتح عينيه ولو كان أعمى لأغلقهما واستدعى الألم، بل استدعاه بقوة ليقضي عليه، فهو لن يتحمل الحياة دون نور.

فتح عينيه ببطء شديد وهو يهمس بكلمات كثيرة، بدا أنه يدعو الله في هذه اللحظات الحرجة، يتوسل إليه بكل كلمة يعرفها وبكل دعاء يستطيع أن يستنبطه من بين آلامه التي تعانق جسده الآن.

كانت الابتسامة طفيفة للغاية وهي تمر عبر شفتيه القاحلتين من الحياة فتصيبهما، بينما ارتجفت ملامحه وازداد وقع الألم مرة أخرى في رأسه، ولكنه لم يعره انتباها فرحا بانتصاره، بلقاء النور الذي شك في وجوده من الأساس، كانت الرؤية غير واضحة ولكن لا يهم، خاف أن يغمضهما مرة أخرى، فلا يرى ثانية أبدا، رمش كثيرا وكأنه يحاول إفاقة عينيه من تلك الغفوة، كان يهزهما بقوة حتى أغمضهما لثانية طويلة ثم فتحهما مرة واحدة وحدق أمامه، قد

تراه ميتا في هذه اللحظات، ميتًا فارق الحياة جاحظ العينين، يحدق في الفراغ الكوني، ولكنه في الحقيقة ميت، بعد ثوانٍ ابتسم رغم ألمه المتصاعد بعد أن تأكد أن عينيه لم تفارقا الحياة، بل إنه شعر بانتصار غريب يسري في جسده فيمنحه القوة، فاستدار دون إشارة أو تنبيه، الألم يصارعه ولكنه لم يأبه لكل ذلك رغم تأوهاته الصامتة وأنينه الواضح، جلس وهو ينظر لقدمه اليمنى التي وجدها ملفوفة من عند القصبة بشكل مهني دقيق بشاش أبيض يغطي طبقة من القطن المستخدم في المستشفيات، بينما تلطخ الشاش بلون أحمر قانٍ، يبدو أنها المادة المطهرة التي يستخدمونها لتطهير الجروح.

جحظت عيناه وهو يتأوه حيث حاول أن يتذكر ولكنه لم يذكر شيئا، فآلامه لن تساعده على ذلك، لم تترك مكانها ولن تستسلم له بهذه السهولة، لم يحاول العبث بذاكرته كثيرا وهو يفرد رجليه بهدوء محاولًا استعطاف الأمل والتذاكي على الألم، ورويدا شعر بأن الألم ينسحب في هدوء وهو يطن بشكل منتظم.

أغلق عينيه لثانية وهو يعود برأسه إلى الوراء، وسرعان ما فتحهما وكأنه تفاجأ بشيء ما أو نسي شيئًا ما لا بد من التأكد منه أو القيام به في هذه اللحظات، نظر حوله في أنحاء الغرفة التي يقبع فيها، فوجد نفسه فوق سرير قديم ولكنه أنيق يرتدي ملاءة بيضاء مبللة – من العرق – وعلى جانبه الأيسر «كومود» بني اللون فوقه مفكرة صغيرة وهاتف

داخلي أحمر له أزرار بلون شفاف أبيض، بينما على جانبه على بعد ثلاث خطوات تقريبا دولاب له باب واحد متوسط الحجم لونه بني أيضا، ولكن طرازه قديم بعض الشيء، وهناك على الأرض تقبع سجادة حمراء باهتة عمرها يفوق العشر سنوات ولكنها بدت نظيفة ومريحة للنظر أيضا، وعلى الجانب الأيمن على بعد خطوتين تقريبا باب مغلق مكتوب عليه «الحمام»، وبجانب الباب يوجد حامل يقبع فوقه تلفزيون قديم من العصور الأولى لعهد التكنولوجي وبجانبه هناك باب آخر، ولم يفكر كثيرا فلا بد أنها الشرفة، وفي مواجهته كان هناك باب، إنه باب الخروج والدخول أيضا.

شعر بوخزة في أسفل معدته، إنه جوعان وعطشان أيضا، لم يشعر بذلك إلا الآن، «كيف لا توجد زجاجة مياه؟! وكيف يهاجم الألم بلا إنذار؟!»، فكر في نفسه، ولكنه وبعد دقيقة تقريبا سمع هسيسا خارج الغرفة ورأى مقبض غرفته يدور بهدوء مريب، أحدهم يحاول فتح الباب، شعر بالخوف ونسي جوعه وعطشه وألمه أيضا في هذه اللحظات، وتسمرت عيناه على الباب منتظرا ذلك الشبح، انفتح الباب وانفتحت معه كل مخاوف ديفيد، صارعته الأفكار المخيفة، فهو لا يعرف هذا المكان، لا يتذكر شيئا، العالم انتهى في هذه اللحظات، دخل أحدهم مرتديا قميصًا أبيض وبنطلونًا أزرق من نوع الجينز، ثم نظر إلى ديفيد وابتسم ابتسامة حذرة وهو يقول:

«لقد أفقت، أنا آسف على تأخري كل هذه المدة، فالأمر ليس بيدي على الإطلاق، وأحمد الله أنني استطعت أن آتي إليك اليوم، الأمر في غاية الخطورة ولكن لا يهم، المهم أنني هنا وقد جئتك بكل ما تحتاج، هل تشعر بأنك أفضل الآن؟ فلقد مررنا بفترة عصيبة».

كان ديفيد ينظر له غير مدرك، خصوصا أنه لاحظ أن ذلك الشخص يتحدث وكأنه يعرفه جيدا، كما أنه يتحدث بصوت منخفض بعض الشيء، منخفض ولكن يمكن سماعه جيدا من الهدوء الذي يخيم على هذا المكان، ظهرت على وجه ديفيد البلاهة والحذر أيضا وهو ينظر إلى ذلك الزائر الغامض، وسمعه يقول وهو يقترب منه ناظرا إلى جرحه:

«سأغير لك على الجرح، أحضرت لك بعض المسكنات التي ستعينك على تحمل الألم، ولقد أخبرتهم أيضا بأن يحضروا لك العشاء وزجاجة مياه فأنت تحتاج لأن تأكل جيدا، لا بد أيضا أن تأخذ الدواء، فلكم أتمنى لو أنك لم تعانِ خلال غيابي الطويل ولكنني كما ذكرت لك، الأمر خارج عن إرادتي تماما».

كان ديفيد في هذه اللحظات يشبه الطفل الضائع الذي عثر عليه أحد الغرباء، عثر عليه وهو مغشيٌّ عليه من شدة الجوع، والألم والشعور بالوحدة، لم يفكر على الإطلاق سوى في المسكنات والطعام وزجاجة المياه، لن يسأله من هو، فقد بدا له أنه زائر لطيف

أو رجل طيب يعينه على البقاء، فإنه هنا ولا يحارب وحده فقد أتاه المدد دون طلب، نظر بشكل مائل إلى أعلى، وكأنه يحمد الله على رحمته في هذه اللحظات، ولكنه أيضا لم ينطق بكلمة واحدة لذلك الزائر الغامض.

3

«ينبغي أن أعرف الكثير، بل الكثير جدا لأنني بالتأكيد لا أعرف شيئا ولا أعرف لمَ أنا هنا؟! وما هذا المكان؟! ومن هذا الشخص؟! وماذا حدث؟! الأمر برمته مرعب ليس بسبب ما أمر به من آلام ربما لم أمر بها من قبل على حد ما تساعدني به ذاكرتي، ولكن يبدو الأمر حتى لفاقد الهوية أمرا مفزعا».

كان الزائر في هذه اللحظات يقوم بواجبه الطبي بعناية تامة ودقة متناهية، بينما كانت الآلام والهواجس تصارع ديفيد في هذه اللحظات، كان عليه أن يستعين بالثعلب وهكذا فعل، المثابرة والتسليم بالأمر لحين ظهور زاوية يمكن من خلالها الاقتحام، تعجب كثيرا لطريقة تفكيره في هذه اللحظات فقد بدت له شريرة بعض الشيء، ولكنها أخيرا الطريقة المتاحة له في هذا الموقف الغريب، جاء الطعام في اللحظة التي أنهى فيها الزائر تضميده للجرح بشكل رائع ومتقن، لم يوجه الزائر أية كلمات لديفيد واكتفى بالصمت والعمل بجد دون أن يعبث، ولكن أليس هذا الأمر الأخير مؤلما؟! ورغم ذلك كانت مثابرة ديفيد أقوى بكثير مما تتخيل، حتى إنه في لحظات انفراده

بنفسه تعجب كثيرا لتفكيره وتصرفه هذا الذي لم يعهده في نفسه قبل ذلك.

وضع صينية الطعام أمامه بعد أن ساعده في الجلوس على السرير حيث زحزحه قليلا بحذر ورقة بيديه الاثنتين من تحت إبطيه إلى الوراء حتى اعتدل، كانت رائحة الطعام شهية حتى إن ديفيد لم ينتظر طلب الزائر ليأكل، بل انكفأ على الطعام يأكل بنهم شديد وسرعة غريبة وكأنه لم يأكل منذ أيام طويلة، لم يكن يفكر في شيء سوى الألم الذي يطرق في رأسه وبأمر ذلك الزائر الغامض، ولكن تلك الأفكار لم تعق استمتاعه بالطعام، وحين الانتهاء أفرغ زجاجة الماء كاملة في جوفه، نظر بريبة إلى الزائر الذي كان مراقبا له في صمت، ولم يبدُ على ملامحه أي شيء يثير القلق، كانت ملامحه هادئة بطبعها رغم أنها محفورة بحدة في وجهه مع شعره البني ونظارته التي تجلس خلفها عيناه البنيتان في ثبات وهدوء.

«أشكرك»

قالها بحذر فما كان من الزائر إلا أن أومأ برأسه مبتسما ابتسامة خفيفة وهو يمد يديه في أحد الأكياس التي جاء بها ويخرج علبتين من الأدوية، وفتحهما وأخرج من كل واحدة قرصا، أحدهما لونه أبيض والآخر لونه أحمر، ثم قال له بابتسامة: «لقد أفرغت زجاجة الماء فهل...»، فقاطعه ديفيد قائلا:

«ما هذا؟!».

«إنها الأدوية التي ستساعدك على التعافي، وفي نفس الوقت تسكن تلك الآلام التي تشعر بها».

«من أنت؟!».

خرج السؤال منه دون إرادة، كان السؤال يقبع على طرف لسانه بصبر مميت، حاول مقاومته كثيرا ربما خوفا من الإجابة أو صبرا، ربما يحصل على إجابته دون سؤال، ولكن بدا له أن الأمر مستحيل، ولذلك ترك الأمر لإرادته الأخرى التي لا يستطيع التحكم بها، ورغم أن السؤال لم يغير من هيئة الزائر كثيرا إلا أنه ظل صامتا ينظر له، وهو يحمل القرصين في علبة صغيرة وضعهما بها حتى لا يتلوثا، ساد الصمت للحظات ثقيلة كان خلالها ديفيد مثبتا عينيه في عيني الزائر الذي لم ينطق بإجابة شافية، لم ينطق بإجابة من الأساس مما أثار حيرة وخوف ديفيد بشدة، ولكنه أخفى ذلك في أنفاسه المتصاعدة بسرعة، والتي حاول التحكم بها حتى لا تظهر للزائر ولكن بلا فائدة.

أومأ الزائر بإشارة من يده بأن عليه أن ينتظر، وترك القرصين على «الكومود» بجانبه، ثم اتجه نحو الباب وخرج منه ثم أغلقه خلفه ولكن تخلل ذلك نظرته لديفيد مبتسما ابتسامة ثابتة لا تعني شيئا، ابتسامة مريبة أقلقته حد الانهيار.

خلت الغرفة مرة أخرى على ديفيد الذي كان يفكر بحيرة وخوف معا، هل كان شبحا؟! أو ربما ملاكا جاء لينقذني من هلاك ذلك الألم الذي يدمرني ببطء شديد؟! وهل تزور الملائكة المرضى؟! ما أعلمه أنهم يزورونهم قبل الموت! إن الموت دائما قريب إلى الدرجة التي لا نتخيلها على الإطلاق، فقد تبدو الحياة رائعة جدا تحقق ما تشاء وتعمل وتنجح، بل وتغرد لك كعصفور الفجر الغناء، ويأتي الموت فجاة ليخطفك دون مبرر ودون إنذار، أعتقد أنها هلوسات الموت، ولكن هل تأتي الملائكة بالطعام والأدوية للمغادرين من هذه الحياة؟! أم أنه لم يحن وقتي ويساعدونني قبل خروجي الأخير؟!

ربما تلك الحجرة قبر، بينما أراها أنا غرفة واسعة لها دولاب وسرير وأيضا شرفة، إنها الشرفة التي تطل على عالم الأحياء، ففي بعض الديانات يقولون إن الموتى يعرفون كل شيء عما تفعله الأحياء! إنهم يطلّون علينا من نافذة لا نراها، هل هذه الشرفة نافذتي؟! أمر غريب وسخيف بالنسبة لي لو فكرت فيه بعمق.

أيها الثعلب أين ذكاؤك الآن لتعينني على ما أنا فيه؟!

إنك جبان تخشى حتى التفكير حينما تقع في الفخ..

ولج الزائر مرة أخرى وفي يده زجاجة مياه بعد أن سرت قشعريرة قوية في جسد ديفيد حين تحرك المقبض، ناوله المياه والقرصين

وهو يحثه بإيماءة من رأسه على أن يأخذ دواءه، ولم يتردد ديفيد بل أخذهما بحذر وهو ينظر إليه ثم بعد برهة ثقيلة من الزمن:

«أنا صديقك يا دكتور ديفيد، أنا دكتور بيتر سميث. أعلم أنك لا تتذكرني، فقدت جزءا من ذاكرتك؛ الذاكرة القريبة، وهي تعادل ثمانية أشهر تقريبا، وبما أنك عرفتني منذ ستة أشهر فقط، فبالتأكيد أنك لا تتذكرني».

وصمت للحظات حيث بدا ديفيد في هذه اللحظات كطفل يستمع إلى قصة أسطورية، قصة ما قبل النوم. بينما أردف بيتر بعد أن مط شفتيه معبرا عن أسفه قائلا:

«كان حادثا مروعا ولكن الحمد لله أنك بخير الآن، لقد دخلت غيبوبة طويلة، ولقد بدأت إفاقتك منذ أيام، أتابعك من وقت لآخر. أنا طبيب، لحسن الحظ أنني طبيب وإلا لكنت فقدتك خلال الفترة السابقة، لقد نجوت بأعجوبة ولا أعلم كيف! ولكنها العناية الإلهية بكل تأكيد».

أطرق ديفيد برأسه إلى الأرض قليلا محاولا تقليب صفحات ذكرياته ولكن بلا جدوى فهناك منطقة ضائعة تماما من عقله، كيف لحادث أن يمحو ما شاء من حياتنا؟! أليس القدر قاسيا لينسينا ما نود تذكره؟ ما نحتاج إليه! إنه لأمر غريب وقاسٍ أيضا، بل إنه لأمر

يجب أن نرفضه، ولكن للأسف علينا تقبله بمضض، رفع رأسه وبيتر يقول مقاطعا أفكاره وملوِّحا بيديه على سبيل الشرح:

«لقد اتصلت بي ليلتها، تلك الليلة المشؤومة لتخبرني بأنك ستنتظرني لآخذ منك سيارتي التي استعرتها مني قبل ذلك بساعات وأخبرتني أيضا بأنك لن تستطيع أن تعود مرة أخرى، وخلال ذلك وفي طريقي إليك وجدت السيارة في حالة يرثى لها، كانت محطمة، وأنت بداخلها شبه ميت، بل ميت إن سألتني عن رأيي في حالتك في هذا التوقيت، وساعدني الله في هذه اللحظات بأن أخرجك منها، وعرفت بأنك ما زلت تتنفس، ما زلت على قيد الحياة».

إنني لم أمت أيها الثعلب، إن بيتر آدمي، أيها الثعلب، إنه ليس من الملائكة.

«نقلتك إلى هنا واستعنت بطبيب، وخلال شهرين وأنت في هذه الحالة، كنت تهذي في كثير من الأحيان، لقد شعرت للحظة بأنني سأفقدك، هو من أخبرني بأنك فقدت ثمانية أشهر من ذاكرتك ومع الوقت ستعود لك وستتذكر كل شيء، أؤكد لك، كل شيء، إنها مسألة وقت لا أكثر، تستطيع أن ترى يديك لتعرف كمَّ الإبر الوريدية التي تسللت تحت مسامك لتمدك مرة أخرى بالحياة.

نظر له ديفيد طويلا نظرة جامدة لا تعني شيئا، نظرة مفعمة بالبلاهة، محاولا أن يفهم ما يقوله بيتر، غير مستوعب، لا يصدق

أو بالأحرى لا يريد، كشف عن ساعده بهدوء وحذر، تمنى لو أنه لا يجد شيئا، ولكنه وجد أسفل ذراعه ندبًا وعلامات زرقاء تدل على كم هائل من الإبر غُرس في فترة ليست بعيدة، هنا وببطء رفع رأسه مفكرا وشاردا أيضا ولم يتفوه بشيء، وخلال ذلك تذكر هيلدا، شهرين من العلاج، ثمانية أشهر نسيتها، بالتأكيد لم أنس هيلدا، كانت الذكريات تعود إليه رويدا، ما قبل الثمانية أشهر.

«هيلدا بالتأكيد متوترة، تفتش، تبحث بجنون، أوه يا هيلدا... هل تعرفين؟!».

4

هناك على الشاطئ كان يقف عاريا تماما حين كان النهار ينسل من بين ستائر الظلام في خلسة، لم تكن تلك مرته الأولى، فلكم أحب عريه في مواجهة الطبيعة، كان يشعر بأنه ينتمي إلى هذه الأرض حينما تلامس الأمواج المتلاطمة جسده وينتشر النور الضعيف في عينيه البنيتين فيمنحهما بريقا بريئا، الوحدة الهانئة التي تأخذه بعيدا عن ذلك العالم البغيض، المياه الباردة تشعره بالدفء، والسحابات القاتمة تشعره بالأمان، والضوء الضعيف يذكره بالليالي التي قضاها وحيدا حين طفولته في غرفته يتسلل إلى كتاب اشتراه ليقضي معه أسعد لحظاته، ورغم أن أمه كانت تغضب كثيرا من هذا الفعل إلا أنه لم يتوانَ عن فعل ذلك مرارا وتكرارا، فيمكنه أن يدفع أي شيء لقاء الحصول على سعادته التي لم تمر بحياته إلا قليلًا جدا.

يتذكر جيدا تلك الليلة التي صعدت له عروس البحر وهي تغرد بأغنية لن ينساها مهما عاش وكلما تنفس على وجه هذه الأرض، «إنك تجرح قلبي You're breaking my heart» ، التي يغرد بها «Vic Damone»، لقد أصابه صوتها بالجمود من شدة الرعب، إنها

عروس البحر ولو رأته لقتلته! ولكن هل يمكن أن تحبه كما ذكروا له في القصص الأسطورية حينما كان يستمع إلى المعلمة «إيديث» فقد كان يحبها كثيرا، وهي أيضا كانت تراه مختلفا عن باقي التلاميذ، مختلفا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

You're breaking my heart

إنها ما زالت تغني بصوت شجي حزين، تعالت نبضات قلبه، كانت الرجفة تسري في جميع جوانبه دون توقف، هل تراه؟! وإن لم تكن فهل يظهر لها؟! وهل إن ظهر ستختفي للأبد؟! لكم يود أن يحتضنها، ولكن ماذا إن كانت عرائس البحر شرسة؟ وماذا إن كانت كل القصص الأسطورية مزيفة؟! هل ستذهب كل أحلامه سدى؟! لا يوجد رفيق، لا يوجد سواه في هذه البؤرة السارحة في الظلام، أخذ نفسا عميقا ثم غنى هو الآخر بصوت مرتجف من الرعب، لم يفكر كثيرا قبل أن يفعل ذلك، لقد ضحى بتردده الذي ربما سيضحي به هو الآخر لو فكر في الفرار من المجهول.

You're breaking my heart

لقد توقف الصوت، لقد سمعته.. هل اختفت؟! إنني أرى شبحها ولكن...

«عزيزي ديفيد... أريدك أن ترتاح قليلا وسآتي إليك غدا في المساء، فالدواء سيأخذ مفعوله خلال دقائق، غدا سأكون هنا، لا تقلق».

نظر له متفرسا، محاولا التركيز، كانت الغرفة تختفي رويدا من أمام عينيه، الحياة تنسحب من أمامه، كان يسمع كلمات بيتر الأخيرة كهلوسة قادمة من بعيد...

You're breaking my heart

إنه هناك يغني...

يغني...

5

صحا من النوم كسلحفاة تغادر فصل الشتاء اللعين، كان إحساسه بالألم الذي يواجه رأسه دقيقا وعميقا أيضا، فتح عينيه بصعوبة بالغة نصف فتحة، محاولا أن يكوِّن صورة كاملة، مال برأسه قليلا ناحية اليمين وهو ما زال يحافظ على فتحة عينيه المواربة، أخذ نفسا عميقا ملفعًا بالألم جراء الصداع القاسي الذي يدق في رأسه ثم اعتدل لينام على ظهره، ثم زفر بنفاد صبر يصاحبه غضب ناتج عن الضجر.

بعد ثوانٍ فتح عينيه عن آخرهما ودار بعينيه في الغرفة وهو ما زال مستلقيا على حالته، ولأول مرة يرى لوحة معلقة على يمينه، إنها لوحة رجل وثعلب يجريان معًا! كيف لم أرها من قبل؟! تأمل اللوحة طويلا بحيرة وتعجب، تراءى له أنه رأى تلك اللوحة من قبل، ولكن ليس في هذه الغرفة، ظل يقلب في ذكرياته بكل ما أوتي من قوة، ولكن كان ألم رأسه يمنعه من التركيز، مجهود عظيم في اتجاهين مختلفين بذله في هذه اللحظات، الاتجاه الأول متمثلٌ في الإبقاء على ذاكرته، والاتجاه الثاني في مواجهة الألم القاسي الذي يخترق كل قوة تحملية يملكها فيفتك بها، ولكنه في لحظة واحدة قرر أن يستثمر قوته المتاحة في مقاومة هذا الألم اللعين.

فجأة تذكر الزائر الغامض، ماذا كان اسمه؟! بات، بيرمن.. لا لا، بيتر، نعم اسمه بيتر، شرع في تجميع ذكرياته عن الليلة السابقة، يبدو أن العودة إلى الوراء لا مفر منها في حالته تلك، تذكر الطعام الذي تناوله بالأمس مما أثار جوعه مرة أخرى، وخلال ذلك لمح الزجاجة الفارغة التي تقبع في سلة بجوار سريره، سلة شفافة تعكس ما بداخلها، إنها زجاجة المياه التي أفرغتها بالأمس في معدتي، لقد أمدني بالدواء! لقد نمت، ولكن متى نمت بالتحديد؟! أين الدواء؟! نظر بعنف حوله باحثا عن الدواء، كان يتلفت حوله بتوتر سريعا، ها هو بجانبي، بجانب الهاتف اللعين، لقد كان يخفيه عني! ألا يكفي ما ألاقيه من ألم هنا؟! وجد علبة واحدة من الدواء رغم أنه يتذكر جيدا أنهما كانتا علبتين ولكن لا يهم، كانت زجاجة المياه الثانية التي جاء بها بيتر ما زالت قابعة في مكانها لا تتحرك، ساكنة، منتفخة، نظر طويلا لها وقد غاب في ذكرياته.

«هيلدا بحق الله إنني عطشان ولا أستطيع النهوض فهلا جلبتِ لي زجاجة مياه؟»، إنه أبريل عام 2003 حينما كان ملازما للسرير جراء حادث سيارة أصابه في ساقه، إنه أبريل الأول الذي يمر عبر زواجه من هيلدا براون التي تحولت عقب الزواج إلى هيلدا جونز، الزوجان جونز، إنهما الزوجان السعيدان، العاري وعروس البحر.

قذف القرص إلى داخل حلقه ومن بعده انسابت المياه تجري لتأخذه إلى جوفه، شعر بالراحة ليس لأن الأقراص شرعت في

عملها بهذه السرعة، ولكن فكرة وجود الأقراص نفسها كانت كافية لتهدئته، ولعلمه بأنه ليس وحده هنا، لن يقاوم بجسده الضعيف دون مدد، المدد هنا أيها الألم اللعين، رغم هسيس الألم في قدمه إلا أنه لم يعره انتباها، متحديا ومنتظرا لأن يعمل الدواء ويخلصه من كل ذلك.

استحالت ملامحه فجأة إلى الحزن ووضحت عليه الكآبة، تغلفه بشكل كبير، قطَّب ما بين حاجبيه وتسمر وجهه في مواجهة الحائط الذي تقبع عليه اللوحة، تذكر هيلدا في هذه اللحظات، هل تعرف ماذا حدث لي؟! وكيف تشعرين الآن يا حبيبتي؟! ولماذا يضعني بيتر هنا؟! هل أخبرها لكي تطمئن؟! وإن كانت تعرف لماذا لم تأتِ لتطمئن بنفسها؟! ولماذا لم يضعني بيتر بأحد المستشفيات بدلا من معاناتي هذه؟! الوحدة والألم معا!

كانت الهواجس السيئة فقط هي ما تدور بعقل ديفيد في هذه اللحظات، لم يجد إجابة واحدة تشفي، بل لم يجد إجابة على الإطلاق.

فتح عينيه ليخرج من غفوته على صوت معدته، خوار جوعه، لكم يود أن يعرف التوقيت، أين ذهب بيتر؟! حاول أن يتذكر كلمات بيتر الأخيرة ولكن بلا جدوى، الأمر يكاد يكون مستحيلا، بل هو مستحيل بالفعل.

نظر إلى الهاتف بهدوء وحذر وشرع يفكر قليلا، وبهدوء أمسك بسماعة الهاتف ثم سرعان ما أتاه صوت يقول: «أهلا بك سيدي، تحت أمرك»، اندهش للحظة، ولكنه سرعان ما تدارك ذلك: «كم الساعة الآن؟».

«التاسعة يا سيدي» رد بشكل آلي غير مكترث.

«التاسعة؟!».

«نعم التاسعة مساء من يوم الأربعاء».

أغلق السماعة وهو يفكر ثم بهدوء حول نظره إلى اللوحة القابعة أمامه حيث شعر في هذه اللحظات بأن الألم ينسحب من رأسه بهدوء ثقيل ولكنه أخيرا ينسحب.

«إنه غريب الأطوار، ابتعدوا عنه، ولكنني لم أفعل شيئا لكم، إنك لئيم وتستخدم طرقا لا نفهمها في الاختفاء يا ديفيد، كما أنك مُنْطَوٍ ونحن لا نحب ذلك».

«تبا لكم جميعا فأنا أستطيع الاكتفاء بصديقي الثعلب فهو فقط من يفهمني».

ذكريات الطفولة الكريهة، الأطفال السطحيون، إنهم يكرهون الثعلب رغم جماله وذكائه، إنكم حثالة أصابتني بالغثيان والنفور من طفولتي، نعم اكتفيت بالثعلب كصديق.

مقبض الغرفة يتحرك..

بالتأكيد إنه بيتر.. يجب أن يكون بيتر.

6

كان يحمل في يده كيسا لونه أسود، كما أنه كان متأنقا للغاية في سترة سوداء وسروال أسود وربطة عنق سوداء تزين قميصًا رماديًا وعلى ذراعه الأخرى يرقد معطف أسود، كان يبدو كمن جاء من حفل أوبرا، أغلق الباب بهدوء ثم اقترب بخطوات هادئة من ديفيد دون أن يوجه له أية كلمات، بل لم يوجه له أية نظرات، ثم وضع الكيس بجانب «الكومود» على الأرض ثم ذهب إلى الشرفة وفتحها بهدوء ثم دلف إليها، بعد ثوانٍ كان فيها ديفيد متحيرا ومفكرا أيضا جاء بيتر وهو يحمل كرسيًا في يده، وعلى يده الأخرى يرقد المعطف وقد بدت قبضته قوية لديفيد في هذه اللحظات، ثم وضع الكرسي بجانب السرير في مواجهة ديفيد من ناحية اليسار، ولأول مرة يرسل له نظرة، نظرة لا تحمل أي معنى، كانت نظرته لا يشوبها أي شيء أو أية إيماءة لتمنح ديفيد أي نوع من الراحة.

بهدوء وضع المعطف على قدميه بحيث كانت أطرافه تلامس الأرض، ثم مال قليلا تجاه اليمين وهو يدس يده في جيب سترته،

ثم أخرج علبة من الدواء وبهدوء نظر إلى «الكومود» فوجد زجاجة المياه التي تركها بالأمس ما زالت تنبض بالحياة، فتح العلبة وأخذ شريطًا منها ثم أخرج قرصًا وأعاد الشريط مكانه، وناول ديفيد القرص: «خذ هذه فستساعدك على الخلاص من آلامك لوقت طويل»، لم يتردد ديفيد كثيرا حيث ابتلع القرص في ثانية وعيناه ما زالتا ثابتتين على بيتر، لم يره في هذه اللحظات سوى إنسان غامض، بعد ثوانٍ قليلة تطلَّع إليه وشعر بالتردد لثانية..

«هناك العديد من الأسئلة التي لا أجد لها إجابة!»، وأخذ نفسا عميقا «وأنت الوحيد القادر على مساعدتي في ذلك».

ابتسم بيتر ابتسامة مبتورة تدل على توقعه للسؤال ولمعت عيناه «ليس عليك أن تسأل يا صديقي، فكل ما تحتاجه من إجابات ستعرفه.. ستعرفه بكل تأكيد»، وساد الصمت للحظات كان خلالها بيتر يضع الطعام أمام ديفيد «الآن تناول طعامك ولا تفكر بشيء».

بدا لديفيد أن بيتر يعلم جيدا ما يفعل، يعلمه بشكل متقن للغاية، كان يدخن سيجارة وهو يتفحص ديفيد خلال تناوله للطعام، بينما كان الأخير يحاول بقدر الإمكان ألا تلتقي عيناه به حيث بدا منغمسا في تناوله لطعامه، ولكن لم تكن هذه الحقيقة بل كان منغمسا في أفكاره وهواجسه السوداء، من آن لآخر كان ينظر إلى اللوحة على الجدار بطرف عينه دون أن ينتبه له بيتر - أو هكذا اعتقد -.

«أيها الثعلب الجميل ماذا دهاك؟! هل ستحرمني من مساعدتك الآن؟! لقد قال لي إنه صديق ولكن حتما لا يتعامل الأصدقاء مع بعضهم بهذا الشكل، هذا أمر بديهي ولا أحتاج لك فيه... تبا لذاكرتي التي ذهبت دون إذن مني، بل ذهب منها ما أريده الآن، الآن فقط».

«هل تعلم أن الخيانة تحتل جزءًا كبيرًا من حياتنا، بل إن لها أثرًا كبيرًا وعميقًا في نفوسنا يا صديقي العزيز؟!... الخيانة المرض البشري المتعجرف والمستمر أيضا».

كان بيتر يقول كلماته بطريقة غامضة لها معنى وهو ينهض من مجلسه بهدوء متجها ثانية تجاه الشرفة، وفي يده عقب السيجارة التي كان يدخنها، ألقاها هناك، يا للغرابة، يلقي البقية المحترقة منها على السجادة الضعيفة، فهي لا تحتمل، ويفضل أن يلقي العقب في الخارج، غريب، ولكن أليس كل شيء غريبًا لو قارنته بما أنا ملاقيه وبتصرفاته هو الآخر؟!

استطاع ديفيد خلال هذه الثواني المعدودة أن يلقي نظرة على علبة الدواء التي تناول منها قرصا، لم يكن مكتوبًا عليها شيء، لا اسم، لا شركة، لا إرشادات، لا غرض من الدواء، كانت حمراء وهذا كل شيء.

اقترب منه في هذه اللحظات ثم جلس مرة أخرى بنفس الوضعية السابقة، ولكنه هذه المرة عاد إلى الخلف وشبّك يديه على ركبتيه ومال برأسه إلى اليمين قليلا، وقد ذهبت عيناه بعيدا حيث بدا لديفيد في هذه اللحظات أنه شخص فارق الحياة، امتعض ديفيد وهو يطرق برأسه إلى أسفل وذم شفتيه واقتضب ما بين عينيه، كان يشعر بالغضب الهش يسري في دمائه والحيرة اللامحدودة تطوف بعقله، لم يستطع أن يفكر، شعر بالخوف بل ارتعد، اعتقد أنه سيغيب عن الواقع، ولكن قطع كل ذلك صوت بيتر، وهو يبتسم ابتسامة ودودة: «عليك أن تكون ممتنا لي يا صديقي، فلقد أنقذتك من الموت، الموت، ذلك الديكتاتور الذي لم يخسر قضية أبدًا ولم يرحم ضحية في يوم من الأيام».

رفع ديفيد رأسه وابتسم ابتسامة باهتة رغما عنه بل ابتسامة أجبر نفسه عليها «أنا ممتن لك يا دكتور بيتر».

«بل قل صديقي».

تنهد ديفيد تنهيدة خفيفة أخفى معالمها الحقيقية في جوفه «أنا ممتن لك يا صديقي».

«ما دمت أنا هنا لن ينال منك الألم ثانية، وما دمت أنت لن تخالف القواعد فلا تحمل همًّا على الإطلاق».

«القواعد؟!» - قالها مندهشا ومفكرا أيضا، ولكن قاطعته الإجابة القاطعة «لكل شيء في العالم قواعد وقوانين يا صديقي، وإن مخالفتنا لها هي ما تربك موازين العالم، أعتقد أن هذا هو مبدؤك في الحياة، لقد قلت لي ذلك مرارا خلال عملنا معًا، ألا تذكر؟! أوه، كيف نسيت؟! سحقا لي، فأنت حتى لا تتذكرني».

«أنت تعلم أنني...».

«لا عليك، لا عليك، فنحن جميعا عرضة لما هو أسوأ من ذلك». قاطعه مشيرا بيده.

ساد الصمت وحينها تبدد بعض الخوف من قلب ديفيد، ولكن حل محله الرعب ولكنه أخفى ذلك خلف قناع هش يرسم ملامح لا تعني شيئا، متوجسة تبتسم من وقت لآخر دون رغبة، حاول تحريك جسده ولكن فاجأه ألم ساقه فأصدر أنينا طفيفا رغم اجتهاده بألا يتألم محدثا صوتا، فلا يطفو ضعفه في الخلاء، ولكن بدا أن بيتر لا يعيره انتباها في هذه اللحظات، وبعد وهلة أخرى من الصمت كان الألم فيها مستيقظا وطازجا يتثاءب ليقوم بمهمته، جاء صوت بيتر «عليك ألا تظل في هذه الغرفة طويلا، وخلال أيام قليلة ستتخلص من كل ذلك، ستتخلص منه إلى الأبد، أعدك بذلك».

«لماذا تفعل كل ذلك يا بيتر؟! لماذا لا تلقيني في أحد المستشفيات وتريح نفسك من كل هذا العناء؟! لماذا تصر على

التلاعب بعقلي شبه المشوش المصدوم من حادث لا أستطيع تذكره؟! لمَ تعبث بي وبثعلبي المسكين المصاب في ساقه؟! عليك أن تكون أقوى من ذلك إن كنت تريد مساعدتي وتواجهني حينما نتعافى نحن الاثنان».

«ولكن عليك أن تتبع القواعد، أن تفعل ما أطلبه منك. ولكن عليك أولا أن تعرف أن حياتك قد انتهت، انتهت تماما».

فارق ديفيد أفكاره بعد ما قاله بيتر في هذه اللحظات، تمنى لو أنه لم يعد من الموت، بل تمنى لو أن الألم يصرخ في ساقه ورأسه فيرديه مغشيا عليه مرة أخرى.

7

كان ديفيد جونز في هذه اللحظات يتمنى الألم، علم في هذه اللحظات أن هناك أنواعًا من الكلمات أشد وقعا في تأثيرها من بعض الآلام، وتأكد أيضا أن العيش مع الألم أحيانا أفضل مائة مرة من معرفة الحقيقة كاملة، ولكن ورغم كل ذلك كان هناك جزء منه يحاول جاهدا استحواذ الأمر وتهدئته، طرقت الجملة التي أطلقها بيتر مرة أخرى عقله وإحساسه «ولكن عليك أن تتبع القواعد، أن تفعل ما أطلبه منك. ولكن عليك أولا أن تعرف أن حياتك قد انتهت، انتهت تماما».

«القواعد.. ذلك الأمر الغبي، القواعد.. إنها الطريقة التي يستخدمها بعض الأشخاص للتحكم في نفوس البعض الآخر تحت شعار الألفة والنظام والحياة الصالحة، ألا يفهم هؤلاء أننا في غنى عن قواعدهم هذه؟! عليهم أن يطلقوا عليها «الأوامر الجبرية» أو «لأجل حياة مقيدة»، الشروط التي توضع لك من قِبَلِ إنسان مثلك لكي تستطيع الاستمرار، متبجحًا بقدرته السادية على الإطاحة بحقوق الآخرين تحت ذلك المسمى الزائف، ما هذه السخرية؟! ومن أين أتيت

بسلطتك هذه لتملي عليَّ قواعدَ لن أقبلها من الأساس؟! فالله لم يمنح حتى الأنبياء والرسل سلطة ليضعوا قواعد تمنحهم الحق في التحكم في البشر، لا تقل لي يا بيتر إنك الكاهن الاستثنائي ولم تأتِ إلا لنصح ديفيد المسكين! أرجوك لا تقل ذلك».

أرسل بيتر في هذه اللحظات نظرة حزينة طويلة تتأمل ديفيد، ولكن تلك النظرة كان يشوبها الكثير من التردد والألم أيضا ولكنه وبعد مرور وقت ليس بالقليل لم يتكلم، لم يقل شيئا. بل عاد برأسه إلى الوراء متقمصا دور الجثة مرة أخرى.

«الآن ستقول لي إنه باقٍ من حياتي القليل، أرجوك لا تمنحني تلك الكذبة السوداء، فأنا لن أقبلها، وإن كان الأمر كذلك وعليَّ اتباع قواعدك وحدك، فلمَ لا تقبل قاعدة واحدة مني وتتركني للألم، إن كانت النهاية كئيبة إلى هذا الحد، بل إن كانت النهاية معروفة قبل البدء في السير نحوها، سامحني يا بيتر فأيا كانت نواياك فأنا لن أرضخ لقواعد أحد، فالعالم لم يمنحني شيئا سوى الذل والتعاسة، لقد تركني والدي السكير بدون سبب، بدون القبلة الأخيرة التي يمنحها الآباء لأطفالهم في أسرتهم في الليل قبل أن يقتلوا أمهاتهم، أو قبل أن يعزموا على الانتحار، إنها القبلة التي يشعرون بعدها بالراحة، لقد حرمني من القبلة المؤلمة الأخيرة، ولكنها أخيرا قبلة نحتاجها. ربما تكون هذه القبلة شفيعا لهم في يوم من

الأيام، ولكنني تعلمت أن كل ذلك هراء، وأن السكارى لا يمنحون القبلات إلا للزجاجات الممتلئة بالخمر، يمنحونها فقط للنساء اللاتي تفوح منهن رائحة النبيذ البغيضة».

انكمش ديفيد على نفسه مع أفكاره تلك وشرع الغضب يثور في أعماقه، ولكن في صمت، مما أبرز الألم أكثر في هذه اللحظات في ساقه ولكنه لم يتأوّه بل لم ينزعج من ذلك - بل كان مستمتعا بأن هناك ما يدفعه إلى الثورة بقوة - فالثورات تحتاج إلى دوافع قوية. جال بخاطره أمه التي هوت في عقله فجأة في هذه اللحظات واحتلت كل تفكيره، رغم أنها تركته وهو في الثانية عشرة من عمره هربا خلف رجل حقيقي - من وجهة نظرها - إلا أنه لم ولن يشفع لها ذلك، فكيف لامرأة ثلاثينية تعرضت لحب وزواج مزيف وذكريات مريرة ألا تترك نفسها لمشاعرها؛ مما يجعلها تترك خلفها كل شيء حتى ولدها؟! ولكن كل ذلك أربك حياته، جعله يصغي ويستسلم لقواعد المجتمع بشكل كسر فيه العديد من الأشياء، إن لم يكن كسره كاملا، ولكن ديفيد كان يعلم أن هناك جزءا مهترئًا في أعماقه - لا يعلم مكانه بالتحديد - يؤلمه، تؤلمه القواعد التي تبيح السكر والهجر وعدم الاكتراث، يؤلمه أن البشر دائما ما يضعون قواعد تخصهم وحدهم لتحقيق مصلحتهم وحدهم، فلا تحدثني يا بيتر عن قواعد لم ولن أقبلها، اطعنّي الآن في قلبي وليختفِ كل شيء، فقد مللت قواعدكم».

تحركت الجثة من مكانها بهدوء ثقيل وبعيون لامعة دبت فيها الحياة، ثم وقف واتجه بخطوات لها رنة خاصة وثقيلة أيضا، شعر ديفيد بأن بيتر لن يتوانى عن إلقاء قنبلة أخرى إن لم يكن سيطلق قاعدته الأولى المرفوضة من الأساس، ولكنه انتظر حتى بلوغ الذروة، فالثعالب ينتظرون في ترقب، وحينما وقف بيتر في مواجهة ديفيد كان حينها يقف عند قدميه في نهاية السرير «آسف لما حدث، فلم أتخيل للحظة أنك ستقدم على ذلك»، مال ديفيد برأسه قليلا منتظرا شاعرا بالقلق، بل طافت في عقله وفي ثوانٍ معدودة أفكار كئيبة ولكنه انتظر.

«أنت مدان بجريمة قتل، العدالة تطاردك في كل مكان، كل الشواهد ضدك، لذلك أنت هنا».

وسط كل ذلك، وسط هذه الجملة الصاخبة بالحياة والموت والقاطعة لكل أفكاره اليائسة والثائرة، لم يعلق في رأس ديفيد سوى كلمة واحدة.

«العدالة»..

8

حينما بدأ بيتر يعتقد بأن ديفيد رحل إلى العالم الآخر وذلك كان بسبب وجهه الذي ازداد شحوبا وفمه الموارب وعينيه الجامدتين والثابتتين على اللاشيء رآه يحرك فكّه السفليَّ بحركة لا إرادية، حركة بطيئة، لم يكن عليه أن يفكر أو يتكهن كثيرا بما يدور في عقل ديفيد في هذه اللحظات، ولكن على الجانب الآخر كان يدرك جيدا أنه يتعامل مع شخصية متقدة الذكاء، ربما لا يعرف أحد ذلك، لكنها الحقيقة، أشعل سيجارا ثم نفث الدخان وهو يطلق معه تنهيدة عميقة.. عميقة جدا.

كان ديفيد خلال هذه اللحظات يحاول أن يستوعب بما استطاع من أفكار، أن يرى الحقيقة وراء ذلك الرجل الماثل أمامه في كامل حليته، تخيله مندوبًا من الشيطان جاء في الليل ليقتلع ما تبقى منه أو بالأحرى ليخلصه من آلام الغموض، ولكن الشياطين لا تفعل ذلك دون مقابل، عجبا.. إن بعض المساعدات يمكث خلفها شياطين، فمن تكون يا بيتر؟! الشيطان الذي ساعد الشيخ أم الكاهن الذي جاء لي وحدي؟!..

«لقد قتلت زوجتك هيلدا يا ديفيد، قتلتها بدم بارد دون وازع ودون تردد، بل دون خوف، وحينما هربت استعنت بي وأخذت سيارتي؛ حيث بدا أن خطتك لم تكن مكتملة - إن سألتني عن رأيي - ولكن أخيرا كان لله خطة أخرى في أن تقع بين أنياب حادث ويرسلني القدر لإنقاذك».

انبعثت الكلمات من فم بيتر كقذيفة مدوية في حرب العراق الكريهة التي راح ضحيتها الكثير من الأصدقاء أو بالأحرى زملاء الجيش، تصور نفسه وهو يمسك ببندقيته مختفيا تحت خوذته، واللفحات الحارقة من الصحراء تقتله آلاف المرات قبل أن يقتله أحد المدافعين عن وطنهم من أبناء العراق، أغمض عينيه المرتجفتين وهو يئنُّ في هدوء وألم، شفتاه ترتجفان متراقصتين بشكل غريب وكأنه مصاب بالحمى، لم يكن الألم نابعا من ساقه أو رأسه بل ألم الذكريات المغلفة بالدماء والشعارات الكاذبة، رأى نفسه وهو يقتل شابًا لم يتعد السابعة عشرة من عمره، رأى نظرته وهي تلوح بجنون إلى جثة ذلك الشاب والدماء الغزيرة التي كانت تخرج من رأسه كشلال لا ينتهي، حتى إنه تصور أن نزيف ذلك الرأس لن يتوقف على الإطلاق، لم يسمع دوي المدافع وهو يجثو بجوار هذا الفتى، مذهولا أو مجنونا للحظات صعبة لم تختفِ يوما من ذاكرته التي تحافظ فقط على الأشياء المؤلمة، لم يسمع الكلمات الكاذبة التي كان يلقيها قادته عليه، لم يكترث حينما طلب منهم إرساله إلى

وطنه في الحال، وإلا لمات قهرًا وألما جراء ما يحدث، أو ربما مات جنونا، ولكنه كان يدرك جيدا أن جزءا منه قد مات إن لم يكن بأكمله، لماذا يا بيتر تعيد الذكريات؟! لماذا تصر على فتح الملفات التي لا أتذكر غيرها؟ ولماذا لم يأخذ القدر هذه الذكريات أيضا؟!

القواعد والعدالة... تبًا...

قواعدكم يا بيتر لا تحقق العدالة.

«هيلدا، لقد سمعتك تقول هيلدا، ماذا حدث لها؟! قل ثانية، بحق الله قل إنني قتلت نفسي ولكن لا تقل لي بأنني قتلت هيلدا الجميلة، نبضي الوحيد في هذه الحياة البائسة، قل لي أيها الشيطان بأنك تحاول أن تمنعني عن محرابي! بئسا لك.. بئسا لقواعدكم، فأنا أستطيع أن أقتل ألف شاب وأعيش مع ذكريات سوداء ولكنني أبدا لن أقتل هيلدا».

«أنا أعلم أنك لا تتذكر يا ديفيد أي شيء مما أقوله، أعلم أنك لن تصدقني، ولكن معي كل الدلائل التي تثبت ذلك، لقد نسيت يا صديقي أننا كنا مقربين منذ مدة لا بأس بها، لا تعلم أن الشيطان لعب بك، حول عقلك عكس اتجاه عقارب الساعة، ومن يخالف العقارب تلدغه يا صديقي، تلدغه لدغة الموت».

كانت أفكارهما الداخلية تتحرر أكثر وأكثر، جنون ديفيد ورفضه التام لهذه الحقيقة جعله صامتا وغائبا عن الوعي تماما، فاغر الفم

مرتجفا، وزاد ذلك من آلامه، يئن دون أن يدري بصوت ضعيف ولكنه عميق أليم.

«عليك أن تقبل بكل ذلك وأعلم أنك لن تستطيع أن تفعل ذلك في يوم أو يومين، عليَّ أن أكون واقعيا وجادًّا أيضا، كل شيء يحتاج لبعض الوقت» قالها وهو يُخرِج من يده علبة دواء ثم مشى بهدوء تجاه زجاجة المياه، ومد يده إلى ديفيد لكي يلتقطها منه ولكن لم يكن ديفيد موجودا في هذه الغرفة الآن بل كان في مكان هو نفسه لا يعلمه، كان واقفا أمام ذكرياته اللعينة يستحلفها بالله أن تمده بالحقيقة، الحقيقة العارية ولكن الحقيقة مقتولة في رأسه في صورة ذكرى ميتة، لا تنبض بالحياة، لن تعود من قبرها المعتم، لقد أخذها القدر، أخذها دون استئذان منه، وهل يستأذن القدر؟! مال برأسه قليلا وببطء بحركة آلية تجاه بيتر وكأنه آلة تحتاج للصيانة، عيناه شاخصتان على اللاشيء، مجردتان من الحياة، لم يعرف لِمَ مد يديه وأخذ القرص، قوة جبرية داخله أرغمته على ذلك، لا يعلم متى انتهت اليقظة منه، لكنه امتثل بشكل غريب للنوم..

أو بالأحرى للاوعي..

9

في الخارج، المطر ينهمر عازفا سيمفونيته الخاصة، الهدوء الثقيل الذي يخيم على ظلام الغرفة يقطعه هدير الرعد، زئيره الغاضب يسبقه لون البرق المهيب، باب الشرفة الرديء يصطك ليكمل ذلك المشهد، الظلام يخيم على السماء بلون رمادي قاتم يظهر مع كل زيارة سرية للبرق المفاجئ، السحب منتشرة ومتسمرة، أبدت رغبتها في الانتقام من الزرقة، بينما كان ديفيد ممددًا في سريره ناعسا غارقا في عرقه رغم البرودة القاسية، بيتر نائم على كرسيه الشبحي يغطي نفسه ببطانية مصنوعة من الصوف تغلفه من أول رقبته حتى أخمص قدميه فلا يظهر منه سوى رأسه المائل قليلا تجاه اليمين.

فتح ديفيد عينيه فجأة على صوت الرعد الصارخ في السماء، المربك، كان صوته يشبه تلك القنابل في العراق بل كانت أشد بكثير، في هذه اللحظات الصعبة، صحا مفزوعا ومتألما أيضا من ردة فعله القوية والمفاجئة التي نفضت جسده بالكامل مما أثار ألم ساقه، تأوَّه بصوت مسموع ولكن لم يحرك ذلك جفنا لبيتر الذي كان غارقا في أحلامه أو ربما كوابيسه أو ربما لا شيء.

منح العرق وجهه لونا لامعا ورعشات غريبة، تلك الأخيرة زدات من ألمه، كلما دوَّى الرعد، انتفض ديفيد من مكانه وتألم أكثر وأكثر، لم يلاحظ في البداية وجود بيتر من شدة الظلام الذي يغلف الغرفة كقبر سارح في الخلاء، ولكن تلك الأنفاس المسموعة التي تشبه أنفاس الأسد حينما يتربص بفريسته في ثبات كانت تمنحه الإجابة. نظر طويلا في اتجاه الأنفاس المسموعة ليتأكد من هواجسه، نعم إنه هنا، الكاهن، أو شيطاني.. لا يهم في النهاية، أنا لا أومن بكما، لا أومن بأي شيء، ماذا قلت يا بيتر قبل أن أنساق خلف الهذيان؟! نعم كنت تقول إنني قتلت! وقتلت من؟! قتلت زوجتي! حبيبتي هيلدا، أشكرك على هذه المعلومة فلم يكن يكفيني شيء غيرها، منحتني ثمانية أشهر من النسيان ومعهم جريمة قتل، ولكنك لا تدرك أنك بالفعل كنت دقيقا للغاية، بل أكثر دقة مما تتخيل يا صديقي المجهول حينما أخبرتني بأن حياتي قد انتهت، نعم انتهت للأبد، أنت محق في ذلك، ولكن لماذا تبقيني على ظهر الحياة؟! إن كنت صديقي فبحق الله امنحني موتًا، فإن القدر كان رحيما حينما حرمني من رؤية نفسي أقتل في ذكرياتي، فلماذا تجادل القدر؟! لماذا تتخذ مكانه وتمنحني أنت قدرا قاسيا؟!

قبل أن يمد يده بحثا في الظلام عن الدواء خطرت في باله فكرة شريرة، فكرة الموت المجنونة، الانتحار، الاختفاء السريع من بين أنياب آلامه ومعاناته، التلاشي من حياة لا تستحق العيش،

مد يده في الفراغ المظلم، يمينا.. يسارا، يبدو هذا شيئا مصنوعا من الخشب، بالتأكيد إنه «الكومود»، لقد اقتربت، أين ذهب ذلك اللعين؟! العرق يتصبب بلا توقف، لم يحصل على شيء ثمة، لم يحصل إلا على المحاولة الفاشلة، الألم اللعين، اليأس القادم بحصانه المغوار، الخزي وازدياد شعوره بالعجز، ولكنه كان يوقن أنه مع تكرار المحاولة قد تأتي الحلول، النتيجة المطلوبة، منح نفسه محاولة أخرى، كان ينبش كفأر صغير في الظلام، محاولا ألا تسمعه الجثة النائمة، ألا يقلق نوم ذلك الكاهن، ولم لا يموت؟! فهذا لن يقلل من قيمته ككاهن فالكهنة يكذبها ويكفر بها الكثيرون، فلماذا لا أموت كافرا؟! فهذا لن يغير شيئا ولن ينتقص من رسالته، مد يديه بغضب مكتوم وعصبية بحثا فوق «الكومود» وحول الهاتف اللعين الذي يخفي الأشياء، ألم ساقه يعيق بحثه، ذم شفتيه بقوة قابضا على آلامه بين فكيه ولكن هيهات، لن تكون الإجابة سهلة على الإطلاق، لن تكون الراحة بهذه البساطة، لن أحصل على الدواء، لن أستطيع أن أمنح نفسي الموت.

انتبه لتوقف الأنفاس الصاعدة في الظلام، إن الأسد يغير خطته، لقد قرر أن يهجم الآن، لقد صحا من غفوته، سيعاقب الفأر الصغير على جرأته، لن يرحمه، فكيف تنبش الفئران في بيوت الأسود؟! سمع شيئا يتحرك، نفسا عميقا، خطوات وئيدة وبطيئة جدا، إنها تشبه خطواته هو نفسه في الظلام، كان يحب وقعها ولكنه الآن

يكرهها كرها مميتا، الإضاءة عمت الغرفة فجأة مما جعله يخفي عينيه تحت ذراعه، أمن المنطق أن أخفي عيني حين افتراسي؟! وبهدوء وببطء شديد أزاح ذراعه من أمام عينيه ليجد بيتر واقفا في مواجهته كتمثال مهيب، تلك التماثيل التي كانوا يعبدونها في وقت من الأوقات خوفا، نظرته الثاقبة وبروده الغريب والغامض يدفعانني أحيانا إلى التفكير في قتله، اقترب منه حتى جلس على الكرسي مرة أخرى «هل أنت بخير الآن؟!»، سؤال لعين يستخدمونه دائما في تلك الأوقات التي لا نكون فيها بخير على الإطلاق ومع ذلك يصرون عليه.

«تقول إنني قتلت زوجتي وهذا أمر لا أصدقه يا بيتر، على العموم أنا لست بخير، فيبدو أنني مصاب بالحمى وأهذي، ألا ترى أنني في غرفة مجهولة ولا أعلم أين أكون بالضبط مع رجل لا أعرفه يخبرني أنه صديقي، وبأنني فقدت الذاكرة وقتلت زوجتي، ويعطيني أنواعًا من الأدوية لا أعرفها، وقبل أي شيء لا تنسَ أنه أخبرني بأن حياتي انتهت تماما، بحق الله كن واقعيا، بالفعل أنا لست بخير، بالتأكيد أنا أهذي».

تمنى لو يقول ذلك، ورغم ذلك قال: «لا أعلم ولكنني بالتأكيد لست بخير على الإطلاق».

أخذ بيتر نفسا عميقا وهو يشعل سيجارا ثم أعطاه له «أعلم أنك لست بخير ولكن عليك أن تكون، فلا حلَّ آخرَ أمامك، إنك ما زلت حيًّا وهذا أمر لا بد أن تشكر الله عليه، وقبل كل ذلك عليك أن تفهم المغزى من كل ما حدث، وعليك أن تفهم أيضا لماذا أبقاك حيا؟!».

«المغزى من كل ما حدث؟! بالتأكيد أنت مجنون، أنا لا أعلم ماذا حدث لأعرف مغزاه».

رغم أفكاره تلك إلا أنه ابتسم ابتسامة ساخرة وقد بدت الرجفة تسري في جسده ببطء، ولم ينطق بكلمة بينما تفاجأ بنفسه وهو يدخن، ألم أقلع عن التدخين منذ عشر سنوات؟! يبدو أن هناك أمورًا كثيرة لا أعلمها قد حدثت خلال الثمانية أشهر اللعينة ، كانت السيجارة ترتجف بين أصابعه المرتعشة، بل جسده كله، رجفة خفيفة تتصاعد، ولكنه كان قويا كفاية ليبقي عليها قبل أن تقع منه، هدير الرعد لن يستسلم اليوم، الضوء الذي يضيء الغرفة من وقت لآخر كان له مذاق خاص في عيون ديفيد، مذاق مضطرب وكريه، لم يكن يفكر في أي شيء سوى أن يكثف كل جهوده المتاحة في مواجهة الألم وفي الاتجاه المضاد لما يقوله له بيتر سميث، الصديق المجهول، العائد من الذكريات الميتة، إحدى شخصيات حياته، التي تبدو مهمة للغاية، لكنه لا يتذكر شيئا.

لا يتذكر على الإطلاق..

أخرج بيتر من الكيس الأسود جريدة مطوية، فتحها ثم قلبها بهدوء وكأنه يبحث عن شيء ما، شيء بعينه حتى وصل إلى صفحة معينة ثم نظر إلى ديفيد نظرة مترددة بها مسحة من الحزن، «اقرأ هنا» وأشار بيده على عنوان المقال، لم يعرف ديفيد كيف يأخذ الجريدة فما كان من بيتر إلا أن أخذ منه السيجارة، كان ديفيد متعجبا قليلا ولكن بعد أن أصبحت يداه حرة أخذ الجريدة التي شرعت هي الأخرى في الارتجاف بين يديه ورأى عنوانا يقول:

«مقتل السيدة هيلدا جونز على يد زوجها الطبيب في حادث أليم».

«تسع طلقات كانت كافية لإنهاء حياة هيلدا جونز على يد زوجها دكتور ديفيد الذي يعمل طبيبا في المركز الطبي لمدينة كارسون، والذي يملك عيادة خاصة حيث أسرعت الشرطة إلى هناك، وحاولت القبض عليه ولكنه فر هاربا، وما زالت السلطات تبذل قصارى جهدها للقبض عليه، يذكر أن هناك أكثر من شاهد عيان على هذه الجريمة البشعة، وجدير بالذكر أن القاتل كان من أبطال حرب العراق، والذي نال وساما شرفيا من الجيش الأمريكي لاشتراكه في هذه الحرب بعد أن قدم بطولات عديدة هناك، ولأسباب غامضة عاد فجأة ليزاول حياته المهنية من جديد لينهيها بشكل مأسوي».

«أنت مصاب بالحمى منذ شهرين، منذ ارتكابك لهذه الجريمة البشعة، فلا تتعجب إن كنت تشعر بالحمى الآن، فهي رفيقتك الوحيدة منذ شهرين، وكن ممتنا لله أنه أنساك كل ذلك في لحظة واحدة ومفاجئة، أظن أنها هبة لا يحصل عليها الكثيرون، فإن تَذَكُّرَ جرائمنا والعيش معها أبشع ملايين المرات من ارتكابها، فلك أن تتخيل أنك في ذكرياتك تقتل كل يوم بنفس السلاح، أستطيع أن أقول إنك تقتل ثانية لآلاف المرات لتواجه كوابيس ليلية لا تنتهي، دعك من الضحايا الذين يحاولون بقدر الإمكان سلب حياتك وأنت غافٍ في غرفتك الصغيرة متصورًا أن الأمور انتهت وأن الجريمة انتهت، ولا تدري أن هناك من يتسابق إليك لينهي حياتك إما منتحرا أو مجنونا، أنا أعلم كل ذلك، أعلمه جيدا».

كان ديفيد في هذه اللحظات يرتجف بشدة، عيناه شاخصتان على الجريدة، تحدقان فيها، لا يكاد يصدق ما قرأه، تحركت عيناه في اتجاهات مختلفة بشكل جنوني وهو يتنفس بصعوبة، شعر بدوار عنيف، كانت الغرفة تلف من حوله في دوائر سريعة، الرعد كان يصعق جسده بشدة فينتفض، صور الدماء في حرب العراق كانت تتردد أمامه، ضحكة هيلدا المدوية والمميزة يسمعها جيدا، وهدير الرعد يضيف إليها صوتا مرعبا، دَوِيُّ الطلقات التي أطلقها على الشاب العراقي كان يزمجر في أذنيه، ارتفع ضغط

الدم في عروقه، الغرفة أصبحت تدور بلا توقف، سرعة جنونية، الذكريات تهاجمه بشدة، الرائحة النتنة لوالده السكِّير تملأ جيوبه الأنفية، صورة الثعلب وابتسامة أمه، صوت بيتر سميث يتردد في أذنيه كخوار ثور أسباني هائج وعنيف، الدوار يزداد.. يزداد بشدة..

لقد غاب ديفيد عن الوعي مرة أخرى..

غاب تماما.

10

«يبدو أنه قد غادر وجاء مرة أخرى، يا ترى هل غبت طويلا عن الوعي؟! أم أن الوعي لم يستطع الاحتمال فتركني أقاوم وحدي؟!»، كانت الجريدة ما زالت ترقد بجانبه على «الكومود» ورغم انتباهه لها إلا أنه أشاح وجهه بعيدا عنها ناظرا بنصف عين إلى بيتر حتى لا يلاحظه، أو ينتبه له، كان يدخن سيجارا في صمت وهو يقف في مواجهة الشرفة المفتوحة وقد تبدلت ثيابه ليرتدي جينز وقميصا متداخل الألوان من ماركة (American Eagle) يذكره بقميص له كان يرتديه دائما في أيام الإجازات وكانت هيلدا تحبه كثيرا، فهي من اشترته له، وذلك كان السبب الرئيسي لحبه له وارتدائه في كثير من الأحيان، في الواقع كان بيتر يشبهه كثيرا في شكله الجثماني العريض المنكبين والقوي البنيان، ورغم أنه لم يكن طويلا بالمعنى المفهوم للطول إلا أنه كان يبدو كذلك نتيجة لبنيته وكان له شارب كث، بني غامق، كذاك الذي يملكه «الكاوبوي»، عيناه النافذتان البنيتان والعميقتان كان لهما دور مميز في رسم ملامحه مع أنفه العريض وشفتيه الممتلئتين، وشعره البني المعتدل والناعم متوسط الطول، كل ذلك مجتمع في وجهه المستدير المائل

إلى البشرة البيضاء المعتدلة، لاحظ ديفيد ذلك، «إن بيتر يشبهني كثيرا»، تأمل القميص ثانية وظهرت في عينيه لمحة من الذكريات، الذكريات المتاحة.

«تبدو رائعا يا ديفيد في هذا القميص» صوت هيلدا يرن في أذنيه عميقا قادما من على صفحات الذكريات.

«أتذكر جيدا المحل الذي ابتعته منه» فكر في نفسه.

«هل تذكر اليوم الذي أعطيته لك فيه؟» قالت هامسة وهي تقبله..

«نعم يوم عيد زواجنا السادس» أجاب بمرارة وهو ينظر إلى الجريدة.

«أتذكر جيدا ذلك الفستان الرائع الذي ابتعته خصيصا في هذه المناسبة..

هل تذكر لونه؟.. نعم الأسود..

كم أنت رائع يا ديفيد.. كم أنت رائع يا حبيبي» صوتها يأتيه مبتسما بحزن.

سرت رجفة خفيفة في جسد ديفيد حينما عاد من ذكرياته إلى الغرفة مرة أخرى، وكان بيتر ما زال هناك ولكنه هذه المرة لا يدخن، بل كان شاردا، ربما مفكرا، وربما لا شيء، سرت في جسد ديفيد

رجفة أخرى مملوءة بالرعب، الرعب من إحساسه بالذنب، الذنب الذي لم يقترفه إلا من خلال أقوال بيتر المجهول والجريدة الملعونة، ولكنه سرعان ما تنكر لهذه الفكرة، لو أحضرت لي العالم كله ونزلت الملائكة من السماء ليخبروني بأنني قتلت زوجتي، قتلت هيلدا! ما صدقت، ولو قالوا لي إن الجميع ضدك لقلت وأنا ضد الجميع، أخبرني بأنني أحرقت مدينة كاملة أو قتلت جميع جيراني في ليلة شتاء عصيبة! قل لي بأنني انتحرت وما أنت سوى العذاب الذي طالما تحدث عنه القديسون والرهبان، صدقني لن أفكر وسأصدقك.

اعتقد لاحقا أن العالم يدبر له مؤامرة كبيرة، تخيل نفسه وحيدا في مواجهة حشد كبير من الجيوش يحملون السيوف والرماح، الغضب يتطاير من ملامحهم، زئيرهم يصل للسماء، طبولهم لا تنذر إلا بالموت، الأرض تهتز من تحتهم بينما هو يقف وحيدا يمسك بخنجر صغير والرعب والهلع يقتحمان قلبه، بل كل جزء فيه، الهلع يتطاير من عينيه، أصواتهم الصائحة البربرية وزمجرة خيولهم الغاضبة كانت تملأ الغرفة، الاهتزاز الكوني جراء غضبهم كان ينفض جسده رعبا، قبض بيده على خنجره وداري ضعفه خلف لمعانه وثبت قدميه بشجاعة رجل خائف يواجه الموت.

لن أموت اليوم..

إنهم يقتربون، يقتربون بشدة، لا مجال للفرار الآن..

ستسقط مؤامرتكم..

الهزة الأرضية تشتد وجسده ينتفض معها أكثر، الرعب أكثر قربا، عيناه جاحظتان هَلِعَتَان، قبضته على خنجره تشتد وساقه تؤلمه، قبضة متشنجة، شعور برغبة مميتة في قضاء حاجته، إنهم يقتربون أكثر، أصبحوا هنا، السيوف والرماح تنهال عليه.

«ديفيد، ديفيد».

تحركت يداه بشكل بهلواني وجنوني وكأنه يدافع عن نفسه، بينما كان بيتر مقاوما لتلك الحركات محاولا تهدئته بقدر الإمكان، «لن تقتلوني»، كان يرددها مرارا صائحا بصوت عالٍ وبقوة تخفي خلفها هلعا، كالفريسة التي تناضل من أجل البقاء رغم علمها المسبق بأنها فريسة.

«ديفيد» صاح بها عاليا في وجهه، تلفت حوله مرتعدا كالمجنون وكأنه يتأكد من حقيقة الأمر، بيتر، الغرفة، الجريدة الملعونة، الضوء الخافت المتسلل، الآلام المتلاحقة في قدمه ورأسه، شعوره بالغثيان، رغبته القصوى في قضاء حاجته، «كلكم هنا، حمدا لله»، لقد اختفت الجيوش، شرعت أنفاسه تهدأ رويدا، وهو لا يزال ينظر حوله في أرق وخوف بعينين جاحظتين متشككتين محاولا بقدر الإمكان التأكد من خروجه من أرض المعركة، إنه ليس هناك، لقد

انسحب كل شيء، بعد قليل، رمش بعينيه كثيرا وشرع صدره يهدأ ثم نظر إلى بيتر، وكأنه يتأكد للمرة الأخيرة، وبعد ثوانٍ شرعت آلام ساقه تطفو، بل كانت هناك ولكن المعركة أنسته آلامه، الآلام تلح بشكل غريب وتطغى على كل شيء فأنسته المؤامرة، «هيا لكي أعينك لكي تدخل الحمام، أعلم أنك بحاجة إلى ذلك، وبعد ذلك تأخذ دواءك فقد حان موعده»، لم تكن لهجة بيتر كما يجب أن تكون طبقا لما قاله، كانت لهجته قاسية بعض الشيء، خالية تماما من روح المساعدة، ولكنه لم يأبه لذلك كثيرا، فلقد كان بالفعل بحاجة إلى دخول الحمام وتعجب قليلا من قدرة بيتر على معرفة ذلك بدقة، نهض بصعوبة، ولكن السؤال الذي هاجمه وزاد من تعجبه، كيف كان يقضي حاجته على طول الأيام السابقة؟! بالأحرى الشهرين السابقين إن لم يكن خلال الستة أشهر الضائعة؟! ولكنه أخيرا لم يكترث حينما باغته ألم شديد ينخر بدقة وانتظام في ساقه وهو يتكئ على بيتر بذراعه اليمنى، يرفع قدمه المصابة ويسير على الأخرى بصعوبة بالغة مما جعله معتمدا كل الاعتماد بدون قصد على بيتر، كان شعوره بالعجز مميتا وقاسيا في هذه اللحظات، وجهه ممتعض، مزدرٍ، لاعن كل شيء حتى نفسه.

لِمَ يا بيتر لم تعطني الدواء أولا؟! بعدها يمكنني أن أذهب إلى الحمام زحفا إن أردت، فإن آلام ساقي تطغى على إحساسي بأي شيء.

أدخله بيتر الحمام وأجلسه بهدوء بعد أن فتح له السروال ثم أنزله إلى أخمص قدميه، ومن ورائه سرواله الداخلي، ثم تركه وأغلق الحمام وذهب إلى داخل الغرفة وأخبره بأن يناديه حينما يحتاجه، شعر ديفيد بالذل والحرج والعجز أيضا في هذه اللحظات، رغم أنه يستطيع أن يفعل كل ذلك - ربما بصعوبة بالغة - إلا أنه ترك نفسه له مستسلما وكأنه طفل يمتثل لأمر أبيه، ظل يفكر في أمره وما آل إليه، حاول أن يتذكر أي شيء، أي شيء قد يساعده، يعينه على ما هو فيه، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل الشديد، ورغم محاولاته المستميتة أيضا لتذكُّرِ بيتر إلا أن ذلك أيضا لم يعد عليه إلا بزيادة همه وهواجسه الغريبة، في الحقيقة وفي جزء منه كان يرى أن مجرد الولوج إلى تلك الفكرة هو أمر قد يزيد من معاناته، ولاحقا عندما فكر بأمر بيتر اعترف لنفسه بما يملكه من تفكير متاح خالٍ من الألم، بأن بيتر شخصية عقلانية إن صدقه وهذا الأمر الأخير كان يخاف مجرد التفكير فيه.

حاول بصعوبة تامة أن ينهض من مجلسه وبالفعل كان له ذلك بعد أن نظف نفسه مستخدما أوراق التواليت المعلقة بجواره، كان يتكئ بصعوبة مستعينا بالجدران، كاد يسقط فدفع بيتر الباب ودخل بسرعة حيث وضح أنه كان مسترقا للسمع أو قريبا من الحمام بشكل يجعله يتوقع ما يحدث، دفع الباب ليلحقه قبل أن يسقط على

الأرض، آلمته ساقه بشدة حيث اضطر دون إرادة إلى الاعتماد عليها حتى لا يقع مما فجَّر ألمًا عنيفا وقاسيا في ساقه، وصل إلى السرير وهو يكتم تأوهاته حتى لا يظهر ضعفه الذي ظهر منه جزء كبير بالفعل، عاوده شعوره بالعجز والذل مرة أخرى وتمنى لو أن يموت، ولكنه رأى الموت شيئا بعيد المنال، بل إن الموت نفسه يرفضه، ما أسوأ أن يكون المرء عاريا، عاريا من الحقيقة التي تقول بأننا نستطيع أن نفعل أي شيء، كل شيء، في الحقيقة كان ديفيد يعلم جيدًا أنه عارٍ تماما من كل شيء، من القدرة، من استعادة ذكرياته، عاجز عن النهوض أو حتى القدرة على الانتحار، العجز الخائن انتقل إليه، الفيروس الذي طالما حلم بأن يموت قبل أن يصل إليه، وها هو رفيقه الحميم، الذل، يأتي متربعا ليشوِّه ما تبقى من آدمية يملكها، لا يمكن لهذين الكائنين أن يفترقا، فلا عجز دون ذل، شعوره أيضا بالذنب شرع يتفاقم في صمت وألم، حينما لمح الجريدة ثانية وهو يجلس على السرير بمساعدة بيتر، ذلك العنوان الأليم والمفجع «حادث مؤلم»، عنوان أليم وذكريات تأبى الانصياع..

«هل لو تذكرتها سأرتاح؟! هل لو منَّ عليَّ القدر سأسعد بما أنا عليه الآن؟! أم سأنتحر من أجل تلك السعادة؟!».

«سحقا لكل شيء»..

11

تناول إفطاره على مضض في صمت ومن بعده دواءه، كان يشعر برغبة صارخة في أن يسأل عن ماهية ذلك الدواء، كان يرى هلاوس غريبة بين الحين والآخر، إنه يتذكر ذلك جيدًا الآن بعد نصف ساعة من تناوله للدواء، نصف ساعة لم تمر في شيء سوى الصمت المغلف بالأنين الخفيف الذي لا يسمعه أحد غيره - هكذا اعتقد - ورغم محاولاته الباسلة في تذكر تلك الهلاوس إلا أنها جميعا باءت بالفشل، ديفيد، كيف يستطيع أي إنسان أن يتذكر هلاوس؟! أعتقد أنه أمر جنوني، هل نسيت الثعلب؟! إنه لا يفكر بهذه الطريقة، واستمر حديثه الداخلي مع نفسه لوقت غير قصير وفجأة تذكر الكاهن الذي يقبع جالسا في صمت، اكتشف أنه يتمتع بقدرة غريبة على الصمت لساعات بل لأيام طويلة - إن جاز القول - ولن يؤثر ذلك في تركيبته أو حالته النفسية، كان يخشاه بشكل غريب ولكن الأغرب أنه رآه شبيها له بشكل دفعه كثيرا إلى التفكير في الماضي، ولكن دعنا من الماضي الآن، دعنا نخض ذلك الغموض، هكذا كانت أفكاره، وقبل أن تكتمل هذه الأخيرة...

«الآن حان الوقت للخروج من هذا كله يا صديقي»، قالها بيتر وهو يشعل سيجارا، كان لون النار والدخان مع ترنيمة قطرات المطر في الخارج التي شرعت في الهطول، يذكره بتلك الليلة التي ذهب فيها لأول مرة مع أبوين لا يعرفهما بالتأكيد، أبويه بالتبني، كان يشعر بغربة قاتلة، كوجود الشمس في فصل يناير العظيم والضبابي أيضا في بلاد الشرق الجميل وبالتحديد العراق، «كل شيء سيكون لك، وبالمقابل عليك أن تكون ولدًا مطيعا حتى تتخلص مما حدث، من الماضي، بالتأكيد لا نلومك عليه، نعتقد أنك ولد مطيع بالفعل، فإن جميع تقديراتك في المدرسة توحي بأنك ولد ذكي وتتعلم بسرعة، نضع أملنا فيك، ونتمنى أن نكون لك - بالمثل - مثال الأبوين المثاليين، ولكن احذر العقاب».

احذر العقاب...

ترددت كثيرا في أذنه بشكل مخيف حينما نظر له أبوه بالتبني والذي كان يعمل قسًّا في هذا اليوم البعيد.

احذر العقاب...

«لن ألومك يا ديفيد على ما حدث، بالتأكيد فعلت ذلك لأسباب منطقية، فالمرء لا يقتل سدى، لا يرتكب الخطيئة العظمى دون سبب وجيه، أليس كذلك يا صديقي؟! والآن...».

انتبه جيدا ولكن بشكل خبيث، وكأنه لا يأبه لما يقوله بيتر، إلا أن بيتر استمر بهدوء وهو ينفث الدخان مستمتعا بأشكاله المختلفة التي يرسمها في الفراغ بينهما.

«إنك مدين لي».

«نعم هكذا تبدأ النهاية بتلك الكلمة اللعينة، الدين الذي لا ينتهي، فمن يكون مدينا بالحياة أعتقد أن عليه تقديم تلك الحياة كقربان، أعتقد يا بيتر أن مثل هذه الأمور لا يمكن مناقشتها سوى مع الله، أوه نسيت، أنت الكاهن ممثل الحق !».

«لقد حضَّرت لكل شيء، وكل شيء مثالي جدا، أنت تعلم جيدا أنه لا مجال إلى العودة إلى الخلف، فالخلف معقد كثير يا عزيزي، أطلب منك خدمة واحدة تؤديها لي، وأعدك بأنني سأنقلك إلى مكان آخر بهوية أخرى لتبدأ حياة جديدة، ولا تقل لي بأنك لا تريد العيش؛ لأنني لم أرَ إنسانا متشبثا بهذه الحياة أكثر منك، فلقد قاومت اللاوعي يا صديقي، لقد غزوت الحمى، وانتصرت على الغيبوبة، لقد انتصرت على الموت نفسه، وقلائل هم من ينتصرون عليه، كانت هلاوسك تفضحك كثيرا حينما كنت تقول: خذ بيدي أيها الثعلب إلى الأدغال».

صمت قليلا بينما كان ديفيد يتابعه هذه المرة باهتمام شديد وكأنه منساق، فلم يستطع أن يستمر أكثر في تظاهره بعدم الاكتراث، ولكن الغريب أن ملامح بيتر تغيرت فجأة وهو يقول وكأنه مصاب بسهم

في صدره بعد أن ألقى بغضب سيجارته ورفسها رفسة قوية بأصبعه الوسطى: «إنها تخونني يا ديفيد، العاهرة تخونني، ولا أستطيع أن أقتلها، ولكنني حاولت، نعم حاولت».

كان وجهه يزداد احتداما، لونه أصبح أرجوانيا فاقعا، عروقه برزت، لها لون بنفسجي قاتم؛ مما أوحى بتنامي غضبه، شعر ديفيد بالخوف في هذه اللحظات والدهشة أيضا «ولكنك فعلت ذلك من قبل، إننا نشبه بعضنا البعض إلى حد كبير يا صديقي الطيب، أريد.. أريد».

«أن أقتلها! أنت مجنون، تريدني أن أقتلها! نشبه بعضنا، كلمة يستخدمها المنحرفون دائما حينما يتوددون لبناء علاقة جديدة، التشابه الإجباري، لتصبح كل الأمور مثالية ولا يوجد شيء غريب بها، إذن أقتلها أنا، ماذا يحدث هنا بالضبط؟! هل أنقذني كاهن غارق في الحب مع امرأة عاهرة ويطلب من ديفيد المسكين أن يكون أداته في الأرض ليدفن خطيئته ويجني التوبة؟! اطلب من الله ذلك أيها الكاهن الضعيف».

كان يريد أن يقول ذلك ولكنه لاذ بالصمت، «أريدك أن تساعدني على ذلك، لا أطلب منك أن تقتلها ولكن أريدك أن تساعدني لأكتشف وأتأكد من خيانتها، أنت لا تعرف مذاق أن تكون جالسا على حافة الشك، إنها تدفعنا إلى الجنون يا صديقي، تدفعنا إلى الخطيئة الكبرى، القتل، يمكنني أن أذهب بعيدا وقد حاولت بالفعل ولكنني أحبها حد الموت، ولا أدري ماذا أفعل؟!».

أطرق إلى الأرض وقد هاجت مدامعه وشرعت أنفاسه تثور في صدره، ولكنه فجأة وبغرابة شديدة عاد إلى هدوئه وهو يرفع رأسه وعيناه تملأهما القسوة، «وإن لم تساعدني، لن أسلمك للشرطة بهذه البساطة، أنا لست بهذا الغباء، وأعلم أنك لن تستطيع الإفلات مني، لكنك ستتمنى ذلك، سيصبح الأمر بالنسبة لك مجرد أمنية لعينة يستحيل تحقيقها، كل ما عليك أن تقبل لكي تستريح من كل شيء، تستريح للأبد، وإن لم تقبل، فتذكر أنك من اخترت».

جملته الأخيرة كانت قاسية خرجت بلهجة أقرب لأن تكون متوحشة وبصوت غير صوته وكأنه تحول فجأة، ولكنه بدأ يستشف أنه يتعامل مع شخصية تأتيها نوبات متقلبة وغير مفهومة، إنه في هذه المرة يتعامل مع الشيطان، لكن الشيطان صريح لا يتعرض لمثل هذه التقلبات التي تشبه الفصول الأربعة، أظن أن الشيطان بريء تماما، حينما عاد ديفيد من أفكاره كان بيتر يقف هناك عند باب الخروج وهو يمسك بعلبتي الدواء - تلك التي كانت هناك على «الكومود» والأخرى التي كانت في جيب سترته - «لن آتيك ليومين»، وابتسم ابتسامة ودودة في ظاهرها لكنها كانت قاسية في عيني ديفيد، كان يهز علبة الدواء وكأنه يقول: «معي يكمن الخلاص»، ثم فتح الباب وخرج.

احذر العقاب...

12

الاختيار بين الموت والحياة قد يكون سهلا.

الاختيار بين الموت والسقوط فيه لا بد أنَّ له مذاقا مختلفا.

13

لم يكترث ديفيد لتلك الحقيقة المرعبة، لم تكن تخيفه، في الحقيقة كان مرتعدا، أخذ نفسا عميقا، لم يكن نفسا مريحا بل كان نفسا أعاد إليه آلام ساقه رغم مفعول الدواء اللعين، كانت الآلام في هذه اللحظات طفيفة ولكنها أخيرا كانت هناك، كلمات بيتر تتسلل إليه بشكل غريب، بشكل إجباري واعتقد أن هذا التسلل جريمة لا تغتفر في حق نفسه، «وماذا يمكن في هذه الحياة أن يكون له مسمى آخر غير الجريمة؟! فالحياة في مجملها مجرد جريمة!»، فكر في نفسه .

كيف لي أن أساعد هذا المجنون؟! وكيف سأساعده وأنا ذليل المرض؟! بل أسيره إن كنت دقيقا! ألا يرى أنني كنت هناك في تلك الغيبوبة الطويلة، الحمى المميتة، مع الثعلب وحدنا نلهو، إنه يدفعني مرة أخرى إلى الهلاك، هلاك، نعم الآن عرفت العقاب المنتظر.

احذر العقاب..

هل قال يومين؟!

«يا إلهي»، خرجت منه الجملة الأخيرة بصوت مرتجف مذهول ومرتعد حينما اكتشف الحقيقة فأطلقها مرات في الفراغ «يا إلهي، يا إلهي»، وكأنه يستعطف القدر، لا يصدق، سيواجه كل شيء وحيدا ليومين كاملين، ارتفع صوت تفكيره أكثر، «ألا يكفي ما أنا ملاقيه من عذاب هنا؟!»، غضب كثيرا وهو يتلفت حوله بشكل عشوائي ومثير معلنا عن غضبه، مع كل لفتة كان الألم يطرق في رأسه، كان يعلم تماما أن الدواء الذي تناوله كان له تأثير قوي على ألم ساقه، لكنه لن يطول، لن يستمر، سيعود الألم ساخرا وصارخا أيضا، هذه هي الحقيقة المؤلمة وعليه انتظارها.

احذر العقاب...

مرت ساعتان على ديفيد وهو ممدد على سريره، تتراءى أمامه العديد من الذكريات، لم تكن ذكريات تبعث على الهدوء، بل كانت ذكريات منفرة وسخيفة، لا تساوي شيئا ولكنه لم يعلم لم أتت وكيف أتت؟! فكر قليلا فيما هو مقدم على فعله، الاختيار ما بين الموت أو السقوط فيه، لم يكن يرى في الأمر شيئا سوى ذلك، لم يكن ديفيد غبيًّا على الإطلاق، ربما كان متشائما، كان يعلم ذلك أيضا، نظر إلى ساقه الممددة أمامه طويلا يتأملها محاولا بشتى الطرق تذكر ما حدث، تذكر ذلك الحادث الأليم الذي جعله أسيرا لشخصية تبدو غير طبيعية على الإطلاق، رأى أن بيتر لن يساوم معه

في شيء، لن يتفاوض، فالجانب القوي لا يتفاوض، واضح أن الأمور معدة بشكل متقن وتنتظر استجابته هو، بموافقته أو بدون موافقته، فإن الأمر لن يختلف كثيرا من وجهة نظر بيتر، لكنه فكر في نفسه، يعلم أن الأمور تختلف كثيرا معه، فإن اختيار بقائه بموافقته هو، يجعل الأمر له مذاق أقل مرارة وذلا، أليس كذلك؟! كم أنت رحيم يا بيتر، تخشى على حياتي، تريدني أن أستمر، تكفر عن خطيئتي التي لا أعلم عنها شيئا، تهزني بعنف كصديق حميم ينتزع صديقه من بئر الضياع، عليَّ أن أكون ممتنا لذلك، سأمنحك ما تريد.

تعجب ديفيد، بعد نصف ساعة من الصمت والهدوء الذي عاد إلى نفسه، من تلك الطريقة التي فكر بها، بقي وكأنه مستغرق في حلم يقظة غامض، لم يكن الأمر اختيارا ولم يعتقد بأنه بهذه الطريقة اختار بمحض إرادته ودون عجز أو ذل ما يريد، ولكن بقاءه مرهون بعقله الثائر بين الألم والمعضلة التي يتعرض لها، وأن الرضا بأكثر الأمور خطورة هو الاختيار الأمثل ما دام مقتنعًا بذلك، لم يعلم كيف تسلسل تفكيره بهذه الطريقة؟! كان ممنهجا بشكل غريب وضد ما كان يشعر به تماما منذ لحظة إفاقته، الخروج من الظلام للعودة إلى الظلام أيضا، شيء في نفسه جعله متعجبا، تعجب لذلك الجزء الخفي - رغم حقيقته الساخرة - الذي يدفعه إلى البقاء، الرغبة الغريزية في البقاء، بحث عن ذلك الجزء العميق والخفي في داخله، إنه يدفعه للحياة بأي ثمن، كان يبحث عن السبب وراء

ذلك الدافع الغريب الذي ظهر فجأة (إن كان بالفعل ظهر فجأة)، أطرق رأسه وهو يستمع إلى حبات المطر وهي تعانق الجدران، إلى رأسه الخالي من ذكريات ثمانية أشهر، إلى هدير الرعد الذي كان ممتعا له على عكس ما حدث في بداية الأمر وعلى طول الأمر أيضا، إلى الضوء الذي يتسلل المكون من بقايا البرق، ظهرت على وجهه علامات لا تحمل تعبيرات، كانت بالفعل تعبيرات جامدة كمن مات فجأة على كرسي وثير في حديقة منزله وهو ينظر إلى اللاشيء ولا يفكر بأي شيء، ألم رأسه فجأة قرر الانسحاب في هذه اللحظات الغريبة، شعر بأنه يستطيع تحريك قدميه - رغم أن ذلك بعيد كل البعد عن الحقيقة - ولكنه لم يحركهما رغم هيمنة ذلك الشعور عليه، كان شعورا مُرضيا ناعسا وقويا أيضا، لم يحاول فك طلاسم هذا الشعور ولكنه أبقى عليه.

14

مرت ست ساعات أخرى من الوقت المقرر، كان ديفيد خلالها يقطر عرقا كصنبور مياه رديء رغم إحكام غلقه، بشكل بطيء حاول تحريك قدمه التي أعلن ألمها منذ قليل اقتحامه لذلك المسكّن اللعين الذي يمده به بيتر، مما فجر الوجع في جميع أنحاء جسده فتأوَّه كطير ضعيف سقط بغتة من السماء إثر إصابته برصاصة صياد متهور، عادت آلام رأسه بشكل طفيف ولكن آلام قدمه كانت أقوى بكثير فأغفل ذلك الألم اللعين الآخر المتسلل، شعر بانحسار أنفاسه في صدره وعدم استجابتها، ولكنه ورغم ذلك حاول مساعدة نفسه بشكل كبير، سمع دويًّ مدفع فانتفض فجأة والتفت بلا إرادة وكأنه يبحث عن المصدر، وصمت لوهلة منتظرا أن يسمع دويًّا آخر، لم يكن الأمر في الحقيقة انتظارا بقدر ما كان ترقبا للمجهول اللعين، وللحظة بدا قلبه وكأنه يغور، ثم بدأ يدق بعنف شديد، بعد دقيقة تقريبا أيقن أن ذلك الدويَّ لم يكن إلا من وحي خياله المريض المصارع للمرض والألم والذل، لم ينتهِ الأمر على ذلك، فقد شعر برغبة قوية في شرب الماء، أيقن أن الزجاجة البعيدة

لم تكن مصادفة، فإن بيتر أبدا لا يخطئ موضع أي شيء، أمسك بالجزء الخلفي من السرير، وخرج بكامل جسده إلى الخارج مقاوما الألم بكل ما استطاع من قوة في اللحظات الراهنة والصعبة، لعن بيتر آلاف المرات وتمنى له الموت، ولكن باتت الفكرة مفزعة لمجرد التفكير فيها، فماذا سيكون مصيره إن مات الشيطان المنقذ، تراءى له أن هاتين الخطوتين ما هما إلا فدانان مزروعان بالأشواك خصيصا لمنعه، جعلته تلك المحاولات يتصبب عرقا بشكل مثير، فقد فسد الصنبور تماما وتحول إلى صنبور خَرِب لعين، كلما مد يديه إلى تلك الزجاجة ابتعدت.

ولكنه كان مصرًّا..

شعر بأن الكفر يتسلل إليه إن لم يكن قد تملك منه، ولكنه أبقى على إيمان ضعيف أملا في أن تظهر الملائكة، لم يكن يمسك بالسرير منه سوى أصبعين مشدودين للغاية، ولكنهما انفصلا عن السرير ليسقط بجانب زجاجة المياه، سقطة قوية لها صوت مسموع، لم يلمس الزجاجة، يبكي، دقات الألم في ساقه تتعالى وتتسارع، جذعه المتألم من فرط الانهماك معه في المحاولة زاد الأمر سوءا، فبكى بشدة ولكن دون صوت، كانت المياه بها ساكنة جدا، فحسدها، حسد ذلك السكون الذي بات مستحيلا الآن، نظر إلى دموعه وريقه المنساب وفكر لوهلة في لعقهما ولكنه سرعان

ما اشمأز من ذلك التفكير المريض والمفزع، تحسر على عقله الذي أصيب بنوبات تفكيرية مفعمة بالذل، لم يكن متألما، بل كان موجوعا بشدة، أمسك بالزجاجة وظل يفكر، إنه لا يملك سوى نصف زجاجة من المياه، وعليه أن يستغلها الاستغلال الأمثل في مثل هذه الظروف، كان يعلم أن ما هو قادم أسوأ وألعن، فانتابه الصمت، وانتابته أيضا غيبوبة لم يعلم بالتحديد متى امتلكته، نظر حوله مستنجدا بأي شيء بعد أن استفاق بعشر دقائق، فوجد الهاتف يرقد فوق «الكومود»، لعن غباءه وكيف لم يفكر به، لكنه أدرك أنه لم يكن هناك إلا الغريزة، والغريزة فقط هي ما تتحكم في كل شيء.

نسي عطشه في هذه اللحظات بل وأغفل ألمه المتصارع في ساقه ورأسه أيضا الذي يطن كنحلة غاضبة، وضع زجاجة المياه جانبا، ثم مال بجذعه قليلا وهو يئن من الألم، اعتدل ثم زحف بهدوء معتمدا على يديه حتى استند إلى الكومود، أمسك بالهاتف ثم ظهرت تلك النظرة التي اتخذت قرارا، وما لبث أن وضع السماعة على أذنه حتى سمع صوتا يقول: «أهلا بك سيدي، أنا في خدمتك».

«أريد بعض الماء وأريد غداء لو سمحت».

لم يسمع في هذه اللحظات سوى ذلك الصوت الذي يصدر حينما يغلق أحدهم الخط، تعجب قليلا وتكهن بأن ذلك ناتج عن سوء الأحوال الجوية - ربما الأمر كذلك - ثم أغلق السماعة

ورفعها مرة أخرى وقد زاد توتره، ولكنه لم يسمع شيئا على الجانب الآخر، لم يسمع أي شيء على الإطلاق.

«هل من أحد يسمعني؟! أنا هنا، لو سمحت.. ألو، أين أنت؟! هل تسمعني، أريد ماء وغداء.. ألو».

لم تأته إجابة، فقط ذلك الصمت الثقيل، ظل ديفيد لدقيقتين كاملتين يتحدث كالمجنون إلى السماعة التي فارقت العمل دون إنذار، يصرخ في الفراغ باحثا عن المساعدة، ألح الألم في هذه اللحظات بشكل كبير، شعر بالغضب، وسرعان ما ضرب الهاتف مرات عديدة في الأرض وقد أصيب بنوبة من الهياج، وحينما انتهى وهو ينظر إلى الهاتف الذي تحول إلى قطع صغيرة، طأطأ رأسه ثم بكى، بكى بشدة، نظر إلى الزجاجة بين قدميه، لمعت عيناه، شعر بأن الإهانة والذل يطوقانه، فرفع زجاجة المياه دون تفكير وأفرغها كاملة في جوفه.

عاوده الألم بقوة وكأنه لم يغادره، بعد ثلاث ساعات أخرى تخللتها محاولات عديدة للعودة إلى السرير، باءت جميعها بالفشل والإحساس بالذل والعجز، حاول خلالها توزيع أفكاره، يدرك جيدا أن الأمور ستتحول إلى الأسوأ بكل تأكيد، الألم يزداد وكأنه لم ينحسر من الأساس، كأنه لم يكن هناك، كان يشعر بأن هناك أصواتا تهمس له، ثمة أصوات لا نستطيع سماعها كأصوات الملائكة والشياطين

أيضا، نعتقد أنهم يهمسون لنا ولكنني أعتقد أننا فقط نسمع أنفسنا بالطريقة التي نريد، هكذا فكر في لحظة مجنونة غاضبة، ولكنه جزم بعد ثوانٍ معدودة أن ما يسمعه يئن في قدمه ورأسه الآن لم يكن سوى صوت الشيطان، يأتي رتيبا وخفيفا، مزعجا، كصوت هسيس الفئران في الغرف المظلمة، صوت لصوص الليل.

«أسرع يا ديفيد بحق الله، فإن القذائف ستأتي لا محالة، فلقد أخبرنا المركز بأن هناك هجوما ستشنه القوات المجاهدة»، بئسا لك أيتها الصحراء، بئسا للدماء التي راقت لحكومات تسعى لترسيخ نفسها على أرض الواقع الدميم..

أسرع يا ديفيد...

شرع الألم يجري بسرعة غريبة بعد نصف ساعة أخرى انقضت وهو يحرك جذعه بهدوء وكأنه يعطي له إشارة بأنه على مقربة من النهوض، على مقربة من امتحان عسير، كان الأمر يشبه الحرب مع الصحراء، وكل من حاربها مدفونا بها الآن تتقاذفه رمالها ونسورها الصديقة الجارحة، يشبه الهرب من الألم، بل يشبه الهرب من الموت، كانت الآلام تسرع نبضاتها بشكل غريب ولكنه كان مصمما في هذه اللحظات أن يهرب من تحت أقدام القذائف الكبيرة واللعينة، زحف قليلا وهو يتأوه من الألم محاولا بقدر الإمكان ألا يزيد الألم من سطوته ولكن هيهات، فالآلام لا تعترف بالحذر،

لا تخضع للقوانين الوقائية، فهي تنبت وتعيش وتصحو وقتما تشاء، فأين تكمن عظمة الألم إن لم يبذل قصارى جهده للحفاظ على نفسه من شيء يسمى المقاومة؟! أحس بأنه كلب ضعيف كسرت ساقه في وسط الطريق السريع، لن تتوقف السيارات، ستدفعه بعيدا في أية لحظة، سينام ذلك النوم الأبدي بعد أن يطلق تأوها خفيفا متحسرا مثيرا للشفقة على حياته القصيرة التعسة.

كان ممدا على الأرض يبكي بعد أن فشلت محاولته الأخيرة للنهوض، بكاؤه يائس ومرير، لم يختلف ملح دموعه كثيرا عن العرق المتصبب من وجهه وجسده رغم برودة الجو، هل العودة إلى السرير صعبة إلى هذا الحد؟!

تذكر في هذه اللحظات الصعبة روبرت صديقه وهو يصرخ في وسط اللفحات الحارة في صحراء العراق ويأبى المثول إلى أوامر القائد بأن يترك ديفيد بعد إصابته في ساقه، تذكر جيدا وهو يحمله على ظهره ويجري وسط القذائف، كان بالكاد يستطيع أن يسمع هذه المحادثة وكأنها تأتي من بعيد، من فجوة أرضية غائرة، من حلم ضائعة تفاصيله، عاد إلى الغرفة التي لم يفارقها، كان يبكي وهو مستلقٍ على الأرض، لم يكن يبكي من فشله في النهوض والعودة إلى السرير، لم يكن يبكي من الألم الذي أصبح كالشيطان الذي لا يتوقف عن الوسوسة الخبيثة، بل كان يبكي لأنه أراد ذلك، كان يحتاج لذلك بقوة، ولذلك استمر.

كان النهار ينسج خيوطه حينما وعى ديفيد من بكائه الذي توقف بدوره في لحظة لا يعلمها، لا يتذكرها، كانت الساعات تبطئ كلما شعرت بسرعتها، هكذا شعر، زحف مستخدما يديه بهدوء لمسافة قصيرة، يشعر بألم أيضا في مؤخرته، لم يعلم سره ولكن، شعر بأن الألم سيمفونية أليمة تشبه «قداس الموتى»، تذكره بالقبر الذي كان يقف أمامه في ولاية كاليفورنيا، الولاية التي ذهب إليها بعد صراع طويل مع التفكير، حينما أخبروه في مكالمة غامضة بأن والده قد توفي إثر حادث بشع تداولته الصحف - السكير الذي مات محروقا - لم يهتم بالتفاصيل كثيرا وهو يقف في مواجهة الهاتف بعد إغلاقه بعينين زائغتين وبعقل سارح في ماضيه الملازم له والمؤلم أيضا، كيف وصلوا إليه؟! لم يهتم أيضا، ولكنه تذكر رائحته النتنة وعجرفته المستمرة على أمه الأنانية، يتذكر جيدا نسيانه المتواصل بأن له ابنا اسمه ديفيد جونز.

«إن الله ينتقم، ينتقم لي، يرسل رسالة عبر مجهول ليخبرني بأن هناك من يدافع عنك يا ديفيد، عنك أنت بالذات، هناك من يربت على كتفك».

لكنه لم يفهم لِمَ شعر بوخز غريب في أسفل معدته؟! لم يعرف لِمَ شعر بالحزن الكبير فجأة لسماعه هذا الخبر؟! حاول في خلواته أن يفهم طبيعة شعوره هذا ولكنه لم يستطع، ولذلك قرر أن يذهب

إلى جنازته، قرر بلا تفكير، ربما ليحصل على إجابته التائهة والغامضة أيضا، كان هناك شيء غريب يرغمه على ذلك، شيء ظل في واقعه غامضا كأشياء كثيرة تولد غامضة وتموت أيضا غامضة، هذا إن ماتت.

كان الصمت الملفع بطنين الألم كافيا بأن يخرسه، يكفي صوت الألم، يكفي صراخ الذل والعجز، ولكن لم يكن هذا كل شيء، فإن الجوع والعطش استبدا به أقصى استبداد وتمنى لو أن ينادي هيلدا صارخا لتحضر له كوبا من الماء، وقرر أن ينادي بكل ما أوتي من قوة ممكنة، أن يختلس تلك القوة من تحت ضعفه الواهن ولكن... إنها مقتولة - هكذا أخبره بيتر - نعم، وعليه أن يصدق، يجب عليَّ ذلك، إنها هناك كئيبة، تجلس في مرقدها في الظلام تبكي، لقد ماتت ملعونة على يديه، فلم يكن يؤمن أن القاتل والمقتول ملعونان ولم يثبت ذلك الإيمان كثيرًا إلا أمام تلك الصلاة الغريبة التي سمعها يوما وهو في إحدى بلاد الهند:

«إذا ظن القاتل أنه قاتل

والمقتول أنه قتيل

فليسا يدريان ما خفي من أساليبي

حيث أكون الصدرَ لمن يموت

والسِّلاحَ لمن يقتل

والجناحَ لمن يطير

وحيث أكون لمن يشك في وجودي

كل شيء حتى الشك نفسه

وحيث أكون أنا الواحد وأنا الأشياء»

سفر اليوبانيشاد.. صلاة هندية قديمة.

استطاع في لحظة خاطفة أن يشم رائحته، كانت تشبه رائحة كلب ضال مصاب بالجرب في الصومال أشرف على الموت جوعا وعطشا، أيقن بأن اللعنة أتته سريعة، لعنة كل من أحبوه، سأل نفسه كثيرا عن ماهية الملعون، ومن يكون وهل كل ما مر به جزء من لعنة مسبوقة؟! فهو يؤمن أن قانون المصادفات لا يعمل هباء، وأن ما يحدث معه ليس أبدا صدفة، بل إنه شيء محكم ومعقد، أقرب ما يكون إلى مؤامرة كبرى.

كان ديفيد في هذه اللحظات يدخل فترة حرجة، على مشارف أبواب الغيبوبة التي ربما لا يعود منها، كان يتلوى ببطء كحية تفارق الحياة بعد ضربة قوية أصابت رأسها السام، تضرب هنا وهناك بجسدها القوي، تظهر أقوى ما لديها في لحظاتها الأخيرة والضعيفة، ثم تتلوَّى ببطء...

أيها الثعلب خذ بيدي..

قالها وهو ينظر إلى اللوحة بعيون تبوح ألما، وبهمس أشبه بمن يفارقون الحياة بعد طعنة غائرة في القلب، ضرب «الكومود» ضربات وهنة بيديه من الألم وكأنه يفجر غضبه، يفجر حاجته في أي شيء، يفجر ذله، يستجدي الله بكل ما أوتي من قوة.

«بيتر.. سأنفذ ما تطلبه... بحق الله.. سأفعل لأجلك كل شيء... ولكن كن رحيما... بحق الله كن رحيما.. سأقتل زوجتك إن أردت... سأقتلك أنت إن طلبت بل سأقتل نفسي سريعا إن أحببت ذلك».

كانت الحياة تغيب من أمام عينيه رويدا، الصلاة، بيتر، الماء، الآلام، ضربات وهنة يطرقها على الأرض وهو منبطح عليها، إنها الدقات الأخيرة، أصبح كل شيء بلون أبيض ملفع باللون الرمادي المموج، غير واضح، بدا كذلك، عيناه تغلقان.

أيها الثعلب خذ بيدي.. بيتر بالله عليك.. بيتر..

انقطعت الإضاءة.. انقطع كل شيء تماما..

انقطع ديفيد..

15

عزيزي ديفيد: الألم حكاية قديمة جدًّا، لكنها أبدا لا تهرم..

16

حينما أفاق ديفيد من غيبوبته الطويلة التي استمرت وقتا لا يعلمه كان هناك رجل أو شبح يقف بجانب منضدة، الرؤية غير واضحة! كان ديفيد يدفع بصعوبة هذه الألوان المتداخلة الغريبة من أمام عينيه، ألوان لا تعطي له تصورا كاملا أو رؤية واضحة، يسمع صوت قدم ثقيلة آتيا من بعيد، هناك أحدهم يتحرك في الغرفة، أغمض عينيه مجبِرا نفسه على ذلك، هز رأسه ببطء ووهن وكأنه يوقظ عينيه، كان يضغط بجفنيه عليهما بقوة، ثم فتحهما مرة أخرى، اتضحت الرؤية أكثر ولكن هذا لم يعطه الغرض المطلوب، مد أصبعي يده اليمنى «السبابة والإبهام» ليفركهما بقوة ولكنه لم يفعل ذلك لأنه أحس بألم، إبرة وريدية في ساعده، فاستسلم لذلك الألم وهبطت يده بجانبه لتحدث صوتا مكتوما على الفراش.

أغمض عينيه هذه المرة بهدوء؛ حيث كان الصوت هذه المرة قريبا، قريبا إلى درجة أن خياله أصبح خصبا ليتخيل أي شيء، ليرسمه في تلك الدوائر التي تحيط بالظلمة الناتجة عن الظلام، رأى وحشا يقترب وظهر ذلك على ملامحه حينما اقتضبت وارتجفت

لوهلة مرتعدة، الصوت يبتعد، يبدو أن رائحته العفنة قد جعلت الوحش ينفر، ولكن هل تنفر الوحوش من الروائح العفنة أم أنها تجذبها؟! تنحى عن أمر الوحش، ظهرت في الدوائر السوداء صورة غير مكتملة فانعكست على ملامحه هذه المرة تعابير جديدة.

الصوت يقترب الآن مرة أخرى، يقترب جدا، فتح عينيه، فركهما رغم الألم الصادر من ساعده، فركهما بشدة، يستطيع أن يشم أنفاسًا تلامس وجهه، أنفاسًا بشرية! إنه يعيد يديه إلى موضعها مرة أخرى بجانبه «عليك أن تتركها هكذا حتى لا تؤلمك»، صوت يأتيه من خلال تلك الدوائر السوداء، وكأنه آتٍ من حلم يقظة غريب، يستطيع الرؤية الآن بعد عملية فرك طويلة وكأنه كان يحك عينين مصابتين بالجرب، تلك الأنفاس أعرفها جيدا، جيدا جدا، تلاقت أعينهما هذه المرة، إنه بيتر وهو منحنٍ على ديفيد يتأكد من وضعية الإبر التي غرزت في ساعده، يتأكد من أنه سيظل حيا، اعتقد بأنه كان متأكدا من ذلك أكثر من تأكده بميعاد استفاقته؛ لأن من الواضح أنه يلعب تلك اللعبة منذ فترة طويلة ولم ترهقه أو تصبه بالملل، نعم لم تصبه بتلك الأشياء التي تصيب الأطفال حينما يكسرون إحدى لعبهم التي بكوا طويلا من أجل الحصول عليها، بيتر ليس من هذا النوع، فهو يعلم جيدا كيف يعيد تصليح اللعبة ومتى، ولكن السؤال الذي بقي طويلا في ذهن ديفيد في هذه اللحظات، لمَ؟!.. لمَ يعيد

تصليحها؟! ليس ذلك السؤال على الإطلاق، ولكن لمَ يهتم لها من الأساس؟!

«ديفيد المسكين، لقد عانيت طويلا يا صديقي، عانيت إلى الدرجة التي كنت فيها واقفا على حافة قريبة من الموت، قريبة جدا، ولكن أبدا، فأنت ديفيد الذي لا يقهره الموت، ولا تقهره تلك الأمور الطفيفة التي تمر كحادث لا يتكرر في حياة امرئ عادي، تستطيع الآن أن تتناول هذا القرص أولا ومن بعد تناولك للطعام ستتناول قرصا آخر.. لا، لا تتحدث يا صديقي، ليس الآن، ليس الآن على الإطلاق، لا تحرك يدك مرة أخرى، فإن الأمر سيكون مؤلما لو حاولت.. مؤلما للغاية».

رمشت عينا ديفيد طويلا وهو ينظر إلى بيتر مندهشا من تلك اللهجة الصادقة للغاية، صادقة إلى الدرجة التي تكذبها بها، أنا أعلم تلك اللهجة جيدا، فلطالما تعرضت لها ولكنها لم تصل إلى هذه الدرجة من المصداقية، نظر بجانبه فلمح محلولا يتدلى من أعلى، كان مربوطا بشكل غريب، فلقد استخدم مكنسة عادية ذات عصا كتلك التي يستخدمونها في البيوت الريفية حتى الآن، ومن فوق ربط منديلا كبيرا، عقده عقدتين، العقدة الأولى لكي يتأكد من أن المنديل مثبت والعقدة الثانية ربط بها ذلك المحلول، ينزل منها أنبوب طويل وضيق، يستخدمونه في المستشفيات، نعم كان هناك

حينما كنت أنازع الموت في العراق، وأنا ملقى على أحد الأسرَّة تحت خيمة تصفعها الحرارة والرمال الهائجة إثر عاصفة رملية قالوا إنها ستودي بكل شيء ولكنها لم تفعل.

يصل الأنبوب إلى ساعده ليمده بسائل شفاف أو أقل شفافية من المياه، إنه محلول ما، ولكن.. لا أعتقد أن «لكن» ستفيدني كثيرا الآن، فلقد اخترق المحلول جسدي وعليَّ أن أعتبر هذا جزءا واقعيا حدث ويحدث، وما يحدث قد سجل في الذاكرة التي لا يُمحى منها شيء إلا بإرادتها هي، هناك سمع شخصية تحدثه من داخل رواية قديمة، في الحقيقة كانت رواية مرعبة، كان بطلها يقول بسخرية وكأنه يصيح فيه: أنا سأقتلك بألا أتوقف عن محاولة قتلك، أظن أن هذا كافٍ، كافٍ للغاية؛ لأنك حينما تعلم هذه الحقيقة المؤلمة ستأتيني طوعًا وفي يدك آلة حادة كبيرة كتلك التي يستخدمونها في الأفلام الدموية، ولكن صدقني حينها لن أقتلك؛ لأنك بالفعل وفي هذه اللحظة أصبحت ميتًا، انتفض ديفيد من مكانه وشعر بألم عنيف، لم يأتِ سوى من الرعب.. الرعب وحده.

كان بيتر يطعمه بيديه وهو جالس بجواره على السرير، لم يقدم على ذلك إلا بعد مرور نصف ساعة انتهت خلالها مراسم الدواء، فقام بيتر بفك عقدة المحلول من مكانها وألقى بالزجاجة الفارغة في سلة بجواره ترتدي كيسا بلاستيكيا أسود من داخلها، كان طعم

الطعام رائعا، شعر بأنه يتذوق الطعام لأول مرة بعد أيام طويلة من الجوع والمعاناة، يعتقد كليا في المثل الذي يقول: «إن المحروم يشعر بأن قضمة من الجميز تشبه طعم تفاحة طازجة قادمة من الجنة»، ولكنه لم يكترث كثيرا، فهو الآن يأكل بِشَرَهٍ، لا تتوقف يا بيتر، أطعمني لو سمحت، فالموت قد يكون وشيكا، ولكنني أعتقد في حالتي، أن لا شيء سيأتي، لا شيء.

رغم هدوء بيتر وكلماته القليلة إلا أن ديفيد كان في حالة ترقب كبرى، فأحيانا تقوم الوحوش بإطعام فرائسها أولا - المؤامرة اللعينة - حتى تشعر بأنها مؤهلة كوجبة تستحق ثم تلتهمها، وما إن انتهى بيتر من كل ذلك حتى بلل طرف منديل بجانبه ومسح به فم ديفيد، كان يمسحه وهو ينظر له نظرات لا معنى لها، نظرات خالية من الحياة، نهض من مجلسه ووضع الصينية التي حملت الطعام على المنضدة الجديدة التي أتى بها، أو ربما أتت من الفراغ، فالفراغ قد يجلب أي شيء، ثم اتجه إلى الشرفة وفتح بابها ودس يده في جيب سترته ثم أخرج سيجارتين وأشعلهما ثم اقترب من ديفيد وأعطاه واحدة مبتسما ابتسامة باهتة جدا وكأنه لم يحرك شفتيه، ابتسامة مرعبة، أخذها ديفيد دون تفكير أو تردد، سرعان ما عاد مواجها الشرفة وهو ينفث الدخان، شعر ديفيد برجفة قوية تسري كالصاعق في جسده حينما رأى ملامح بيتر في هذه اللحظات،

إنها ملامح مجردة من الحياة، لا تفشي بشيء ثمة، مبتورة تقريبا إن صح القول، ملامح من عرف جيدا أين يقف ولمَ في هذا المكان بالتحديد، هناك صوت هامس يخبره بأن ما سيأتي لن يكون أبدا طبيعيا، لن يكون على الإطلاق.

كان ديفيد ينفث الدخان بهدوء مستخدما العبوة الصغيرة بجانبه للتخلص من فضلاتها، كان يفكر بحذر وترقب، رأى ظل بيتر يسبقه إليه في هذه اللحظات حتى اقترب صاحب الظل وجلس على كرسيه الشبحي في هدوء ومال برأسه قليلا، أرجوك لا تقل لي بأنك ستأخذ وضعية الجثة الآن، فأنا لست مرغما أن أعيش في مشرحة لفترة أخرى، ولكن هذا لم يحدث، فلقد أخرج قرصا آخر وأعطاه لديفيد ثم ناوله زجاجة المياه التي شرب منها بنهم وكأنه يبتلع كل الأقراص الموجودة في صيدلية كبيرة، كان الماء يتصبب على جانبي شفتيه، ولكنه لم يكترث كثيرا، ألم ساقه في إجازة بعيدة، وتمنى لو أن تتحطم به الطائرة فلا يعود أبدا، ولكن ألم رأسه رغم أنه كان طفيفا إلا أنه كان موجعا، ليس بسبب نخره ودقاته المتوالية والمنتظمة، وإنما بسبب معرفته مسبقا بأن الطارق لن ينتظر طويلا في أدب مستخدما الأخلاق الحميدة، سيثور وسيكسر الباب وسيحطم، إنه زائر ثقيل ويستحق الموت، بعد دقائق معدودة اكتشف ديفيد أن الألم الطفيف قد مات ولكنه شعر برعب أكبر، ما نوعية الدواء

الذي يستخدمه بيتر؟! أستطيع أن أتذكر جيدا أنني لم أعانِ يوما من الصداع، أبدا لم يكن الصداع من عاداتي المرضية، هل أصابني في الشهور الأخيرة التي لا أتذكرها؟! سؤال جيد ولكنه دميم لا يحمل إجابة، أطرق برأسه إلى أسفل قليلا وهو يفكر إلا أن صوت بيتر في هذه اللحظات كان له رنة خاصة «أعتقد أنك بخير الآن، بخير تماما، لا أعلم كيف لم تتحمل 36 ساعة فقط من الجوع والعطش والألم، إنك أشبه بطفل صغير نسيه أهله في بيت كبير»، وابتسم ثم أخذ نفسا عميقا وهو مغمض العينين، «وافقت على عرضي؟!» كان السؤال مباشرا، ولكنه لم يكن سؤالا إن دققنا النظر، بل كان بصيغة الآمر العارف بالإجابة مسبقا، «أعتقد يا ديفيد أنك لا تملك حلًّا آخر، كما أنني لن أوذيك بل إنني منقذك، عليك أن تكون ممتنا وترد الجميل، فلقد انتشلتك من بين أنياب الموت بعد أن دمرت سيارتي، ولكن لا بأس، سنتحدث في هذا لاحقا، كما أنني أصلحت لك ساقك، كان يمكن لها أن تتعفن وأنت هناك محشور بين مقود السيارة والكرسي اللعين تلفظ أنفاسك البطيئة والأخيرة، أعتقد بأنك لا تتذكر ذلك»، وصمت صمتا ثقيلا.

«لا أتذكر ولكن لا عليك يا بيتر، فأنت الكاهن الكريم الذي يذكرني بأحاسيس جميلة وعليَّ تخيلها، كم أنت رائع في رسم الصور المبهجة، أنت تتمتع بذلك أيضا بجانب كونك كاهنا».

لم يقل ديفيد ذلك ولكنه تمنى إلا أن الصمت الواصل بينهما كان شديد الوطأة، مجردا من الهدوء، «ولك أن تتخيل يا صديقي الخطر الذي تعرضت له لأحضر لك طبيبا ليتفقد حالتك ويساعدني في إنقاذك من الموت، لا أستطيع أن أقول إن الفضل يرجع لي وحدي، بل إنك أيضا كنت مشاركا في ذلك كما أخبرتك، فهناك رغبة خفية جعلتك تنبض ذلك النبض الخفيف، أنا أسميه الأمل الضعيف والأخير، ولذلك لم أمنحك الموت، لم أتركك، ولذلك أعلم أنك ستوافق، تخيل حياتك كيف كانت ستكون لو رميتك بين أحضان الشرطة والمحاكمات؟! السجن يا صديقي، رغم أنني أملك إحساسا بأنك ستنتفض بقوة حينما تصعقك الكهرباء في المرة الأولى وأنت تجلس على الكرسي الكهربائي، محكومًا عليك بالإعدام، تصعق وتصعق حتى ترتجف أطرافك، ترتجف رويدا حتى تبطئ لتودعك، ولكن دعنا نكن متفائلين».

«متفائلين! يعجبني هذا الوصف كثيرا، يعجبني بشكل مخيف»، رغم أن ديفيد كانت أفكاره الداخلية تدعو إلى السخرية من نفسه في بعض الأحيان إلا أنه كان هناك رعب إضافي يتسلل إليه، كان يرى أن بيتر بالفعل مجرد من الحياة، يعلم جيدا ماذا يقول ومتى يقوله ولماذا يقوله، وإن التعامل مع مثل هؤلاء أشبه بالمستحيل، فلا يمكن التكهن بردود أفعالهم، ولكن ألم يكن هو الآخر كذلك؟!

نعم إنه يذكر جيدا أنه كان كذلك ولذلك كانت تنفر منه الأطفال، وابتسم ابتسامة هادئة ساخرة وموجعة أيضا وهو يقول في نفسه: «ألم ينفر مني العالم بأكمله؟! ولكن وحدها هي لم تنفر. هيلدا، هيلدا التي يحاولون إقناعي بقتلها، ومن يقنعني؟!.. بيتر اللعين! وحش نيفادا المرعب!».

«عليك أن تكون متجاوبا، أنا أطلب منك الحياة، أعدك بأنني سأكون عونا لك حتى تخرج من محنتك، وتلقى حياة جديدة بعيدا عن هنا، الأمر مستحيل إن سألتني عن رأيي ولكنني أستطيع فعل ذلك، فلقد رتبت لكل شيء، بالطبع أنت موافق.. إذن اتفقنا».

نظر له ديفيد نظرة جاحظة، لقد قرر أيضا مصيره، فلِمَ كل هذا العبث إن كان الأمر كذلك من البداية؟! لِمَ كل هذا الألم وكل هذه المعاناة إن كان الأمر كله يتعلق بطرف واحد؟! لمَ؟! حينما عاد من أفكاره وتَعَجُّبِهِ، رأى بيتر جالسا على ركبتيه في هذه اللحظات بجانب سريره كمصلٍّ يتضرع في كنيسة وهو ينظر له بعينين دامعتين وبائستين أيضا، «خلال أسبوعين ستكون قدمك شفيت تماما، ولكن لن تستطيع أن تشفى يا صديقي من المخدر الذي أعطيك إياه، أرجوك سامحني، فلقد حولتك إلى مدمن، لقد نسيت أن أسألك عن رغبتك في هذا الأمر»، وانهمرت دموعه بشكل غريب ومريب:

«أرجوك سامحني»، ثم نهض فجأة من مكانه واقفا ونظر بعيدا عنه وصدره يعلو ويهبط، مرَّ وقت ثقيل كان خلاله ديفيد يحاول تجميع أفكاره، كان مشتتًا ومرتعدا أيضا، عاد بيتر مبتسما فجأة ابتسامة رهيبة بعينين ساطعتين وكأنه لم يبك من الأساس: «خلال هذين الأسبوعين ستفهم كل شيء، ستكون مستعدا، ستحرر نفسك وسأتحرر معك، إن الأمر مؤسف ولكن علينا تقبل ذلك، إن الرجل الذي تأتيه مكالمات خفية تدفعه إلى القتل، قد ينتحر، قد ينتحر يا ديفيد أو ربما يقتل».

انقطع صوت بيتر في هذه اللحظات فجأة عن أذني ديفيد، فلقد شعر وكأن هناك من بنى سورًا ضخمًا غاية في السواد بينه وبين بيتر، شيء غريب يومض في عقله ولكنه يصيبه أيضا بألم عميق في رأسه، ألم غريب متسللا في شكل ومضات، أشباه ذكريات تجري في رأسه، دماء الحرب تلطخها، والروائح النتنة تغلف كل ذلك، الأقراص الملعونة، الثعلب يجري بعيدا ثم يقف فجأة ويبتسم ليظهر صفان من أسنان متراصة شريرة، صوت القذائف كان بطيئا.

احذر العقاب...

بيتر

عندما تكون الرغبة في الحياة

مساوية للرغبة في الموت

لا شيء يأتي

ديفيد جونز

17

كان ينظر لساقه التي تتعافى خلال الأسبوعين نظرة عميقة، كان يرى خلالها المجهول، كان مستسلما للنوم في عالمه الجديد، المادة التي أدمنها ولا يعلم سرَّها، بل لا يعلم ماهيتها، كانت تدفعه إلى النوم بشكل غريب، لم تكن تلك الأقراص تدفعه بهدوء إلى النوم، بل إلى غيبوبة غريبة تجعل جسده كبيت خشبي يواجه رياحًا عاتية، يتراقص رقصة عنيفة ويسقط سقوطا مريرا، ولم يكن ذلك هو الشيء المؤرق فقط، بل كان هناك ما هو أهم، ما هو أعمق، وما هو أقسى من الإدمان، إنه بيتر، الشخصية الغريبة التي اقتحمت عالمه، عالمه المحكوم عليه بالكرسي الكهربائي في أية لحظة، اللحظة المرهونة بغضب بيتر، شيء بشع حينما يتعلق قدرك بشيطان متقلب المزاج، موسمي الانفعالات، ورغم ذلك كان ديفيد يأكل ويشرب وينعم بالأقراص في ميعادها المحدد دون أن يفعّل بيتر خاصية الغطرسة والتحكم اللعينين. تجري الأيام بسرعة مخيفة وكأنها تصر على النهاية بشكل قاس وحاد، لم يفكر في لحظات خلواته كثيرًا بأمره وما وصل إليه. في الحقيقة كان خائفا من ذلك وتمنى

في أوقات عصيبة نتيجة لتفكيره المرهق أن يهرب، ولكنه كان يدرك أن العالم بالنسبة له الآن ليس أكثر من غرفة كالسجن ولكن هذا لم يمنعه أن يفكر دون أن ينتبه أحيانا في هذا الأمر.

لم يكن بيتر في هذه اللحظات من اليوم الثالث عشر غريبا كعادته، ولكنه كان هادئا بغرابة شديدة، كان مبتسما معظم الوقت بلا سبب، بالتأكيد هناك سبب ولكن هو وحده يعلمه، اقترب منه في هذه اللحظات وهو يعطيه سيجارة وجلس على كرسيه، بينما كان ديفيد جالسا في ثبات وهدوء وترقب، أشعل السيجارة وهو يراقب بيتر بطرف عينه وكان الأخير شاردا يفكر أو ربما لا شيء، «أخبرتني بأن هناك مكالمات غريبة تأتيك، آسف إن كنت اقتحمت صمتك، ولكن يبدو أنه قد حان الوقت للمناقشة الآن»، كان الصبر في هذه اللحظات قد بلغ الذورة، كقذيفة في فوهة مدفع، استسلمت لجموح الحرب، نظر له بيتر طويلا يتأمله في هدوء ودون أية ردة فعل، لم يبد على ملامحه شيء يقلق وهذا ما أقلق ديفيد بشدة، كان يخشى بيتر حينما تكون ردود أفعاله مثل الأشخاص الطبيعيين من وجهة نظره، فقد أتاحت له الأيام الماضية التعرف على بيتر بشكل أكثر عمقا، فإن هدوءه الموسمي هذا يتبعه شتاء عاصف مرير، تبا للأمزجة الموسمية، تبا لك يا بيتر! لا أستطيع الانتظار، أرجوك انفجر بسرعة، كن مريرا كالرياح الرملية في الصحراء، ولكن

أرجوك احمل نفس سرعتها، ابتسم بيتر أخيرا ابتسامة هادئة ودودة بعد صمت، وتفحص في ديفيد بنظرة ثابتة ونافذة خالية من الحياة، «أستطيع أن أقول إنك الآن جاهز للإقلاع خارج أبواب السجن، سجن عقلك وتعنتك، الهروب إلى الحرية»، لم يفهم ديفيد بالضبط ما يرمي إليه ولكنه كان منتظرا أن يكمل ولكنه لم يفعل، تقوض وجهه وهو مطرق الرأس حتى لا يلمحه وفكر في نفسه، «لو تعلم كم أود أن أهرب من عالمك هذا، لو تعلم كم أمقتك، ولكن علينا يا عزيزي أن نقبّل الكلاب حتى تتكفل بحمايتنا».

أطفأ ديفيد سيجارته وأخذ نفسا عميقا يوحي بفقدان الصبر وشعر بألم طفيف في رأسه، إنها دقات الطبول، آتية من بعيد، من خلف الجبال، الإدمان، أعطني أقراصي أيها اللعين، أعطني الخلاص لكي أستطيع أن أنام، لم يكن ديفيد يطلب أقراصه أبدا، لا، لقد طلبها مرة واحدة، تذكر تلك الليلة الكئيبة منذ خمسة أيام حينما طلبها، تذكر حينما نظر له بيتر تلك النظرة السادية وهو يقترب منه، كانت نظرة من يشهر سلاحا في وجه شخص أعزل مسالم وقد نوى الفتك به، وتذكر كلماته وهي تدق في أذنيه «ألا تعلم يا ديفيد أنك غبي؟ نعم أنت غبي، تطلب مني أن أوذيك يا صديقي؟! أعطيك تلك الأقراص المجردة من العقل، ستظل حبيسا لها، ألا تفهم؟! إنني أخاف عليك، أخاف عليك بشدة، فأنا أريد حريتك ولكنك

تطلب السجن، تطلب ان تظل مقيدا برغبتك»، نظر له ديفيد نظرة مرتعدة خلال صمته وهو تباغته تلك الأفكار الأخيرة، نظرة من هربت الحياة من عروقه، ألم تكن أنت صاحب الفضل عليَّ في هذا كله؟! في كوني أعيش ميتا! حبيسا! مدمنا! ذا قدم تعرج وقد أعرج بها للأبد!

مد يده التي تحمل نصف قرص كسره بسرعة ودس النصف الآخر في جيب سترته، ومد يده له وقال وقد وضح عليه الغضب: «خذ هذه ولكن عليك ان تمضغها أمامي» ونظر له نظرة المترقب، كان صوت ذلك النصف وهو ينكسر بين ضروسه كالعظام وهي تتحطم تحت أقدام سيارة، كان مريرا وموجعا، عيناه تصبان ذلا، تضيقان من الحزن والحسرة، ملامحه متقوضة من الهم الذي يصيب قلبه مرارا تحت تغطرس هذا الشيطان، كيف يرضى بهذا الهوان؟! ولكنه يحتاج للقرص، فالألم قادم لا محالة، نصف قرص قد يفي بالغرض، نصف ألم لن يضير، نصف حاجة لن تضير، ولكن ألم كامل هو موت كامل.

«غدا سأخبرك بكل شيء ولكن عليك أن ترتاح الآن، سأترك لك قرصا إن احتجت إليه»، تفحَّص ساقه بهدوء «باتت ساقك الآن تستطيع السير، أظن ذلك، حاول النهوض»، نهض ديفيد بحذر وهو ينظر إلى ساقه، ينظر لها نظرة الملح المفعم بالأمل الذي لا يخلو من الخوف والترقب، أنزل قدميه بهدوء، ثم رفع رأسه قليلا تجاه

اللوحة ونظر إلى الثعلب لبرهة، ابتسم ابتسامة صادقة ممتزجة بترقب مرير وأمل ضعيف، دعم ذلك الأمل إحساسه بأن الألم المصاحب لتحريك قدمه قديما قد اختفى تقريبا، نقرات بسيطة ولكنها عادية مقارنة مع حالته السابقة، بهدوء وقف ورغم شعوره بصعود الألم مرة أخرى إلا أنه أصر على المحاولة حتى النهاية، وقف وهو ينظر إلى بيتر نظرة سعيدة كطفل استعاد لعبته الثمينة بعد أن كان معاقبا بالحرمان منها، ابتسم بيتر وهو يومئ برأسه إيماءة خفيفة وماكرة أيضا، «كما قلت لك، أسبوعين وستمتثل للشفاء، أسبوعين وسينتهي عناؤك الجسدي، وقد حان دورك الآن، حان دورك لتحرر روحك وجسدك معا، لكن كما قلت لك، استرح، سآتيك في الصباح الباكر».

بعد أن اقترب بيتر من الباب استدار وقذف ديفيد بنظرة جامدة كالموت «إياك أن تفكر في الهرب، إياك، كن على ثقة بأنك لن تستطيع».

كانت تلك الموسيقى تأتيه رويدا مع شوبان وهو يعزف تلك المقطوعة الخالدة «Frédéric Chopin - Prelude in E-Minor no. 4» حينما أطلق بيتر كلماته الأخيرة مصدرا خلفه صوتا مرعبا، صوت الباب الذي خُيِّل له أنه رآه قبل ذلك، ولكن كان الآخر كباب سجن «لا بد أنها مصادفة، نعم لا بد أن تكون كذلك».

لا بد أنها مصادفة..

تذكر حينما صدمته سيارة وظل قعيدا في المنزل، ملازما للفراش، ولم تعتنِ به هيلدا، في الحقيقة كانت تخاف بشدة من شكل الجروح، لم تكن تزوره في غرفته إلا قليلا ولا تأتيه بالدواء في الميعاد، شعر بمرارة وهو عائد من ذكرياته بنصف ألم، نصف حاجة، نصف ذاكرة، يقبع بجانبه قرص تركه بيتر له، الإدمان اللعين يدق بقوة بنفس قوة الألم الذي يعصر رأسه، يتصبب وجهه عرقا، يتصبب جسده عرقا، وقف في هدوء محاولا أن يمشي، ولكنه دون إرادة توقف، وقف مستسلما لوجع رأسه مثبتا قدميه في الأرض، فتح ذراعيه وكأنه يستقبل الموت راضيا، أغمض عينيه وابتسم، لم يأت شيء، ولكنه ظل هكذا لفترة طويلة مستمعا إلى شوبان، الموسيقى المختلطة بنقرات المطر وهدير الرعد، مستمتعا بتلك اللحظات التي يومض فيها البرق جسده ليشبه بلورة لامعة آتية من السماء، حينما اختفى كل شيء فجأة ترك نفسه ليهوي على السرير، أحدثت نوابضه صريرا كريها فلمعت عيناه، أيتها الحياة المجنونة، ألا تعطينني حقي من الذكريات؟! الألم يدق بقوة، رؤى غير واضحة تمر أمامه، العرق يتصبب، انتزع القرص، وضعه على شفتيه، لكنه لم يفعل..

لم يتناوله وظل شاردا.

18

بعد مرور دقائق كان خلالها ديفيد مستلقيا يقاوم تلك الآلام في رأسه، ليست كمقاوماته السابقة لأنه كان يفكر في أشياء أخرى تدفعه إلى الشعور بمزيد من الألم، رأى نفسه خلال الأيام القليلة السابقة، مذلولا مهانا، كيف رضي بكل ذلك؟! شعر بأن هذا الشخص مختلف عنه تماما، بل إنه ليس هو على الإطلاق، سرت مرارة بين شفتيه جعلته ممتعضًا وتقوضت ملامحه وهو ينظر إلى سقف الغرفة، حرك قدمه اليمنى قليلا وكأنه يتأكد من وجود الألم، نعم، إنه هناك في شق بعيد في رأسه، ينتظر، رغم أن الألم بات طفيفا في قدمه إلا أنه كان يشعر به، ألم من نوع آخر خلَّفته الذكريات المهينة والكريهة، تلك الأيام التي لن ينساها حتى لو وقعت له آلاف الحوادث.

نهض فجأة من مكانه بجزئه العلوي، وهو ما زال على السرير وتلفت حوله بهدوء، دارت بعقله أفكار مختلفة ولكنها جميعا تأتي من فكرة واحدة، فكرة غير واضحة، أفكار جعلته يمسح دموعه التي سقطت دون أن يعي، ولكن ملحها الذي أصاب شفتيه بالنفور كان له

وقع مرير فأيقظه، استخدم يديه ونهض بهدوء حتى وقف، نظر إلى صورة الثعلب كثيرا وابتسم ابتسامة غامضة، اقترب من الباب وهو يشد - بصعوبة - قدمه خلفه، شعر بأن له قدمين مختلفتين في هذه اللحظات، قدم رَجُلٍ قوية ركنت لفترة غير قصيرة وقدم طفل يتعلم السير لأول مرة في حياته، وضع أذنه على باب الخروج، ألصق كل جسده بالباب حتى يتسنى له استراق السمع جيدا، هدوء مريب، لا يبعث على الطمأنينة، لا عليك يا ديفيد، إنه الخوف اللعين، ثم انحنى قليلا ونظر من خلال تلك الفتحة الصغيرة في الباب، فتحة تقع أسفل مقبض الباب، لا يرى شيئا سوى ممر طويل في نهايته على جانبه الأيمن على ما يبدو سُلَّم، عاد مرة أخرى ووقف قليلا وظهره إلى الباب يفكر وعيناه ثابتتان في الفراغ، رجع مرة أخرى نحو السرير ووقف بجانبه مطرق الرأس، وبعد قليل من التفكير رفع رأسه وهو ينظر إلى اللوحة نظرة حادة مترقبة.

إنه قميصه المحبوب لديه، رأى صورة هيلدا أمامه قادمة من مخيلته، أطرق رأسه لثوانٍ معدودة مبتسما ابتسامة حزينة وسرعان ما ارتدى القميص، كان هناك أيضا معطف طويل لونه أسود، لم يكن في الدولاب اللعين شيء آخر، ولكن لا يهم، فهو لا يحتاج لأكثر من ذلك، وحين إغلاقه له لمح قبعة سوداء دائرية أمريكية الطراز كانت على أرضية الدولاب، فانحنى والتقطها هي الأخرى.

في ذلك الحفل كان يرتدي أيضا معطفا يشبه هذا المعطف، يكاد يكون هو، وتلك القبّعة تشبهها، قبعة كان يمتلكها يوما، كانت ليلة كئيبة، العراك العنيف الذي دار بينه وبين هيلدا، حاول تذكُّر سبب ذلك العراك، ولكنه لم يصل إلى إجابة في ذاكرته، شِقٌّ منه كان يفكر في الفرار، يمنعه من العودة إلى الوراء، نفض عن رأسه كل ذلك، إلا أنه لم ينفضه كاملا، رغم أنه كان يحضر للفرار بحذر إلا أن تلك الليلة الكئيبة ظلت عالقة في جزء من رأسه، باستطاعته أن يسمع صوت هيلدا الرقيق حينما يتحول إلى صوت حاد.

«أنت مجنون يا ديفيد».

ارتدى كل شيء بصعوبة، سروال «البيجامة» التي يرتديها ستختفي خلف ذلك المعطف، لا يهم، سأختفي داخل أول تاكسي وأتجه إلى... لا يهم، المهم أن أختفي من حياة ذلك المجنون الرهيب، الجثة، الكرسي الشبحي، الإدمان اللعين، الإدمان! اخترقت تلك الكلمة رأسه فالتفت بحدة لينظر إلى القرص الأخير، اقترب منه وهو يرتدي قبعته بهدوء وتفكير، أمسكه بين أصبعين ونظر له طويلا، بهدوء وبطء وضعه بين شفتيه، يفكر، حذرا، خائفا، الذكريات المريرة تعود به، «لا لن أحتاج إليه» وضربه عرض الحائط بغضب وامتعاض.

نظر حوله طويلا بعينين تتفقدان كل شيء بعناية، كان يبحث عن حذائه الذي كان قابعا أسفل الدولاب طبقا لذاكرته المهشمة، بعد بحث تخلله اليأس وجده في الشرفة، لأول مرة يرى العالم، إنه المساء، الهدوء يخيم على المكان رغم ضجيج وغضب الطبيعة، لا يعلم بالتحديد البقعة التي يوجد بها، ولكنها بالتأكيد نيفادا، فإن جزءا من ذكرياته يحدِّثه بذلك، جزء غريب وبعيد جدا، غير واضح، ولكنه يؤكد له ذلك، كان يدفع عقله ليؤمن بالخلاص من خلال جميع أفكاره، رسم خطته واتجه نحو الباب، كان ارتداء الحذاء صعبا للغاية وهو يثني قدمه لتدخل إلى داخل الحذاء، جرها خلفه، أجزم بأنها لن تساعده كثيرا وستحدث صوتا خلال هروبه، حاول بقدر الإمكان أن يستعين بقوته وأن يجعلها خفيفة، إنها تحتاج لبعض التدريب يا ديفيد، مع خطوات أكثر ستحذو حذو رفيقتها الأبدية، أتمنى من الله ذلك.

«أنت مجنون يا ديفيد» صوت هيلدا لا يفارق رأسه.

وقف عند الباب واسترق السمع مرة أخرى، وبعد أن اطمأن قلبه نظر نظرة أخيرة من الفتحة الصغيرة، الرعب يتسلل إلى قلبه، بل كان متسللا بالفعل منذ بداية إشعال فكرة الفرار، قبض بيده على المقبض وهو يتكئ على الباب حتى لا يحدث صوتا وهو يفتحه، اللعين سيظهر أمامي فجأة حينما أفتح الباب، أنا أعرف ذلك، أخذ

نفسا عميقا وهو يدير المقبض بهدوء وحذر شديدين، اللعين خلف الباب، الشبح، الكاهن الاستثنائي، الشيطان الراقص الذي يدعي عبودية الله.

«ساعدني يا الله، ساعدني».

أطلقها بهمس وهو يقبض يده بقوة على مقبض الباب بعد أن فتحه، ولكنه ظل خلفه، محافظا على وضعيته، سحبه بهدوء حتى انفتح ما يتيسر لمروره، مال قليلا ناحية اليمين ونظر بحذر، مسحت عيناه المنطقة التي استطاعت مسحها، لم يجد أحدا سوى ذلك الممر الطويل الذي رآه من قبل، والسلم، كانت هناك أبواب كثيرة لغرف على الجانبين، المكان كان بسيطا، ليس بفندق، أو ربما فندق على طراز قديم، يبدو من هيئته أنه كذلك، فعلى يمين الممر توجد لوحات تعود إلى مائة عام سابقة، تتخلل اللوحات أفاريز إضاءة قديمة «قناديل» تصدر لونا يميل إلى الاصفرار ولكنها تبعث على الراحة، وعلى اليسار توجد الأبواب التي ترتدي جميعها اللون البني الغامق، كانت كل غرفة تحمل رقما، وعلى الأرض هناك سجادة طويلة بنية اللون تغطي الممر كاملا، أطرافها تتميز بلون أكثر بنية مما يضفي عليها وقارا وجمالا.

أغلق الباب بهدوء وحذر، رفع رأسه وهو يفكر لوهلة مغمضا عينيه، أخذ نفسا عميقا، شعر ببعض الراحة التي لا تخلو من الخوف،

«الغرفة رقم 313»، انتفض فجأة من مكانه حينما اصطدم برقم غرفته، همس برقم الغرفة كثيرا، اشتد الألم فجأة في رأسه، أغمض عينيه، شعر بدوار شديد، هيلدا تحوم وهي تلهث في الغرفة، شبه عارية، تسقط فجأة، أطلق أنينا فجأة، الدوار يزداد عنفا، سيسقط، أنفاسه تتصاعد بشكل كبير ومخيف، هيلدا تتوسل وتصرخ صرخة مكتومة، انقطعت خيالاته فجأة وهو يقول بحدة: «اللعنة».

أنت مجنون يا ديفيد..

وقف يلهث ثم أدار نظره بحدة حوله ليتأكد من أنه لم يحدث الجلبة التي تجلب المتاعب، اشتد خوفه، ظل يتلفت يمينا ويسارا ثم ثبت نظره على الممر حينما سمع صوت خطوات وئيدة آتية على السلالم، لم يدر ماذا يفعل، وضع يده على فمه وكأنه يكتم صوته، هل كان يصدر صوتا ولا يعرف؟! هكذا شعر في هذه اللحظات، كلما اقتربت تلك الخطوات شعر برغبة في التقيؤ، شعر بدموعه وهي تثور في عينيه.

ابتعدت الخطوات مرة أخرى، قرر التحرك وهو ما زال ينبض بالخوف المميت، اقترب من السلالم، نظر بهدوء إلى أسفل بعينين متسعتين مرتعدتين على آخرهما، كان يستطيع أن يرى أسفله طابقين آخرين، لا يوجد مصعد كهربائي، إن المكان لا يوحي بذلك على الإطلاق، شعر بأنه رأى ذلك المكان مرة قبل ذلك، ولكنه نفض

الفكرة سريعا، سمع صوتا آتيا مرة أخرى وهو ينزل، وقف قليلا، علم أنه لا مجال للرجوع، لا لن يرجع، وليحدث ما يحدث، الفرار كان السيد المسيطر على رأسه كلما اقترب وقع الخطوات أكثر، أيها اللعين تمنحني موتا بطيئا، لن يكون القادم أنت، لن يكون القدر قاسيا، لن يساعد الله الشياطين إلا بمساعدتنا لهم، الرعب بات شيئا تقليديا بالنسبة له، ولكنه أكثر عمقا ورهبة، إن الأمر سيئ، لا، بل هو أسوأ مما تخيل بكثير، بل إنه الأسوأ.

أنت مجنون يا ديفيد..

19

تصورت له تلك الخطوات كقذائف مدفعيات تقترب، كان يشبه الجندي الذي يتوارى عن صفوف الموت، توقف في مكانه حينما أصبح في المواجهة، مواجهة صاحب صوت القدمين، حبس أنفاسه بصعوبة تامة، كان ضوء القنديل القريب المائل أمامه ضعيفا، فبدا له ظلًّا له جسد سوداويا، خيالا متجسدا، لوحة رسمت بدقة وعبقرية يحملها خيال رسام يهوى إرهاب محبيه، رأى رجلا عجوزا يرتدي سروالًا جينز أزرق، ذا عينين ذابلتين ناعستين وأنف مميز مفرطح، ورأس أصلع من الجانبين بينما تغطي رأسه من المنتصف شعيرات قليلة يقف معظمها بطريقة مائلة، يملك أيضا هامة مقوسة، يحمل بين يديه كومة من الملابس، نظر إلى ديفيد نظرة طويلة متأملة ومتشككة أيضا، وضح أنه ضعيف النظر حينما ضيق عينيه ليتمكن من تركيز عدسات عينيه على بؤرة واحدة، وكأنه يقوم بعمل «زووم»، كان ديفيد يقف في أعلى الدَّرَج في هذه اللحظات، اخذ نفسا عميقا لا يخلو من التساؤل والتوتر، لم يدر ماذا يفعل؟! من يكون هذا الرجل؟! بالتأكيد إنه عامل هنا، إنه يتناسب مع هيئة

المكان، لم يعط له ديفيد مساحة أكبر من التأمل بل استرسل هبوطه على السلالم وهو يتحاشى النظر إليه حتى اقترب منه، لم يتفوه الرجل بكلمة حتى اللحظة التي مر بها من جانبه، ولكنه أخيرا قال بنبرة رجل عجوز بطيئة ومخيفة أيضا: «إنك تشبه الطبيب القاتل الذي قتل زوجته بتسع رصاصات»، دارى ديفيد الرعب الذي شعر به في هذه اللحظات خلف ابتسامة باهتة مفعمة بالريبة والخوف، وبمجرد أن تعداه تقوضت ملامحه، ولكنه استمر في هبوطه الذي أصبح أكثر اضطرابا حتى كاد يقع، ولكنه أنقذ نفسه في اللحظة الأخيرة بينما كان الرجل العجوز ما زال متابعا ديفيد بعينيه الذابلتين اللتين أضيف إليهما علامات التعجب والشك.

«حمدًا لله» أطلقها ديفيد آلاف المرات في نفسه في هذه اللحظات همسًا، يستطيع أن يرى من خلال السلمات الأخيرة الباب المؤدي إلى الخارج، المؤدي إلى الحرية، شعر بأن قدمه تسير وحدها، هي من تقوده، طلبها للحرية يدفعها بقوة لأن تمشي آلاف الأميال دون أن تطلب منها ذلك، هكذا شعر، وجد مكتب الاستعلامات في الأسفل، كان عتيقا ولا أحد يجلس خلفه، لا عمال، لا موظفي استقبال، لا شيء، لم يتعجب كثيرا وتصور أن ذلك الرجل العجوز هو المسؤول عن كل شيء هنا، لم لا؟! فإن ما حدث معي يجعلني أتصور أي شيء وكل شيء.

وصل إلى الباب، شعر بأن موجة باردة رقيقة تداعب قلبه، نسي آلامه ومعاناته، كان الذل يموت في داخله مصدرا ذلك الصوت حينما تضع كمية من الماء على نار موقدة في الصحراء، كان شعورا مفاجئا، في الحقيقة كان شعورا محزنا في آماله التي باتت مستحيلة منذ استفاق، كان هناك وشعر كأنه مدرب عليه، ولكنه لم يكن يدري أبدا أنه يحمل كل هذه البهجة، ورغم ذلك كان حذرا، لم ينس، يعلم تماما أن في حالته تلك البهجة هي الشيء الوحيد الذي لن يستمر، لن يستمر طويلا، وهناك رأى شبحا يقف خلف الباب الزجاجي المغطى ببخار الجو شديد البرودة ولا يتحرك، توقف فجأة في مواجهة الباب، شعر بخوف مفاجئ وثقيل، توقف كل شيء فيه، ألم طفيف في أسفل معدته، شعور بشلل مفاجئ يثقل جسده، قلبه يغور في بئر عميقة، بل كان الأمر أسوأ من ذلك بكثير، لا يمكن أن يكون القدر قاسيا إلى هذه الدرجة! لا يمكن أن يكون ذلك الشيطان بهذه الدرجة من الدهاء! لا يمكن أن تكون اللعبة متقنة إلى هذا الحد!

رغم محاولاته الجاهدة للخروج من هذه الأفكار السيئة والقاتلة إلا أنه لم يستطع، وفي لحظة تحدٍّ مفعمة بالأمل قرر أن يفتح الباب ويخرج، إن المخاطرة هي الشيء الوحيد الذي يملكه، لا يمكنه إن يمتلك شيئًا آخر، كان يعرف ذلك جيدا، عبور باب من الزجاج

الملفع بقطرات المطر والغموض قد يمنحه الحرية، وقد يمنحه البؤس والعذاب، أصدر تنهيدة مجروحة بائسة، كان يقف هناك في مواجهته، شرع المطر الغزير يبلل وجهه بقطرات متقطعة استطاعت أن تمر بشكل جانبي لتزين وجهه، كان هزيز الرياح قويا، يطيح بمعطفه، قبض يده بقوة عليه، وضع اليد الأخرى فوق قبعته حتى لا تطير بعيدا عنه، الرياح القوية لا تعرقل عينيه الثابتتين على ذلك الشبح، دقق النظر في وقفته الثابتة الغريبة، رأى ابتسامة عريضة جامدة كالموت على وجهه، فم ممطوط كابتسامة بهلوان لا يمكن فصل وجهه عن ابتسامته المخيفة.

إنه روبرت صديقه القديم، صديقه الوحيد..

«أأنت روبرت؟!»، اقترب منه بهدوء وحذر، «هل عدت من إنجلترا؟! كيف عرفت بأنني هنا؟ لماذا لا ترد؟!»، تعجب كثيرا من صمت روبرت الثقيل المصحوب بهزيز الرياح وزخات المطر التي تحدث صوتا مكتوما على قبعته، «روبرت إنني أحتاج مساعدتك، هناك رجل مجنون يدَّعي أنه صديقي، لقد احتجزني هنا، ويقول إنني مطارد، يقول إنني قتلت هيلدا – ابتسم بسخرية – أتصدق ذلك السخف؟! أقتل هيلدا! لا أعرف ماذا أفعل! أحتاج لمساعدتك»، قال جملته الأخيرة بصوت متحشرج.

«لا أستطيع مساعدتك يا ديفيد، فأنت وحدك من تستطيع أن تساعد نفسك، إن الله يساعد فقط من يساعدون أنفسهم»، أطلقها بصوت عال وواضح محاولا اختراق ضجيج الغضب الكوني، «روبرت أنا في مأزق، ألا تفهم؟! ولا أطلب شيئا سوى بعض المساعدة، فلقد ساعدتك كثيرا، ألا تذكر؟!».

أومأ روبرت برأسه موافقا وكان ممتعضا أيضا «لقد ساعدتك إبان أيام الحرب القذرة، ساعدتك ونحن صغار، ولكنك أخذت مني هيلدا».

نظر له ديفيد طويلا ومتأملا: «لقد اختارتني أنا، أنا من اكتشفتها وأخرجتها من البحر، إنها عروستي وحدي، وليس لأحد الحق فيها سواي»، لم يقل ديفيد ذلك بل ظل صامتا ينظر إليه غاضبا ومتعجبا للغاية، وتحرك بعد لحظات من مكانه في اتجاه اليمين يجر قدمه خلفه، يجرها بقسوة وألم بعد أن شعر بفقدان الأمل في صديقه روبرت، التفت خلفه ليطالع روبرت ولكنه لم يجده، «بئسا لكم جميعا»، تلفت حوله ليجد أية وسيلة مواصلات، أي شيء يقتلعه من هذا المطر والصراخ المستمر من الرياح، أي شيء يقتلعه من هذا الكابوس المرير، رأى سيارة غير واضحة المعالم جراء الجو الرهيب الذي أعلن ثورة مفاجئة، ولذلك لم يستطع تحديد إن كانت سيارة خاصة أو سيارة أجرة «تاكسي» تقف على جانب

الطريق بجانب أحد الأبنية القريبة، أنوارها مضاءة، لم يفكر طويلا، إنها تبعد مسافة ثلاثين خطوة، لا بأس من المحاولة، لا بأس من أي شيء يقتلعني من هنا، اغترق بمياه المطر، مقبضا على معطفه وقبعته يجر قدمه، وصل إلى السيارة، لا يستطيع أن يرى ما بالداخل من أثر البخار وقطرات المياه التي غلفت جميع جوانبها، لا يوجد شخص واحد في الشارع، بالتأكيد فالجو عاصف، توقيت سيئ للهرب، ولكن الهرب يحتاج إلى ميعاد! إنها لحظة مسروقة غافلة من السجان لتنال بها حريتك، ربما لا تحصل على تلك اللحظة مرتين، ربما لا تحصل عليها على الإطلاق.

دق على زجاج باب السائق بهدوء، ولم يجبه أحد، بالله عليك إن كنت نائما أفق، لا تتركني وحدي في هذا الجو اللعين، فالشيطان قد يأتي في أية لحظة، وبعد محاولة أخرى نزل الزجاج بهدوء، ليجده ناظرا له في برود وابتسامة رهيبة، «أين ستذهب يا ديفيد؟! هل ستتركني وحدي؟! قلت لك بأنك لن تستطيع الهرب، هل أنا بمثل هذه السذاجة لأترك لك الباب دون أن أغلقه بالقفل؟ لقد راهنت نفسي ولكنك للأسف جعلتني أخسر الرهان بمحاولتك الفاشلة هذه!»، ثم صرخ بشكل رهيب وهو يقول: «هل تراني ساذجا يا ديفيد؟!»، صراخه يكمل تلك السيمفونية الكونية الغاضبة والمرعبة، كان ديفيد في هذه اللحظات يشبه الشجرة الضعيفة التي

تواجه الرياح، توسعت حدقتاه، فغر فاه قليلا، يكاد يسقط من هول المفاجأة، أيها اللعين، أيها الشيطان، كيف لك أن تعرف كل هذا؟!
لا يمكن أن يكون القدر قاسيا إلى هذه الدرجة!

«اركب»، أطلقها بحزم، لم يعرف ديفيد لم ركب باستسلام، ربما لأنه كان يدري بأنه لا مجال للهرب، لا يستطيع الصراخ، لا يوجد مكان للاستجداء، فهو يعلم أن الجميع يبحث عنه بسبب جريمة لم يفعلها، لن يعترف بها.

اللعنة عليكم جميعا، اللعنة على كل شيء.

20

مر الوقت ثقيلا وهو في الحمام يستحم بعد أن أمره بيتر بذلك، كان يبكي في صمت تحتضن دموعه قطرات المياه الساخنة المتدفقة عليه من صنبور المياه، لأول مرة يلاحظ تفاصيل الحمام الضيق، لا يتسع سوى لشخص واحد تقريبا، سقفه عالٍ، صنبور المياه نحاسي اللون رديء ولكنه ما زال يعمل ككهل أجبرته الحياة القاسية على ذلك، لا يوجد به مغطس بكل تأكيد، فهو يكاد يتسع له وبنفور كبير أيضا، «بحق الله ماذا يحدث لي؟! ولماذا قال لي ذلك الرجل العجوز ذلك؟! حتى روبرت صديقي كان يقف بلا مبالاة! لم يأت ليحتضنني! ألم يفتقدني؟! لم يأت ليؤازرني في محنتي هذه! بل اكتفى بالوقوف على هذا الوضع! لقد نسي أيامنا ونحن في الجامعة ولكم كنت رفيقا معه! لقد نسي أيام الحرب حينما حملني على ظهره من بين أهوال القذائف والمدافع! نسي صداقتنا التي جمعتها رغبتنا في الحياة وهروبنا من بين نوافير الدماء في الصحراء! ليكن يا روبرت، ليكن».

شعر بآلام في رأسه، لا لم يكن الأمر كذلك، بل كان أسوأ بكثير، حينما تذكر اقتياد بيتر له وكأنه رهينة، تلك القسوة الباردة حينما فتح له باب السيارة وجعله يرى بعينه الملصقات التي وزعت له في أماكن مختلفة في ولاية نيفادا بحثا عنه، بالتحديد في مدينة كارسون التي يقطن بها ويوجد فيها الآن، على الأعمدة ملصقات، على الشجر ملصقات، على بعض جدران المتاجر ملصقات، في كل مكان ملصقات، كلها تطالب بالقبض عليه، كلها تطلبه للعدالة، ابحثوا عن ديفيد جونز المجرم الحقير، احذروا من ديفيد جونز النكرة الإنسانية، ابحثوا عن ذلك الحيوان المفترس الهائم، هل اكتملت عدالة العالم ولم يتبق سوى القصاص من ديفيد المسكين؟! شعر بمرارة تصاحب الألم، وألم في نفسه يصاحب ذلك الألم، تمنى لو أن يصرخ ولكن صراخ المجرمين مميز وأحدهم مطلوب للمثول أمام الكرسي الكهربائي، للجلوس عليه وليصرخ وقتها إن شاء، إن استطاع، شعر بجوع أيضا، لكنه لم يأبه لإحساسه الأخير، كان يستطيع أن يسمع الأصوات الصادرة من معدته، تلك القرقرة اللعينة، كان يستطيع أن يسمع الأنين الصادر من رأسه، بل كان يستطيع أن يسمع كل الآلام التي وجدت في هذا العالم البغيض.

كان يمشي كأسير حرب صامت ذليل بلا أية ردة فعل حينما انتزعه بيتر من السيارة بعد أن ترجل منها واتجه نحوه وأمره بالنزول

أمام ذلك الفندق القديم الذي لاقى فيه الذل والهوان، اللعنة عليك، اللعنة عليك آلاف المرات، لم يكن يسمع كلماته وسبابه القذر وتوبيخه الذي يبدو للمستمع توبيخ أب قاس لابنه، ولكن في الحقيقة هو سجان فظ لسجين مسكين، سرت رعدة في جسده قوية نفضته من مكانه حينما تذكر تلك الركلة في ساقه، تلك الركلة التي أطلقها بيتر دون أن يأبه لجرحها «ناكر الجميل يستحق الموت، نكران الجميل هو الخيانة بأم عينها»، آلام رأسه تزيد، يستطيع أن يسمع صوتا يشبه فحيح الثعابين، هناك شباك صغير في الحمام لا يستطيع أن يمر منه سوى قط صغير، موارب، للأسف إضاءة الحمام معطلة والجو شبه مظلم من تكدس السحب في السماء، إنها المعركة الفاصلة، هدأ للحظة وأوقف الصنبور وأنصت ثانية، لم يكن هناك شيء، إنها خيالاته اللعينة التي يرسمها الخوف والذل معا، آلامه المتلاطمة في رأسه كبحر هائج في شهر يناير، لا يمكن أن يكون القدر قاسيا إلى هذا الحد! وحين شرع في فتح الصنبور مرة أخرى سمع ذلك الصوت الشبيه بالفحيح يعود مرة أخرى، هناك من يهمس له بشيء ما، سكن في مكانه بهدوء شديد واقترب من الشباك الذي يقع أعلاه، أعلى منه بمسافة متر تقريبا.

«ديفيد، لا تضيع الوقت وانجُ بنفسك، إنهم في كل مكان، عليك أن تهرب إن سنحت الفرصة، اهرب بعيدا».

ظل الصوت على هذه الشاكلة يقترب منه ويتكرر لثوان حتى ابتعد رويدًا، إنها رسالة من الله، لا شك في ذلك، بعد دقائق أيقن بتلك الفكرة بعد أن ارتعد قليلا من وقعها عليه، ولكني لا أستطيع أن أساعد نفسي، سأهرب بالتأكيد، سأهرب ولكن ماذا يقصد بأنهم في كل مكان، الشرطة اللعينة؟! بيتر المجنون؟!

لا يمكن أن يكون القدر قاسيا إلى هذه الدرجة!

فكر قليلا وهو يرتدي ملابسه بصعوبة كبيرة في هذا الحمام الضيق ليلتقي ببيتر الذي يجلس في الخارج في انتظاره، إن الرسالة واضحة، سأساعده فهو سبيلي الوحيد للخلاص، «هيا يا ديفيد أسرع»، سمعها تأتي من خلف الباب بعد ثلاث دقات عنيفة على الباب، إنه بيتر، «إنني قادم»، قالها بمرارة وهو يرتدي سرواله ثم فتح الباب الذي يصدر صريرا بطيئا منفرا وخرج إليه، كان بيتر يدخن وهو يجلس على الكرسي الشبحي، ولكن هذه المرة بجانب تلك المنضدة التي أتى بها، «الآن أنت على ما يرام، لقد ارتعبت عليك يا صديقي، أنت لا تشعر بمعاناتي لأجلك، حقا لا تشعر، أظن أنك تأكدت تماما الآن أنك مطلوب، وستظل مطلوبا ان لم تفعل ما آمرك به»، صمت قليلا وهو ينفث الدخان، كان صمتًا ثقيلًا، شعر ديفيد بالخوف لأنه يعلم جيدا أن بيتر قد يتحول في أية لحظة إلى شخصية أخرى تماما، موسمية بشكل حاد، «أنا آسف

يا ديفيد ولكن يبدو أنني مضطر لكسر ساقك مرة أخرى، وإلقائك في السيارة المصدومة، ثم ببساطة أتصل بالشرطة لأخبرهم عن مكانك وينتهي الأمر... نعم... سأفعل ذلك إن تكرر الأمر، صدقني لن أتردد»، كان ديفيد ساكنا لا يتحرك مطرق الرأس كطالب فشل في جميع اختباراته يتلقى التأنيب والتوبيخ، «ولكنني سأكون رحيما لأجلك، لأجلنا معا.. أترى هذه الأوراق؟ إنها أوراق جميلة إن سألتني عن رأيي، من الآن فصاعدا وبعد بداية مهمتنا التي ستبدأ بعد غدٍ، ستكتب كل شيء يمر بك، اعتبره تقريرا، اعتبره بحثا، لا تهمني المسميات، أنت من دفعتني إلى ذلك، فلا يمكنني الثقة فيك بعد ما فعلت، وكن على يقين بأنني لن أعطيك الأقراص لهذا اليوم عقابا لك، ستجعلك الآلام تتذكرني جيدا، تتذكر بألا تخون بيتر مرة أخرى».

غمر ديفيد إحساسٌ بالذل وهو يرى بيتر يمشي مبتعدا بخطوات غاضبة وثابتة أيضا نحو الباب وما إن قال: «أنا آســ» حتى اختفى عن ناظريه، لم يسمع سوى صوت الباب وهو يغلق بقوة محدثا رعدة قوية هزته بقوة، بل كان ذلك الباب يغلق في أعماقه، وماذا عن الطعام أيضا؟! فأنا جائع، وفجأة ابتسم ابتسامة عريضة ثم تحولت إلى قهقهات ضحك عالية، ظل يضحك وهو ينظر إلى الأوراق القابعة على المنضدة، عاد برأسه إلى الخلف مقهقها

بلا توقف، هستيريا ضحك انتابته وتملكت منه، كانت دموعه أيضا تجري بلا توقف، معاناة حتى غد، مجهول بعد غد، أظن أنني أنال كفايتي، أشكرك أيها القدر.

«إنهم حولك في كل مكان يا ديفيد».

تذكر ذلك الصوت، توقف فجأة عن الضحك وشرع يمسح دموعه بكف يده اليمنى، ثم جلس على الكرسي الخشبي بجانب الأوراق وأمسك بالقلم، لم يكتب شيئا بل ظل مفكرا، لم يكن الألم في هذه اللحظات مستحوذا على كل شيء مما أعطاه مساحة خالية في جانب من عقله لكي يفكر، ولكنه لم يفكر في أي شيء، لم يستطع، لقد طرق باب التفكير متأخرا..

فقد باتت الآلام دون إنذار تملك كل شيء.

21

مر اليوم ثقيلا على ديفيد، فلقد اعتقد حين مغادرة بيتر أن الأمر انتهى ولن يعود إليه إلا في التوقيت الذي حدده مسبقا، لكنه عاد بعد دقائق ومعه سلم محمول، صعد عليه حتى وصل إلى السقف العالي، ووضع شريطا لاصقا وألصق به خيطا متدليا، ثم أتى من طرفه وربط به شريطًا كاملًا من الدواء لا يوجد به سوى قرص واحد، ونظر إلى ديفيد تلك النظرة الساخرة المجردة من الحياة والرحمة وابتسم ابتسامته الواثقة، وانصرف ومعه السلم، نعم كان يقول له تلك الكلمات التي لا يسمعها سوى رهينته، كان يسمعها مدوية عميقة تنهش قلبه وكرامته، إنها هناك يا ديفيد، أيها الأعرج الخائن، إن استطعت أن تصل إليها فهي لك، ولكنك لن تستطيع..

لن تستطيع..

كان مرتجفا بعد مرور خمس ساعات من مغادرة بيتر، الرياح تصطدم بقوة بباب الشرفة الذي تركه مفتوحا فيحدث اصطكاكا قويا، لم يحاول ديفيد إغلاقه، فللحظة تمنى الموت، كان واثقا أنه لن يستطيع الحصول عليه بملء إرادته، فلو كان الأمر كذلك،

لفعلها منذ وقت طويل، ترك للقدر المساحة لكي يلعب لعبته ويقرر مصيره، بكى لساعة كاملة وهو يرجو الرياح ويتوسل إليها في أن ترسل غضبها على ذلك الخيط المتدلي فتقطعه ويستأثر بالقرص الوحيد، ولكن الرياح خائنة، إنها متضامنة مع بيتر، حتى الطبيعة اتفقت عليه، بحث كثيرا عن القرص الذي ألقاه قبل محاولة هروبه ولكنه لم يجده، بحث عنه أسفل السرير، أسفل الدولاب، فوق المنضدة وتحتها، بحث عنه كالمجنون في كل مكان ولكنه لم يجد شيئا، فكر كثيرا في أن يغادر الغرفة ولكنه كان يعرف مسبقا النتيجة، نظر للباب بعيون خائفة وعقل مرتعد يفكر، ولكن لم تكن أفكاره مكتملة، فهناك آلام تنهش رأسه، آلام تنهش معدته، فالألم يسبق التفكير بمراحل، إنه السباق المعلومة نتيجته من البداية.

ديفيد لن تستطيع...

لم يكن يصدق ما وصل إليه من كسر في كرامته وعزيمته، كان يبكي كلما تذكر خلواته القديمة، حاول أن يفكر بالرجل العجوز ولا يعرف السبب في ذلك، حاول أن يفكر بكل شيء حدث له منذ أن عاد من غيبوبته، رقم الغرفة (313)، الملصقات، هيلدا، فحيح الصوت المجهول، القميص، روبرت صديقه الوحيد، لم يكن روبرت صديقه بمعنى الكلمة، ولكنه كان الوحيد الذي يتصل به كثيرا، فإن ديفيد كان شخصية انطوائية واجتماعية في نفس الوقت،

فهو يعرف الناس بطبيعة عمله كطبيب، ولكنه لا يحاول الانخراط في حياتهم، يقف على الخط الفاصل بين العام والخاص، فالعام مسموح والخاص كرة من نار لا يستطيع أحد لمسها.

ديفيد لن تستطيع...

وقف على السرير وهو يقاوم الدخول في اللامعلوم، غيبوبة لا يعرف موعد نهايتها، الموت البطيء، حاول أن يصل بقدر الإمكان إلى القرص، كان يمد يده، إنها بعيدة ولكن المحاولة لن تضير، ستمنحه جزءا من الحياة، الجزء الذي ما زال متطلعا إلى الأمل، ولكن لم تكن هذه الحقيقة، فقد كان جزء منه يختبر قوته على الاستسلام، القوة التي تمنحك الحق في أن تستسلم وليس أن تكون مرغما عليها، سقط ديفيد مرات عديدة حينما وقف على قدم واحدة، كان الألم قويا وهو يدق بقوة في ساقه، استخدم الدولاب مرات عديدة ليستعين به للوصول، ولكنه كان يسقط بقوة متألما متأوها بصوت مسموع، الآلام تتجول في جسده ورأسه كسارق متهور لا يأبه بأي شيء، استخدم الكرسي الشبحي مرات عديدة أيضا ولكنه كان يعلم أن بيتر يعرف كل ذلك، أيها الداهي اللعين، ليأخذك غضب الله، زحف بعد أن أصيب كل ما فيه بالآلام والأوجاع، أغلق الشرفة التي كانت تقاومه مستخدمة الرياح القوية ولكنه أخيرا انتصر عليها، انتصر على كل شيء عدا الشيء الوحيد الراغب فيه.

تراءت أمامه هيلدا مبتسمة ابتسامة حزينة، نعم إنها هيلدا، «عزيزي ديفيد، أنت تتوجع يا حبيبي، عليك أن تهرب من هنا»، كانت عيناه توشكان على الانغلاق في هذه اللحظات، ربما للأبد، «هيلدا»، همس بها بصعوبة بالغة بعد أن فقد القدرة على امتلاك الوعي ، على امتلاك أي شيء.

استفاق على يدي بيتر وهي ترفعه من على الأرض وتمده بقرص جديد، لقد كان يدسه في حلقه مستخدمًا أصبعين، مصهما بنهم مع القرص رغم عدم قدرته، وفي لحظات لاحقة كره نفسه جراء هذا الفعل، لقد أقبل الغد، أقبل بطيئا، لقد كانت هيلدا هنا، لم يكن يتكلم، لم يكن يستطيع القدرة على الكلام، كان يأكل من الطعام الذي جلبه بيتر بهدوء وألم، «من الآن أنت اسمك باتريك بلامر، لديك صيدلية، إن روكسانا تذهب إليها يومين في الأسبوع لتبتاع أشياء تخصها، فهي مولعة بعض الشيء بجمالها»، وهكذا كانت هيلدا، قالها ديفيد في نفسه، أخرج سيجارة واحدة وأشعلها ثم استرسل: «لا أعلم ماذا عليك فعله ولكن يتوجب عليك أن تمسك بطرف خيط، لا يهمني كيف، أعلم أنك تسأل نفسك كيف سيتم ذلك بعد أن أصبحت طبيبا مشهورا، أقصد مجرما مشهورا، لا عليك، فلقد أحضرت لك الأدوات اللازمة لذلك، وأيضا بطاقة هوية جديدة باسم باتريك بلامر، ستصبغ شعرك باللون الأسود

وكذلك لحيتك، أرى أن لحيتك الجديدة منحتك جزءا من الجمال، ولا تنسَ أن تصبغ الشارب، هناك أيضا عدسات لاصقة، وابتعت لك بعض الملابس التي تتناسب مع كل ذلك، لديك العنوان وكل شيء، إن سألك أحد الزبائن مِنَ المترددين على الصيدلية عن أي شيء يخص ظهورك فجأة فما عليك إلا أن تقول بأن دكتور إيفان لن تعود إلا بعد وقت طويل، إنها في إجازة، إنها صديقتي وصاحبة الصيدلية وتعرف كل شيء، ستساعدني في مهمتي هذه، للأسف ليس لدينا كثير من الوقت، ليس لأنك مطلوب من العدالة، السبب يا صديقي أنني لن أطيق الانتظار أكثر من ذلك»، صمت للحظات وهو ينفث آخر دخان متبقٍّ في جوفه ثم دمعت عيناه فجأة بشكل غريب، «لا أستطيع أن أقتل يا ديفيد، هل تفهم ما أعنيه؟! لا أستطيع فعل ذلك، لا أستطيع أيضا الحياة دونها، إن الأمر يزداد سوءا ولقد انتظرتك طويلا»، فجأة توقف عن البكاء بشكل غريب ومريب أيضا كعادته، وكأنه لم يكن يبكي ثم قال بلهجة صارمة: «اعلم أنني قريب منك للغاية، وفي هذه الحالة التي تعلمها، الهرب يا صديقي، سأعلم، وقتها سأكون أنا من يجلسك على الكرسي الكهربائي، سآتي في الغد لأصطحبك إلى المكان، لديك قرصان كاملان».

حين مغادرته نظر إلى ديفيد نظرة ودودة تخفي وجها قبيحا «لا تنسَ أن تكتب كل شيء بدءا من الغد، باتريك، أهلا بك في

عالمك الجديد»، لم يقل ديفيد شيئا، لم يتفوه، حينما شرع يفكر، كان بيتر قد غادر الغرفة، غادر تماما، لكنه ردد الاسم مرات عديدة وهو مصاب بالدهشة مفكرا بعمق.

«باتريك بلامر»...

«باتريك بلامر»...

باتريك

«أحيانا القدر يتشبه في صور مختلفة لحدث واحد، ليؤكد لنا الحقيقة».

روكسانا سميث

22

لم يحتج الأمر لإدراك كبير منه حينما خرج من الموتيل - فندق صغير - المقيم به ليعرف أين يكون، إنه يسكن حاليا على ناصية شمال شارع كيري «Curry St» المتقاطع مع غرب شارع واشنطن «Washington St»، وعليه اجتياز مسافة قصيرة من شارع واشنطن ليصل إلى الشارع الرئيسي لمدينة كارسون «Carson St» وهناك تقع جميع المحال التجارية والمطاعم والصيدليات والكازينوهات، اتجها إلى عمق الشارع من ناحية اليسار حتى بلغا إحدى محطات الوقود التي تقع على شارع كارولين «Caroline St» المتقاطع مع شارع كارسون، وقفا قليلا ولم ينطق أحد منهما، كان بيتر حينها ينظر إلى بعض الأوراق أمامه التي أخرجها من ظرف كبير كان يضعه بجانبه، أعطى ديفيد بطاقة هوية وهو يقول: «أنت من الآن باتريك بلامر، تعمل طبيبا في صيدلية الطبيبة إيفان، اسم الصيدلية (صيدلية كارسون) عليك أن تتعرف جيدا على هذه الصورة، إنها صورة روكسانا زوجتي»، قال جملته الأخيرة بحزن ومرارة شديدين، «عليك أن تعلم أنها تتردد يومي الإثنين والجمعة على

هذه الصيدلية، إنها صديقة إيفان ولكنها لا تعلم بسفرها»، ظل صامتا للحظة مفكرا وقد بدا عليه الأسى ثم ترجل من سيارته ليملأها بالوقود.

كان ديفيد في هذه اللحظات ينظر إلى بطاقة هويته الجديدة، إن الصورة تشبهه إلى حد كبير بعد التغيير، لا تكاد تختلف عنه كثيرا، تعجب كثيرا من ذلك، إنها لحيته الجديدة بلونها الأسود وشاربه الكث المنتظم بعد تشذيبه الذي أضفى عليه وقارا ووسامة، شعره الأسود الطويل نسبيا مع عدساته الزرقاء وبشرته البيضاء، كان شاحبا بعض الشيء، كانت مسّاحات السيارة تعزف ذات اليمين وذات اليسار في محاولة يائسة لإزالة الأمطار المنهمرة على زجاج السيارة الأمامي، كان شكلها مربكا له في هذه اللحظات، الصوت العاصف للرياح وشكل السحب وهدير الرعد الشبيه بالزئير من آن لآخر يخبره بانقباض في قلبه، عيناه تعلقتا بالمسّاحات المناضلة بلا وعي، شرد ممتعضا، إنها تحارب المستحيل ومع ذلك لم تيأس ولن تيأس، تحارب الطبيعة، وكل من حاربوها سقطوا إما موتى أو مستسلمين، ولكنه أخيرا أبقى في رأسه على فكرة الكفاح حتى النهاية، لم ينظر إلى صورة روكسانا في هذا التوقيت، لم يعلم لمَ لم يفعل ذلك! ولكنه فضَّل عدم النظر إليها حيث شعر بأنه تصرف غريب، إن الأمر برمته لا يمكن تصوره، وضع كل شيء في الظرف

بعد أن وضع بطاقة الهوية الجديدة في محفظته القديمة التي أفرغ منها كل شيء يتعلق بديفيد جونز، ديفيد جونز المنتهي والمطالب من العدالة، تذكر هيلدا وأطرق برأسه مفكرا تداعبه بعض الذكريات، لم تكن ذكريات جيدة على الإطلاق، رغم أنه لم يكن يريد التطرق إلى تلك الأحداث إلا أنه وجد عقله، ودون إرادة منه، يأخذه إلى تلك المنطقة، نظر إلى المساحات مرة أخرى نظرة خالية من الحياة، نظرة تبدو ضائعة، جال بخاطره طريق غير هذا، السرعة رهيبة، الرؤية غير واضحة، السيارة تنزلق بسرعة جنونية، وقع قطرات الأمطار يزداد بسرعة جنونية عازفا لحنا مرعبا، وكأنه يشاركه الكارثة، المكابح لا تعمل، لا أمل فيها مع هذه السيول، الأرض منزلقة للغاية وكأنها معبأة بالصابون، عيناه تتسمران على اللاشيء، قلبه يقفز من موضعه، شلل حاد في جميع أنحاء جسده، إنها الموسيقى التصويرية المتسارعة للنهاية، نعم إنها النهاية، ولكنه سرعان ما تيقظ من هذا المشهد الرهيب على دخول بيتر إلى السيارة مرة أخرى، «عليك أن تدرك جيدا أن أمامنا أسبوعًا واحدًا، خلاله سيتحدد إن كنت ستبني حياة جديدة أو ستقضي على ما تبقى منك، كن حذرا يا ديفيد، آسف كن حذرا يا باتريك»، وابتسم ابتسامة رهيبة.

فتح الصيدلية التي تقع على مسافة قريبة من محطة الوقود في شارع كارسون، نظر حوله طويلا، شرع يتعرف على الأدوية، لم

يأخذ منه الأمر وقتا طويلا، فإن كل شيء فيها منظم للغاية، هناك يستطيع أن يرى الأدوية التي تبدأ بحرف أ «A» وهنا الأدوية التي تبدأ بحرف ر «R» وهكذا، إن وظيفته كطبيب للعيون سهلت عليه الأمر كثيرا، وحمدًا لله أن هناك شيئا ينفعه في هذا التوقيت الصعب، كان خائفا بعض الشيء ومتوترا، فهو لا يعلم ماذا عليه أن يفعل! لا يعلم كيف ستجري الأمور وإلى أين ستؤول! أسبوع واحد؟! أظن أن الأمر مستحيل! دخل عليه أحدهم بعد نصف ساعة قضاها في تفكير غير مرتب، أخذ خلالها قرصا مما أعطاه له بيتر حين شعر بصداع رهيب، إنه نفس الألم، لا شيء جديد، كلما حاول التفكير في الماضي عاودته تلك الآلام، لكم ينغصه عدم قدرته على تذكر ما حدث له خلال الثمانية أشهر القليلة، فلو أنه يعلم لاستطاع حل الكثير من الألغاز، لكنه دون معرفة ذلك كان على يقين بأنه لم يقدم على قتل هيلدا، فإن الأمر يكاد يكون مستحيلا، بل إنه المستحيل بعينه، أدرك في لحظات أن عليه تقصي أمر هيلدا، فإن منزله الذي جمعهما لا يبعد كثيرا عن هنا.

«دكتور باتريك.. دكتور باتريك.. لو سمحت أريد بعض الأدوية، وأعطاه ورقة».

استفاق من تفكيره على صوت ذلك الرجل الذي وضح أنه يناديه بباتريك، «كيف عرفت أني اسمي باتريك؟!» ابتسم الرجل ابتسامة

ودودة وهو يقول: «من الشارة التي تضعها على المعطف الخاص بك»، ألقى ديفيد نظرة سريعة ومتشككة على الشارة وكأنه يكتشفها لأول مرة، لقد نسي تماما أنه وضعها، لا يستطيع تذكر ذلك، أخذ منه الورقة وجلب الأدوية، كان متلعثما، فاقد التركيز، أخذ وقتا طويلا حتى أحضر ما يريده الرجل، أخذ فترة ليست بالقصيرة ليحاسبه، لم يكن يعرف كيف يستخدم آلة الكاشير «الحساب» الخاصة بالمحاسبة، ولكنه بعد عدة محاولات استطاع أن يفلت من هذا الموقف السخيف، تصبب عرقا وهو يرسم ابتسامة توحي بالحرج للرجل الذي لم يبدر منه أي رد فعل يوحي بالغضب أو الانفعال، أعطاه كل شيء وهو يومئ برأسه متأسفا على التأخير، لم ينطق الرجل بكلمة ولكنه رد بابتسامة ودودة وغادر في الحال، وحينها شرع ديفيد في التدرب قليلا على تلك الآلة - آلة الكاشير - كان يعلم أنه لا يطيق التعامل مع بني جنسه بهذا الشكل، إنه ليس بائعا في سوبر ماركت، دمدم كثيرا بكلمات توحي بالسخط ولكنه سرعان ما أطلق زفيرا قويا، «أسبوع واحد وينتهي كل شيء».

كانت تسير بهدوء تخفي عينيها خلف نظّارة سوداء، ترتدي كوفية صوفية مزخرفة بخليط من الألوان الزاهية، فستانا أنيقا أسود، إنه يعرف هذا الفستان جيدا، شاحبة اللون، تحمل أنفا مدببًا

جميلًا، شعرها الأشقر الغامق يضفي عليها جمالا خلابا، لها شفتان ممتلئتان رائعتان، ليست بالطويلة ولا القصيرة، بل كان طولها معتدلا رائعا، جسدها غض ومريح للناظر، تسمر ديفيد، عيناه جاحظتان، ينظر لها باهتمام شديد، «هيلدا»، همس بها دون وعي محركا شفتيه بلا إرادة، إنك حية، بئسا لكم جميعا، بئسا لك يا بيتر، عليَّ أن أخبرها بكل شيء وعلينا الخروج فورا إلى قسم الشرطة لنبلغهم عن ذلك المختل الذي يحتجزني وجعل مني مدمنا، بالتأكيد تعرف كل شيء، ابتسم ابتسامة عريضة وهو يهمس بشوق وحب كطفل صغير: «هيلدا».

خلعت نظّارتها السوداء وهي تنظر له بتعجب وبعينين متشككتين متسائلتين: «أهلا، أين دكتور إيفان؟!»، نظر لها طويلا وقد شعر بحزن شديد وخيبة أمل، لمْ يعلم لِمَ سرى ذلك الحزن فجأة في أعماقه ولكنه بعد لحظات تركها بسرعة وذهب إلى الظرف وأخرج صورة روكسانا منه بعصبية وحدق فيها، إنها روكسانا زوجة الشيطان، إنها تشبه هيلدا كثيرا، تشبهها إلى حد كبير، بئسا، إنها ليست هي، لكنها ترتدي نفس الفستان الذي أهديته لهيلدا! إنني أتذكره جيدا، إنها تلك الليلة، عاد بذاكرته، شعر بصداع يدك رأسه وهو يرى خيالات يديها، وهي ترتفع بعصبية وتنزل لتوجهها في

وجهه بحدة، تبكي، منهارة، كان واقفا جامدا كالموت يرسل لها نظرات غريبة لا توحي بشيء جيد.

«دكتور، أسالك أين دكتور إيفان؟!»

«دكتور!»

«دكتور!»

عاد فجأة وقد ازداد شحوبًا، نظر إليها طويلا بعينين مرتجفتين شاردتين، أطبق على الصورة في يده كي لا تراها ثم ابتسم ابتسامة باهتة غريبة، وبعد وهلة طويلة من الصمت كان حينها يحاول العودة، تصديق الواقع الرهيب القاسي، «أنا دكتور باتريك.. دكتور إيفان في إجازة، أحل محلها حتى تعود»، شعرت روكسانا بنوع من الفزع وهي تتأكد من الشارة الموضوعة على قميصه التي تشير إلى اسمه، «باتريك بلامر»! ورددت الاسم هامسة في نفسها: باتريك بلامر، شردت قليلا وعادت إلى الخلف خطوة، ثم دققت النظر فيه مرة أخرى تتأمله حاملة في عينيها لمحة غريبة وكأنها تائهة في مكان ما ثم رويدا شرعت النظرة المتشككة في الزوال حتى انتهت بابتسامة خفيفة باهتة، «وليكن سأعود إليها لاحقا ثم أعطته ظهرها»، ثم سرعان ما قال متلعثما ولم يعلم كيف صدر منه ذلك: «إنها.. إنها لن تعود الآن.. إنها في إجازة طويلة.. يمكنني.. مساعدتك إن أردت»، لم يكن يعلم ديفيد تحديدا لم بدر منه ذلك،

هل تحقيقا لرغبة بيتر؟! أم أن هناك شيئا آخر دفعه لهذا الفعل؟! كانت تقف في مواجهته تتأمله في هدوء، كانت قد ارتدت نظارتها مرة أخرى، لم يكن يستطيع أن يرى عينيها ولكنه كان واقفا محاولا تمالك نفسه واكتشف ما خلف العدستين، حاول كثيرا البحث عن كلمات ولكن ماذا يقول؟! ضاع منه كل شيء، صورة بيتر تراءت أمامه فشعر بالخوف، ولكن كان هناك شيء آخر يدفعه للفضول، الكثير من الأحاسيس المتضاربة كانت تمر به، ووقف متسمرا ساكنا، نظرت حولها في هدوء وهي تقول: «اسمك دكتور باتريك؟»، أومأ برأسه دون أن ينطق، «تلك المرة الأولى التي أراك فيها، لم تخبرني إيفان أنها ذاهبة في إجازة، الأمر غريب بعض الشيء، على العموم أريد بعض الأشياء»، ثم استدارت بدون اهتمام كبير أو حماس وبدأت تلتقط بعض الأشياء، الطريقة الساحرة التي تثير الرغبة في الرجال، لقد أخبره بيتر بأنها مهتمة بجمالها إلى حد كبير، ذلك يبدو تماما من ذلك الوجه الرائق الذي لا يختلف عليه اثنان، مساحيق تجميل، أدوات تجميلية، صبغات مختلفة، كريمات للبشرة، بعض الأقراص المهدئة، «أقراص مهدئة؟!»، بالتأكيد من يعيش مع بيتر يحتاج لأقراص مهدئة، بل يحتاج لأقراص تدفعه للغيبوبة، كان هناك شيء يقف على طرفي شفتيها وهي تدفع الحساب، لكم كانت تود أن تدفعه خارجا، كانت تتلفت حولها من آن لآخر بعصبية،

حاولت كثيرا أن تخفي ذلك، شعر بغضب مكتوم وألم يمر بها، سؤال ثائر يريد التحرر من أعماقها، لكنه ظل يحسب لها ما ابتاعته مراقبا بطرف عينه، مرَّ برأسه العديد من الأفكار لكي يستطيع أن يفتح أي مجال للحديث معها، «يبدو أنها صديقة لك».

«من؟!».

«دكتور إيفان».

«أوه، نعم، إنها كذلك، إنها طبيبتي المفضلة وكذلك صيدليتها»، وابتسمت ابتسامة باهتة مجاملة ثم سكتت للحظات، وقالت وكأنها لا تكترث لما تقول: «ألم تترك دكتور إيفان شيئا لي؟»، نظر لها بعينين متسائلتين ومتعجبتين بعض الشيء ولم يعرف ماذا يقول فهو لا يعرف إيفان، لا يعرف الصيدلية، لا يعرف شيئا، «إنها دائما ما تضع الأمور الخاصة في هذا الدرج، ربما تركتها فيه»، وأشارت برأسها إلى أحد الأدراج في نهاية الصيدلية الكبيرة التي تحوي طرقة طويلة، ذهب تجاه الدرج بخطوات وئيدة وهو يفكر حتى وصل إليه وفتحه، وجد به كيسا صغيرًا به علبة من الدواء، إنها تشبه نفس العلبة التي رآها أكثر من مرة في يد بيتر، نعم إنها هي، تقوَّض وجهه محاولا التأكد من هذه المعلومة، أخرجها وهو يدقق النظر فيها مندهشا ومتسائلا، كان مكتوبا عليها بخط واضح «روكسانا».

23

تعجب كثيرا حينما اختطفت منه علبة الدواء وهي تحدق فيها وكأنها لم تأبه - لثانية - لعاقبة هذا الأمر، كانت حدقتاها واسعتين بشكل كبير وكأنها وجدت كنزها الضائع، ابتسمت تلك الابتسامة التي توحي بنجاح من فاز بمسعاه بعد جهد كبير، أو بعد يأس من تحقيقه، كانت ابتسامة مريحة لملامحها التي هدأت بشكل غريب، تنهدت بهدوء، وهي تضم العلبة إلى صدرها مغمضة عينيها لثانية، أحس أنها نسيت وجوده، شعر بالفضول ولكنه لم ينبس بكلمة، ظل ينظر لها متأملا، وبعد وهلة سادها التفكير: «أنت روكسانا إذن»، وابتسم ابتسامة باهتة، «الحساب 56 دولارًا»، فتحت حقيبتها وأعطته ما يريد دون أن تنظر له ثم أخرجت ورقة من فئة المائة دولار ومدت يدها له بها، نظر إلى المائة دولار في يدها ثم نظر لها متعجبا لها دون أن ينطق، عيناه متسائلتان، «إنها ثمن لعلبة الدواء هذه»، أخذ منها الورقة وهو ينظر لها متسائلا: «أعتقد أن هناك شيئا لا أفهمه، ما نوع هذا الدواء بالضبط؟!»، نظرت له نظرة مرتجلة وكأنها لا تدري ماذا تقول ثم ابتسمت ابتسامة باهتة: «إنه نوع نادر

من الدواء، بكل أسف لا أستطيع الحصول عليه بسهولة، وكما ترى إن ثمنه مبالغ فيه ولكن دكتور إيفان باعتبارها صديقتي تستطيع الحصول لي على هذا الدواء»، أيها القدر أنت تمنح روكسانا العذاب، تمنحها بيتر الشيطان، الكاهن الاستثنائي الذي لا يرسله القدر إلا لأمثالنا، ليعلمنا الكذب والتملق، ويصيبنا بالعار من أنفسنا، لنقبل الذل ونمجد العجز، ليمنحنا هبته الشيطانية، الإدمان، بالتأكيد إنها مدمنة.

جمعت حاجاتها بسرعة محاولة الخروج بأقصى سرعة دون أن تواجه ديفيد مرة أخرى، فهي لن تتحمل مزيدا من الأسئلة، «أنت مدمنة، أليس كذلك؟!»، وقفت متسمرة في مكانها وهي تحمل الأكياس بعد أن أطلق ديفيد رصاصة في العمق، تدلى كتفاها قليلا إلى أسفل، كان ظهرها له في هذه اللحظات، يبدو من ملامح وقفتها أنها أصيبت بشلل المفاجأة، لم يكن هناك مجال للتفكير في هذه اللحظات، لا تستطيع أن تسير الآن، إن دكتور باتريك ليس بهذا الغباء، وإن كان كذلك، فإنه طبيب وهذا تخصصه ويمكنه التكهن بهذا الأمر، تبا للأقراص اللعينة الفاضحة، يبدو أنني لم أستطع السيطرة على نفسي حينما تأكدت من غياب إيفان، لم أستطع السيطرة على نفسي حينما وجدت ضالتي، لمَ يا إيفان تتركينني وحيدة في عالم من الآلام؟!

«لا عليك، لم أقصد، المشكلة أن دكتور إيفان لن تعود قريبا، وهذه الأقراص القليلة لن تسعفك، هذا كل ما في الأمر».

حركت رأسها بهدوء حتى التقت عيناها بعينيه، كان مبتسما ابتسامة صافية ومريحة، كان ديفيد يعلم أنه كسب نقطة في أولى جولاته، لم يكن الأمر كما تصور حين جلس في خلواته بعد ذلك حينما اعتقد أن ما فعله في تلك اللحظة كان من أجل بيتر، من أجل الهرب، الحرية، بل كان في الحقيقة من أجل هيلدا، من أجل روكسانا، روكسانا التي تجسدت في هيئة هيلدا، إنه يشعر بالحياة تدب فيه لأول مرة، لا يعلم من أين جاءته ولكن يكفي أنه يشعر بها.

ليس للآلام صوت، لكنه يستطيع أن يستمع إليها جيدا وهي تنخر في عقل روكسانا في هذه اللحظات، فلطالما شعر بها، عاش معها، كانت جزءا منه وهو جزء منها، عانى وثار وبكى لترحمه، إنها الآلام التي تحولنا من شخصيات حرة إلى شخصيات ذليلة موصومة بالعار، كانت تجلس على كرسي في نهاية الصيدلية تنتظر كوبًا من الماء، كانت منهارة ولكنها كانت صامتة، راكدة كبحيرة خاوية حتى من الأسماك، خالية من الحياة، عاد إليها وهو يحمل ذلك الكوب في يده وأعطاه لها بهدوء، أخذته منه دون أن تنظر إليه، بعد لحظات وبعد أن ابتلعت قرصا أطرقت برأسها قليلا إلى الأرض، بينما كان واقفا في مواجهتها ينظر لها بتمعن وتأمل وقد ظهر في عينيه لمحة

من ذكريات غير مرتبة، بعد ثوان رفعت رأسها قليلا فشعر بعودة الحياة إلى وجهها، إلى عقلها ومن ثَمَّ إلى جسدها، إنه يعلم جيدا ذلك الإحساس، حينما يعوي ألم الرأس من الحسرة وهو ينسحب ببطء شديد إلى الداخل يشد أذيال مخالبه ببطء شديد كخدر يسري في الأطراف، ينسحب إلى غرفة مغلقة ومحكمة، لكنه يدري جيدا أنه سيعود من شباك مفتوح حينما يعلم بأن صاحبه تركه له طوعا، بل غصبا، إنه السجن المؤقت، التلذذ بألم الإدمان يأتي قويا، يمنح السعادة حينما يعود إلى غرفته بطيئا، إنها أجمل لحظات الإدمان.

«ألا تعلم بأنني لا أحبك، أكرهك مثلما لم أكره شخصا على الإطلاق من قبل، سافل وقذر مثلك يستحق الموت حرقا ليتعذب بنار ما أقاسيه منك، أيها اللعين لقد جعلت مني عبدة لك، حتى إيفان صديقتي الوهمية تساعدك في ذلك، أنت مريض يا حبيبي، ألا تفهم ذلك؟! أنت مريض».

ارتبك وهو يسمع ذلك الوابل من السباب، العصبية التي أصيبت بها روكسانا فجأة والقوة الصادرة من حركات يديها المنفعلة بشدة وهي تنهض من مجلسها، كان صوتها صارخا رغم رقته، وهي تبكي مع نهاية كلماتها، حتى حين تحشرج كان أشد رقة، شعر بوميض قوي يأتي فجأة ليغلق عينيه عنوة، إنه ألم مباغت، كمعانقة الشمس الحارقة للعينين بغتة بعد غياب طويل داخل غرفة مظلمة، عاودته

مرة أخرى تلك الذكريات الغريبة، هيلدا وهي تلوح بيديها غاضبة، تبكي منهارة، تسترسل كلماتها بصعوبة، شعر بوميض الشمس مرة أخرى يحرق عينيه وصوت القذائف يعلو، رائحة كريهة تبث حبرها في أنفه، الفستان الأسود لروكسانا يتراقص أمام عينيه من فعل الرياح التي اقتحمت الصيدلية فجأة، تذكر هيلدا بفستانها المتطابق مع ذلك الأسود أمامه ولكن في حفلة كبيرة في أحد الفنادق وهما يتراقصان، لم تكن تريد الرقص، ولكنها كانت مجبرة للرقص معه، هكذا بدا الأمر له.

صحا من ذلك كله على صوت روكسانا وهي تبكي، ثم فجأة توقفت ونظرت له نظرة طويلة متأملة وللحظة بدت نظرة ضائعة، نظرة ذلك المستيقظ فجأة من غفلة طويلة، نظرة من فعل شيئا لم يدركه، حاولت أن تهرب تجاه الباب، فرك جبهته وكأنه يستثير شفقة الألم ليعود إلى غرفته البعيدة المظلمة، أمسكها من ذراعها: «قابليني اليوم في مطعم البازيل، في الساعة السابعة مساء، سأكون في انتظارك».

اندهشت قليلا ونظرت له نظرة متعجبة، كان وجهها ملاصقا لوجهه، تستطيع أن تشم أنفاسه الدافئة وهي تحوم بوجهها، مالت برأسها قليلا إلى الأرض، رفعت رأسها ثانية ونظرت له مستسلمة، كانت هناك ملامح أفكار تدور في عينيها في شكل دوائر غير منتظمة،

مرتجلة للغاية، وسرعان ما خرجت سريعا بعد أن ألقت عليه نظرة طويلة تحمل العديد من المعاني.

وقف ديفيد متنهدا تنهيدة طويلة، أخرج قرصا مما أعطاه له بيتر وبلعه دون ماء، كان وجهه شاحبا، الذكريات تحاول المرور إليه، وفجأة ظهر أحدهم على الباب بعيدا، رغم أن الجو كان قاتما ملغما بالسحب إلا أنه في هذه اللحظات رآه كمن يقف في هالة قوية من النور، كملاك قادم من مدينة النور في السماء، هل أتت الملائكة لنصرته؟! ملاكي، أنقذني، ولكنه لوهلة علم تماما أنه تأثير القرص الذي أتى سريعا، الهالة البيضاء المزيفة، ولكن بالتأكيد هناك من يقف..

يقف عند المدخل..

24

دخل ديفيد سريعا إلى الغرفة الخاصة الملحقة بتحضير الأدوية وبعض المواد المخزنة الملحقة بالصيدلية، كان يلهث بشكل كبير، يداه ترتعشان، قلبه يدق بسرعة ويكاد يقف، إنه توني جونز ابن عمه البالغ من العمر 45 عاما، إن ديفيد يكرهه كثيرا رغم أن العلاقة كانت بينهما هشة، ماذا سيحدث إن تعرف عليه؟! إنه الملاك المزعوم، الرؤية غير الواضحة من تأثير الأقراص اللعينة، لم يكن المنقذ، إنها اليد التي سترسله بالتأكيد للكرسي الكهربائي، حاول ديفيد كثيرا أن يجمع أفكاره، إنه ينادي في الخارج من يساعده، ألا يوجد في تلك الصيدلية الكبيرة سوى طبيب واحد؟! اللعنة، أنا لم أقتل هيلدا، أنا لم أفعل شيئا، كنت على وشك الخروج اليوم للتأكد من الأمر، ولكن تلك الملصقات اللعينة التي تملأ المدينة، الرجل العجوز الذي تعرف عليَّ، ديفيد بحق الله اهدأ، أنت الآن باتريك بلامر، تملك ملامح لا يملكها ديفيد، طبيب صيدلي يعمل في صيدلية كارسون، أخذ نفسا عميقا ثم اتجه إلى الخارج وهو يرسم ابتسامة متوترة للغاية، لم يحاول النظر في عيني توني جونز،

نظر له توني جونز نظرات متشككة ثم طلب منه أحد الأدوية التي تقاوم الصداع دون أن يسحب نظراته الأخيرة، «يمكنني أن أعطيك دواء يقتل الصداع، بل يقتلك ويجعلك ذليلا إن أردت»، لم يقل ديفيد ذلك ولكنه كان يتمنى، ذهب لإحضار الدواء وبعد دقيقة كان خلالها ديفيد يفكر في كيفية الفرار حينما تحدث العاقبة، حينما يتعرف توني جونز عليه، لم يكن يستطيع التفكير في شيء آخر، ما زالت يداه ترتجفان، ولكن أقل قليلا من ذي قبل، طرأت فجأة فكرة غريبة على رأسه، أتت من الخوف، أتت من الشك، لم يكن يعلم تحديدا من أين أتت، اقترب منه وأعطاه الدواء بينما كان توني جونز مصرًّا على نظرته المتشككة «إنك تشبه قريبًا لي، تشبهه كثيرًا إن سألتني عن رأيي».

«أظن أن هذا شيء جيد، أليس كذلك؟!» - رد ديفيد محاولا تجاهله وإظهار اللامبالاة.

نظر توني جونز للدواء دون أن يجيب إلا بعد لحظات من الصمت قتلت ديفيد «لا أظن أنه أمر جيد، اعذرني أنا لا أقصد الإهانة دكتور... أوه دكتور باتريك، إنك تحمل اسم ولدي الوحيد، باركه الله، من تشبهه أنت هارب منذ فترة، العدالة تطارده في كل مكان، هل سمعت عن الطبيب الذي قتل زوجته بتسع رصاصات.. لا نعلم حقيقة ما حدث بالضبط، كان يبدو مريبا، ولكنني لا أعرف

الحقيقة بالتحديد، من غير المعقول أن تقتل لمجرد أنك مصاب بالريبة، أليس كذلك؟!.. لا أعلم حقا، ولا أحد يعلم سر ما حدث، فلقد كان يحبها حبا جنونيا وتفاجأنا جميعا بخبر مقتلها على يديه»، أطرق برأسه حزينا ثم قال: «لقد كنت أحبه رغم كرهه لي.. لا أعلم، ربما أن ما حدث له خلال حياته كان كفيلا بأن ينهيه على هذه الشاكلة، ربما يكرهني لأن والدي رفض تبنيه، أو ربما بسبب أن لا أحد كان يحب والده فرفضوا ابنه، أنت تعلم أن هجر الأب للولد يصيبه بإصابات نفسية بالغة».

كان ديفيد يتلقى كلماته بشعورين مختلفين، غضب ملفع بالحزن، شعر أيضا بوخز في ضميره، لمْ يعلم لمَ شعر بهذين الإحساسين! هل يأتي من تأنيب الإنسان لنفسه حينما يكتشف مدى خطئه؟! لكنه أقر أيضا بأنه لم يكن مخطئا، كان العند والتهكم في الحقيقة هما قائداه في هذه اللحظات الحرجة، «أنا آسف، إنني أشفق عليه، يبدو أنه حادث مروع ولكنني لم أسمع به، فلقد كنت خارج المدينة لفترة طويلة».

تأمله توني جونز قليلا «أشكرك على كل حال»، وأعطاه الحساب، وحين مغادرته وقف على عتبة الباب والتفت لديفيد مرة أخرى ثم ناداه «دكتور باتريك».

«نعم».

«إن الأمور التي تدفعنا للخوف، هي نفسها الأمور التي تدفعنا للحياة».

وغادر تماما...

وقف ديفيد في هذه اللحظات يفكر فيما قاله توني جونز، الجملة الأخيرة كانت غريبة للغاية، لم يفهمها رغم تفكيره فيها الآن وفي فترات لاحقة، لم يرَ سببا لها، ولكنه أيقن بأن القدر يلعب معه اللعبة الكبيرة، المؤامرة، فهو يدرك جيدا أن تحديه هو مؤامرة مشينة لن تعود عليه بشيء تماما، آخر يقر بجرمه، آخر يؤكد له تعاسته وبؤسه، تبا لك أيتها الذاكرة اللعينة، أخبريني بدمويتي مع العالم، ولكن لا تقولي لي بأنني كنت دمويا مع هيلدا، لن أصدقكم، وقرر في نفسه شيئا، كان عليه الانتظار، تذكر كلمات بيتر له في هذه اللحظات، «إنني أراقبك حيثما كنت وأينما ذهبت»، تنهد تنهيدة قوية مفعمة بالمرارة والضجر، شعر بأن ديفيد قد عاد إليه مرة أخرى، العقل الذكي والمرتب، ما مر به خلال ساعات قليلة كان كفيلا بأن يأخذه إلى نفسه الضائعة، إلى تلك البؤرة التي تلفعت بالخوف والذل، أوه، يا لمصيبتي، كيف لم أسأل روكسانا عن اسم المخدر التي تتناوله؟! بالتأكيد كان سيفيدني الأمر كثيرا، لا بأس، فبيننا لقاء في الساعة السابعة مساء، تعجب ديفيد من ردة فعله معها

وكيف كان جريئا بهذا الشكل، «قابليني في البازيل»، أعاد تلك الجملة مرارا في رأسه وكأنه يحللها، لم يكن طلبا بل كان أمرا، هل لأنها ضعيفة تتوسل للإدمان والكاهن الاستثنائي لا يعطيها إلا على طريقته التي يستطيع من خلالها التحكم بها؟! إنه يعلم بيتر جيدا، الأيام السابقة كانت كفيلة بذلك، شعر بوميض آخر قوي يجتاح رأسه، لكنه فرك جبهته بقوة مفكرا، لم يكن الأمر في جوفه موجها لروكسانا، بالفعل كان أمرا مختلفا ومذاقه غريبا، شعر بوجع غريب داخلي لا يعرف مصدره، بل شعر بأن ما فعله لم يفعله إلا مع هيلدا، تذكر اللوحة في غرفته، شرد بعيدا، الثعلب، إنه آت من بعيد يجري تجاهه، يبتسم تلك الابتسامة الرهيبة الماكرة، أغمض عينيه في هذه اللحظات، شعر بألم في ساقه، لم يتنبه له إلا على صوت أحد الزبائن، أزاح نفسه من أمام اللوحة، وأدار ظهره للثعلب، عاد مرة أخرى إلى عالم الحقيقة البغيض، منتظرا، منتظرا الساعة السابعة.

مطعم البازيل...

25

أغلق الصيدلية، كانت السماء تنذر، تزأر، وأحيانا تعوي، لم يكن البرق في هذه اللحظات سوى عيني وحش يرسل غضبا بنظراته النافذة على الأرض، لف جسده بالمعطف وهو يلقي نظرة تملأها الريبة ولكن يشوبها التفكير، انطلق في طريقه جنوبا مرورا بكازينو «ناجت» Nugget Casino، وقف أمامه لبرهة قصيرة وهو يحدق في الأضواء التي تزين واجهته العريضة، كان يستطيع أن يسمع الصخب الصادر من داخل المكان، القهقهات، زجاجات الشامبانيا التي تتقاذف سداداتها كأنها رصاصات، فتيات الليل بألوانهن المختلفة، تعجب قليلا في نفسه، إنه يرى أشياء مختلفة لكنها غير واضحة، ليست أمامه الآن ولكنها هناك في ذاكرته، في ذلك الجزء المهترئ.

كان سؤال واحد ينتزعه من كل ذلك، بل انتزعه من نفسه في هذه الدقائق القليلة، لقد فضل السير رغم استحالة ذلك في هذا الجو البغيض، علم لاحقا أنه كان يحتاج لمساحة من التفكير، لشيء من الوحدة الاختيارية، ألا يشعر بأنه مرغم على فعل شيء،

أن يفعل شيئا يرغب فيه حتى وإن كان بلا معنى أو فائدة، ورغم كل ذلك وفي نفسه كان يعلم أن بيتر هناك في مكان ما، وهذا الأمر جعله يشعر بلذة غريبة بتصرفه هذا.

«هل ستأتي روكسانا؟!».

وصل إلى الناصية التي يقع فيها مطعم البازيل، نظر يمينا ويسارا حيث كان شارع تلغراف «Telegragh St» المتقاطع مع شارع كارسون ممتدا ينظر إليه في هدوء، شعر بأن الشارع يناديه من الناحية الشرقية، فإن منزله الذي جمعه بالإنسانة الوحيدة التي أحبها - هيلدا - يقع هناك، شارع والاش «Walash St» الفرعي، أخذ نفسا عميقا وزفر فوجا من البخار، نظر يمنة ويسرة مرة أخرى ولكن دون رجوع إلى الخلف، إلى الذكريات، وإنما مراقبة لما يجري، مر أحدهم فجأة من أمامه، ظهر كشبح وهو يظلل رأسه بمعطف في محاولة يائسة لتفادي المطر، تعلقت به عيناه دون وعي أو إرادة منه ثم اختفى ذاك الرجل داخل المطعم، لم يدر ديفيد لم أصيب بالجمود في هذه اللحظات، ذلك الشخص، لا يعلم! شيء فيه يذكره بشيء عالق بين أشباه ذكريات أخرى، شيء يمنعه من النفاذ، يمنع عنه الحقيقة، يحجب عنه اليقين.

«هل ستأتي روكسانا؟!».

أنقذه هذا السؤال من جموده، ثم سرعان ما نظر إلى ساعته فوجدها تدق السابعة إلا خمس دقائق، لم يأخذ الطريق من الصيدلية إلى المطعم سوى ربع ساعة سيرا، كان يجلس على طاولة في أحد الأركان، لا يستطيع أن يراه إلا فئة قليلة من الجالسين، كان يتوق بشدة لأن يوجه ظهره لجميع الموجودين، ولكن كيف سيرى روكسانا حين دلوفها المطعم؟! كان يرى الأمور في هذه اللحظات بعين واحدة، العين الأخرى كفيفة، حجبت بشريطة سوداء، مفقوءة ولا يدري، يدرك تماما أنه لا يرى الحقيقة ما دام جزء منها مطموسا، كان في مواجهته في هذه اللحظات، يدقق النظر فيه بشكل مريب يبعث على الرعب، شرطي بزيه الرسمي يتفقد المكان، لا يذكر أن ذلك حدث أبدا قبل ذلك، أن شرطيا يدخل إلى البازيل لتفقد الأمر، ربما حدث خلال ثمانية أشهر مضت، ربما، تخيل نفسه يجلس على تلك المنصة، على يساره هيئة المحلفين، ديفيد جونز مذنب، نحن آسفون للغاية ولكن علينا إرسالك إلى الجحيم، حاول كبح جماح خوفه، سرت رعدة قوية منفرة في جسده كاملا، أرقه، وعرقه الذي شرع في التصبب، جزء منه لا يعلم كيف صمد، جزء آخر انتشله من الضياع، أتى به من على المنصة هناك، فابتسم ابتسامة تكاد أن تكون صادقة وهو ينظر إلى ذلك الشرطي الماثل أمامه.

«ليلة طويلة ورهيبة أيضا، أتأسف لمقاطعة خلوتك ولكن كما ترى نحن نبحث عن مجرم فار، وقد استطاع الهرب منا ونبحث في كل الأماكن المتاحة، ألم تر شخصا بهذه المواصفات؟»، وأعطاه صورة، دقق النظر فيها، إنه نفس الشخص الذي دلف إلى المطعم منذ قليل، إنه هو، كادت الكلمات تخرج منه وقد تهلل وجهه بأنه ليس المطلوب وليس لمعرفته بهوية المجرم ورؤيته له قبل دقائق معدودة، ولكن هذا ليس كل شيء، في الحقيقة هو ما زال هناك، يجلس على المنصة، في انتظار هيئة المحلفين، أملا في ألا يرسلوه إلى الكرسي الكهربائي، ألا يرسلوه إلى الجحيم، فكر في نفسه، لا لن أخوض تلك التجربة، فربما سيطلبونني في قسم الشرطة وتبدأ النهاية سريعا، ولكن ليست هذه البداية التي ينتظرها ديفيد لوضع نهايته، ليس الآن، «أنا آسف، لم أرَ شخصا بهذه المواصفات»، انصرف الشرطي ولكن لم تنصرف نظراته، والرعب الذي تسبب فيه لقلب ديفيد جونز الذي ظل متوترا مرتجفا في مقعده، ملتويا رغم الكرسي المريح الذي يجلس عليه، كان بقرب زجاج المطعم المواجه للشارع، نظر حوله نظرة عشوائية لم يقصدها تعكس توتره، لم تكن الرؤية واضحة من المطر ولكن لم يكن صعبا رؤية بعض المشاهد المبللة.

«هل ستأتي روكسانا؟!».

مرة أخرى دقق النظر في الخارج وهو يرى أضواء سيارات الشرطة التي احتشدت في المكان تعوي لتصنع مقطوعة موسيقية مخيفة مع هدير الرعد الذي لا يتوقف، تعجب ديفيد كثيرا، المطعم شبه مكتظ بالزبائن في هذا الجو الرهيب، ولكن لا بأس، وجودهم يمنحه جزءًا من الراحة، شعر بانتماء إليهم، تكسرت كل هواجسه عن البشر، مخاوفه، مقته، نبذه لهم، للحظات شعر بذلك ورغم علمه بأن ذلك لن يستمر كثيرًا إلا أنه كان كافيا له في الوقت الحاضر.

نظر إلى الساعة مرة ثانية «الثامنة إلا الربع»، شعر بأرق كبير، ريبة، خوف، لا، ليس كل ذلك، بل شعر بالموت يأتيه ثقيلا متبلدا، ينفخ حممًا من الجحيم.

«بيتر اللعين، لقد علم كل شيء، بيتر الخبيث، لقد انهارت أمامه، لقد أخبرته بكل شيء، الإدمان، دكتور باتريك، الساعة السابعة، البازيل».

أوقف أفكاره قائلا بصوت شبه مسموع: «توقف يا ديفيد» ثم فكر مرة أخرى بعد أن تأكد أن لا أحد يلاحظه، إنه يعلم أنك تسعى لكل ذلك، يعلم جيدا، بالتأكيد إنه في مكان ما هنا، نظر حوله بدقة وارتباك، وجد النادل أمامه فجأة، طلب شرائح لحم مشوي على الفحم مع المعكرونة الإيطالية، إنه أشهى ما يقدمه هذا المطعم، طلبه دون أن ينظر في قائمة الطعام، انصرف النادل وانصرفت معه هواجس ديفيد، لم تنصرف جميعها في الحقيقة، فقد كان خائفا من

أن يكون مكروه قد وقع بروكسانا، رغم علمه بأنه لو وقع مكروه لانتهى كل شيء، لانتهى الأسبوع في اليوم الأول، لنفض نفسه من فوق الكرسي الكهربائي وهو ينهض مبتسما، لاحتضن جميع الحضور في المحكمة فرحا بخروجه من هذا المأزق البشع، لفرح بهربه من الجحيم، من الجريمة التي لا يعلم عنها شيئا.

ساد هدوء غريب في نفسه وهو يحوم بنظره متناولا طعامه بدون رغبة، كان يفكر، لمح رجلًا وامرأة في مقتبل الثلاثينيات على طاولة مجاورة، كان يمكنه أن يسمع ما يدور جيدا، كان نقاشا حادا، همس حاد، تلك الأحاديث الجانبية التي يخرج من خلالها الغضب ولكن في أماكن عامة، المحاولة اليائسة لعدم إشراك المجتمع في تفاصيل حياتك، محاولة يائسة للغاية لا تؤتي ثمارها.

«وهل تتوقعين أن أصدق كل ذلك؟! إنك ومايكل مشتركان في كل ذلك، كفاكِ استخفافا بقلبي».

«أرجوك، أنت تتحدث بصبيانية مبالغة، إنك تتحول لمجنون، استمع إلى نفسك وستجد الحقيقة».

اختفى صوتهما فجأة عن أذني ديفيد، ذهب إلى طاولة مشابهة لنفس المطعم في جزء من ذكرياته، شعر بصداع أليم يجتاح رأسه، آلام لم تنذر بوقوعها، كذلك الرعد الذي يزأر فجأة ورغم توقعنا له مرة أخرى في لحظة معينة إلا أنه يأتي فجأة قبل الشعور حتى بتلك الفكرة المخيفة، دس يده في جيبه ولكنه لم يجد شيئا،

لم يجد الأقراص اللعينة، شرب بعض الماء، ولكن هذا لن يغير شيئا، يعلم ذلك تماما، ولكنها الرغبة في الهرب من الألم بفعل أي شيء، أي شيء.

«روبرت، أترى ما حل بي؟!».

كان صامتا وهو يجلس أمامه، لم يتحرك، ساكنا، يبتسم تلك الابتسامة الهادئة، «لماذا لا تساعدني؟! وكيف تعرف مكاني؟! روبرت، هناك مجنون يستغلني، أعتقد أنه هو من دفعني إلى الهاوية»، ثم همس بهدوء: «إنه مجنون يا روبرت، لقد أصبحت مدمنا بفضله، ساعدني».

لم تفارق الابتسامة وجه روبرت وانصرف، ولكنه قبل أن يغادر قال بهدوء: «ديفيد، إن الله يساعد فقط من يساعدون أنفسهم».

شعر بدوار فظيع، بركلات قوية في رأسه، لن تأتي روكسانا ولن يستطيع الانتظار أكثر من ذلك، طلب الحساب بسرعة، وانطلق خارج المطعم، كانت سيارات الشرطة قد اختفت تماما، ولكن الرعد لم يختفِ، البرق ما زال يحدق في الأرض بنظرات غاضبة متوعدا أن يحرقها، فجأة أتته قبضة قوية طرحته أرضا، تأوه، ارتعد، نظر بعينين جاحظتين، فرأى نفس الشاب الذي كانت تبحث عنه الشرطة ينظر له بغضب واحتقار ثم صاح فيه: «إما أن تكون مجرما مثلي، أو جبانا، وأنا أكره الجبناء»، ثم ركله بقدمه ركلة قوية في جانبه وانطلق يعدو في طريقه.

تأوه بشدة ثم نظر إلى ذلك الشاب وهو يختفي وسط الظلام المبلل، مرت برأسه ذكريات قريبة، إن الله يساعد فقط من يساعدون أنفسهم، المجرم يكره الجبناء، لا يمكن أن يكون القدر قاسيا إلى هذه الدرجة، انسحبت معالم الحياة من وجهه، لم يكن يبكي، بل كان مبللا متسخا، دامع العينين، متألما، يسير ببطء مترنحا تحت المطر الغزير، تمنى لو أن يجد تاكسي ولكن بات الأمر مستحيلا مع تصاعد الغضب في السماء، ولكنها أنوار سيارة آتية، تأتي بسرعة تجاهه، إضاءة كشافات السيارة أظلمت عينيه، تقترب، لم يحاول الابتعاد، قرر فجأة أن تكون تلك هي النهاية، جزء خفي فيه ظهر فجأة وقرر ذلك، سيطر عليه، الآلام الناتجة عن ضربه تؤلمه بشدة، آلام رأسه تؤلمه بشدة، ذلك السائق لن يلومه أحد، الجو رهيب ومخيف، سينال البراءة بسبب عدم القدرة على الرؤية، سيدفع كفالة بخسة، سيكمل حياته بلا أدنى تأنيب للضمير، سيرتاح ديفيد، سيرتاح للأبد.

تبا لكم جميعا، تبا لك يا بيتر وتبا لك يا روبرت، تبا للكرسي الكهربائي..

السيارة ما زالت تقترب...

أنا أكره الجبناء....

26

مكابح السيارة كان لها صوت رهيب وهي تقف في مواجهة ديفيد، الإضاءة الساطعة من كشافاتها ما زالت مسيطرة على عينيه ولكنهما لم تكونا مفتوحتين، بل كانتا مغمضتين، الظلام الأخير ما كان ينتظره، الظلام الأبدي، ولكنه لم يأتِ، لم يشعر بجسده وهو يتطاير في الهواء، لم يحدث الارتطام الأخير، سيكون محظوظا إن مات قبل أن يتهاوى بقوة محدثا ذلك الصوت المكتوم على الأرضية المشبعة بماء الأمطار والدماء أيضا، سيرى هيلدا وهو يدور في الهواء مبتسمة في انتظاره، للأسف لم يحدث أي شيء من هذا، فتح عينيه بهدوء مرتجفا بعنف بينما الأمطار في هذه اللحظات كانت أشد وقعا من ذي قبل، نظر إلى داخل السيارة محاولا استخدام كف يده اليمنى ليظلل بها عينيه في محاولة يائسة لاكتشاف سائقها، يقف في مواجهته تماما، ترجل بيتر من السيارة بسرعة محاولا تفادي المطر وهو ينظر إليه نظرات ثاقبة «هل أنت مجنون؟! ادخل بسرعة، ستصاب بالحمى، ادخل بسرعة»، حينما اكتشف ديفيد هويته أطرق برأسه إلى الأرض، كان مبللا بشدة، ملابسه تمطر هي

الأخرى على الأرض، «ادخل بسرعة، ستموت هنا»، ثم كررها بغضب مرات أخرى بعد نفاد صبره: «ألا تسمعني؟! قلت لك ادخل إلى السيارة بسرعة»، العديد من الأفكار كانت تجوب برأس ديفيد في هذه اللحظات ولكن جميعها كانت أفكارا يائسة، كان يدمدم هامسا، لا يشعر بالمطر، لا يسمع هدير الرعد: «أنا أكره الجبناء»، همس بها لنفسه مرات عديدة بمرارة غريبة ثم صاح بحدة، بنبرة حزينة يائسة: «ألا تفهم يا بيتر؟! أريد أن أموت، ما الغرض من كل ذلك؟! قل لي يا صديقي المزعوم، ما الغرض من كل ذلك؟! إن كنت تريد أن تقتلني فافعل ذلك ولن يلومك أحد، لقد توقفت هنا ولن أكمل، ما الغاية من أن أكمل في مكان آخر بهوية أخرى؟! ما الغرض من العيش وحيدا؟!»، صمت قليلا حيث شرع في البكاء، ثم أكمل وهو يأخذ نفسه بصعوبة بالغة: «إنك لا تعرف معنى أن تكون وحيدا، لا تعرف شيئا، صدقني»، نظر له بيتر ثم قال وهو يصيح: «إن لحظاتنا اليائسة هي اللحظات التي نسلم فيها أنفسنا إلى الشيطان، عليك أن تعلم أنني أكترث لك كثيرا ولكن أنا أعلم جيدا من تكون، أمامك اختيارات عديدة، أن تمشي من هنا وأنت تعلم النتيجة، أو أن تذهب وتلقي نفسك من فوق مبنى عالٍ، وينتهي كل شيء، أو أن تركب معي الآن وتطرد لحظاتك اليائسة، أيام وينقضي كل شيء، أكمل حتى النهاية، أظن أنك لن تتعذب بقدر ما تعذبت إن كان ذلك ظنك».

رفع ديفيد رأسه بعد أن كان مطرقا للأرض في هذه اللحظات، يرتعش بشدة، منصتا لصوت بيتر الصائح، كان هناك بعض الأفراد الذين يتابعون المشهد من بعيد في هذه اللحظات، مشى ديفيد خطوات بطيئة تجاه السيارة دون أن يرفع رأسه، يجر قدمه مستخدما مجهودا كبيرا، متألما، رفع رأسه وهو ينظر إلى بيتر نظرات يائس مفعمة بالألم والمرارة، ثم ركب السيارة ونظر أمامه وقد كانت ملامحه في هذه اللحظات جامدة كالموت، ابتسم بيتر ابتسامة صادقة ثم ركب بجواره ولم ينبس بكلمة وانطلقا في طريقهما، لم يكن ديفيد جونز يفكر في أي شيء، كان هناك شيء واحد يتردد في مخيلته، صورة روكسانا حينما أخرجها من ذلك الدرج، وجملة واحدة تتكرر في عقله.

«إن الله يساعد فقط من يساعدون أنفسهم».

27

الرغبة الحقيقية في المواجهة تأتي حينما نريد ذلك بشدة، تأتي كرصاصة طازجة من فوهة بندقية ألمانية الصنع، لا تخطئ مسعاها، فمن الإرادة يستيقظ الضمير أو يموت ولكن مع الحقيقة لا بد أن يظل كل جزء يقظا، كانت تلك هي الفكرة الأولى التي دارت في عقل ديفيد حينما شرع في الكتابة، كان يدخن بهدوء بعد أن تناول قرصين من أصل خمسة أقراص أعطاها له بيتر، كان يعلم أن هذا الكرم يخفي خلفه شيئا، ولكن لم يبالِ كثيرا في الوقت الحاضر، رغم أن شيئا في داخله أخبره بأن بيتر كشخص غير طبيعي لا يبدر منه أفعال حسنة إلا لأغراض دنيئة قذرة وأنانية أيضا، إلا أن جزءا في داخله كان يبعثه على البعد تماما عن هذه الفكرة، لا يعلم كيف توصل هذا الجزء إلى صدع فكره المكون عن شخصية كبيتر إلا أنه حدث، كالحب الذي يأتي بغتة ودون سبب، فقد نعتقد أن من نحبهم ملائكة ولكن الحقيقة أننا لا نحب سوى شياطين ارتدوا قناع الحب، والحب يغير كل شيء.

كان هناك فكرة حبيسة خرجت إلى النور فجأة حينما كان يستحم، فكرة قد تبدو خبيثة ولكنه رأى أنها الأنسب، فإن فكرة الكتابة قد تساعده على توثيق ما يحدث بينه وبين نفسه، ليس خوفا من أن ينسى، فكيف ينسى هذا الجحيم حتى لو اصطدم ألف مرة بجدار خرساني؟! ولكنه رأى أن هناك أشياء عليه أن يراها بعين قد تبدو واضحة أكثر، على ورقات بيضاء، فقسَّم الأوراق إلى نصفين، حقيقة سيكتبها لبيتر كما طلب وذلك لانعدام ثقة الأخير فيه، بعد محاولة الهرب الفاشلة، والورقة الأخرى لتكون له، في حين أنه رأى أيضا أنه يحتاج لرسم مخطط بعد أن لمعت عينه وهو يتذكر مطعم البازيل والشاب الذي ركله.

أنا لا أحب الجبناء..

احتاج ديفيد لورقات يثبت فيها أنه مظلوم، ليجمع أفكاره، ليحلل، ليرى من نافذة أخرى لم يكن يراها، وبعد كل تلك الأفكار آمن بأن هناك بصيصا من الأمل يلوح له في الأفق.

اليوم الأول

الورقة الأولى

بيتر سميث

إن البدايات دائما هي الأصعب ولكن لم أكن أعرف أن ما سيأتي سيكون على هذا المنوال، فلقد قابلت روكسانا، إنها سيدة جميلة ولك الحق في أن تصارع لتعرف الحقيقة كي لا تقع في عالم المجهول، لك كل الحرية في أن تخشى أن تمسك بسكين لتطعن تلك الرقة المتناهية، فالأزهار النادرة لا تعود للحياة بعد موتها، والندم عليها يكون شديدا وغير مفيد، لن أوجه لك نصائح، فيبدو أنني الشخص الوحيد الذي يحتاج إليها، لقد ابتاعت بعض الأشياء، فلقد كنت محقا بشأن اهتمامها بجمالها المبالغ فيه إن صح القول، دارت بيننا محادثة طويلة، كانت مرتبكة أو يائسة لو سألتني عن رأيي، حاولت مواساتها بعد أن أقنعتها بأنني صديق لصديقتها دكتور إيفان وعليها أن تثق بي، ولكن كما تعلم، إنها لم تأتِ، لا تلمني ولكنني سأستطيع أن أقابلها في أقرب فرصة لأصل إلى تلك الحقيقة المجهولة، التي وضعتنا معًا في هذا المأزق، لا ألومك يا بيتر، فإن الجمال قد يودي بصاحبه إلى الجنون، أو إلى الهلاك.

ديفيد جونز

2011 / 12 / 25

اليوم الأول

الورقة الأولى الخفية

ديفيد جونز

إن الأمور تكاد تكون مختلطة على نفسي للغاية، أنا مطالب بجريمة لم أقترفها وربما فعلت، وهذا الهاجس الأخير مستحيل تصديقه ولكنني حقا لا أعلم، لكن مع عودتي لذاكرتي اللعينة أستطيع أن أكتشف أنني لم أفعل ذلك، فإن ثمانية أشهر لن تغير من حقيقتي، أعلم أنني كنت أعاني على طول حياتي من التجارب اليائسة التي خضتها ولكن كل شيء توقف حينما التقيت بـ «هيلدا»، أشعر بالأسف لما يجري، أشعر بأن هناك مطرقة دائما في الانتظار لتدق رأسي، فكرت كثيرا في الهرب، الهرب، من ماذا؟! إن هربي لن يكون حلًّا لما أنا فيه، أنا أعرف ذلك جيدا، لكن علي أن أثبت أنني لم أقترف شيئا، تلك الكلمات المبتورة التي تحيرني.

«إن الله يساعد فقط من يساعدون أنفسهم».

روبرت صديقي، أو بالأحرى من وثقت به خلال الفترة السابقة رغم أنني لم أتعامل بشكل أو بآخر مع العالم الخارجي، ولكن كان عليَّ أن أملك شيئا، أتذكر جيدا حينما أنقذني من الموت خلال الحرب وهذا ما يدفعني للتعجب كثيرا من صمته، من معرفته لمكاني أينما ذهبت، ربما هي الصدفة، فهو يعلم جيدا أين أقطن!

ولكن عليه أن يساعدني، لماذا يتركني وحيدا في هذا العالم؟! هل يصدقهم؟! هل يصدق بأنني قتلت هيلدا؟! هناك أشباه ذكريات تحوم حولي! لا أستطيع أن أكوّن رؤية كاملة عنها، شجار عنيف أراه دائما يدب بيني وبين هيلدا، أتذكر جيدا ذلك الشجار، أتذكر فقط تلك الإشارات، رؤيتي لروبرت وهو حزين حينما تركته في المستشفى الخاص، كنت جامدا في ذلك اليوم ولكن لا أعلم سبب ضيقي منه إلى هذه الدرجة، لا أستطيع التذكر على الإطلاق، لماذا تأتي تلك الذكريات السخيفة في وقت أحتاج فيه لذكريات أخرى تساعدني على معرفة الحقيقة؟ عليَّ أن أساعد نفسي ولكن كيف؟!

أنا أكره الجبناء..

نعم عليَّ أن أتحلى ببعض الشجاعة، عليَّ أن أعترف الآن أنني كنت مخطئا حينما اعتقدت أن الأهل يكرهونني ولكن ظهر ابن عمي، توني جونز فجأة في منطقة لا يمكن أن يظهر فيها على هذه الصورة، لا يمكن على الإطلاق! ليخبرني بحقيقة صارخة جعلت مني شيئا يؤنبني ولكن تبا لهم جميعا، لقد كنت دائما هناك ولكنهم لم يرهقوا أنفسهم في إعلان تلك الفكرة لي، أتساءل كثيرا عن حالي إن كنت عرفت تلك الحقيقة منذ فترة، عما سيكون إحساسي أو ردة فعلي، هراااء، كله هراااء، أعتقد أنه من الأفضل ألا أعرف الآن، فالوقت متأخر للغاية.

روكسانا..

أخاف كثيرًا أن يكتشف بيتر ما حدث، أخاف بشدة، إنها تبحث عن أقراص الإدمان في الخارج، وهو بالتأكيد لا يعرف ذلك، فلو كان يعرف، فخمسة أقراص ملعونة كافية لترسلها إلى السماء، أعلم أنه لن يتوانى عن فعل ذلك، أشفق عليها كثيرا. إن بيتر مجنون، مجنون بشدة، جعلها مدمنة ليتمكن منها، لتصبح ملكا له، إن شاء أبقى عليها وإن شاء تخلص منها، ولكنه لا يفرط بتلك السهولة في جوهرة ثمينة كروكسانا، لا، فلقد أصبح هو الآخر مدمنا لها، وإن الخروج من هذا المأزق لن يكون سوى بالموت، بالموت لا محالة.

شعر ديفيد بومضة قوية، رأى هالات قوية من النور تحجب الرؤية عن عينيه، آلام متفاقمة، ذكريات كريهة، هيلدا تلوح بيديها، روبرت يسير حزينا مطأطأ الرأس، إن هيلدا تكاد تصرخ، صمت روبرت في كل مرة يحضر فيها إليه كان كفيلا بأن يجعله يبكي في هذه اللحظات.

توقف عن الكتابة وهو يحكم إغلاق عينيه، يفرك رأسه بقوة مستخدما كفيه، كادت الآه تصدر منه عالية، بعد ثوانٍ معدودة استطاع بصعوبة تامة أن يكتب في النهاية..

ديفيد جونز..

25 / 12/ 2011

28

إن النظر بعمق إلى الواقع يمنحنا الألم قبل أن يمنحنا الحقيقة.

29

كان عليه أن يجتاز شارع كارسون «Carson St» جنوبا حتى يصل إلى المنعطف الذي يؤدي به إلى شارع تلجراف «Telegragh St»، اتجه إلى الجانب الشرقي منه، أخذ منه ذلك ما لا يقل عن 45 دقيقة، رغم أن هذه المسافة لا تتطلب كل هذا الوقت، كان يمكنه أن يركب سيارة أجرة «تاكسي» ولكنه لم يفعل ذلك، ليس خوفا من أن يكتشفه أحد ولكن كان يحتاج للسير ليمنح نفسه مساحة أكبر من التفكير، فإن الغرفة أصبحت في نظره مجرد مقبرة، والموتى لا يفكرون، وصل إلى التقاطع الثاني من شارع تلجراف، وقف طويلا يفكر، دس يديه في جيوب سترته، كانت الساعة في هذا التوقيت تشير إلى الثامنة مساء، لم يكن الجو بهذا السوء، بل كان منعشًا باردا، ولكنه حين نظر إلى السماء علم بيقين كامل أن الأمور تنذر بالسوء، وأن هذا الانتعاش والهدوء الكاذبين لن يدوما كثيرا.

فكر في بيتر، لم يَعْنِهِ كثيرا إن كان بيتر في هذه اللحظات يعرف تحركاته أو يراقبه عن كثب، فبيتر يعلم جيدا أن وجوده في هذا المكان ليس من أجل شيء إلا لاكتشاف الحقيقة، الحقيقة التي

لا يمكن أن تتوارى خلف حاجز من الذكريات المبتورة، الذكريات الغائبة، كان هناك أمل وخوف يطوفان بقلب ديفيد، يومه الثقيل داخل الصيدلية منحه أرقا، تناول قرصا واحدا وكان كفيلا بأن يُذهب عنه تلك الآلام اللعينة، لم تغب روكسانا عن خياله وفكره للحظة واحدة، كان ينظر من آن لآخر على الدرج الذي وجد فيه أقراص الإدمان اللعينة، يؤنب ضميره بشكل قاسٍ رغم أن الأمر خارج عن إرادته، ورغم أنه في الحقيقة لم يكن ليكترث لو أن ظروفه اختلفت في هذه اللحظات، كانت المشكلة في جزء خفي لم يفهمه أو يدركه عن أهمية روكسانا بالنسبة له، فهي في نظره في هذا التوقيت ليست سوى زوجة وقعت في فخ الشيطان، فإن الصور المختلفة للضعفاء أحيانا تكون كاذبة، فهناك من يحملون وجوها وديعة لا يحملها إلا الأطفال بجمالهم وبراءتهم إلا أنه أحيانا يمكث الشيطان في دواخلهم، يكون ضعفهم قوة وبكاؤهم أداة محصنة لتنفيذ خططهم الشيطانية، في الحقيقة كان الأمر مختلطا بشكل غريب على فكر ديفيد في هذه اللحظات رغم أن ميله لضعف روكسانا كان قويا، وذلك من خلال ما رآه من قسوة وذل لا يغتفران من قِبَل بيتر، ولكن في منطقة ملتهبة كان يسأل نفسه سؤالا، ما الذي يمكن تصديقه وأنت تعيش تفاصيل ذلك العالم المجنون؟!..

كان يحزنه كثيرا ذلك السؤال.. يحزنه بشدة..

هناك على شارع والاش «Walash St» كان منتظرا لربع ساعة، لم يكن ينتظر شيئا بعينه، مجرد إشارة تمنحه الأمل ليمر من خلاله ليصل إلى منزله الذي جمعه بـ «هيلدا»، لكم يود أن يعرف الحقيقة، انتظر ربع ساعة أخرى وقد سرى بقلبه رعب حقيقي وهو يتخيل أنه اكتشف الحقيقة، وأن تكون تلك الحقيقة مؤلمة، حاول أن يفكر كثيرا فيما سيفعل إن كان الأمر صحيحا، بأنه هو الجاني، القاتل، وذلك الأمر الأخير بدا له كأن ضبابا يلف عقله ويغلفه بسور كبير عالٍ وضعوا عليه أسلاكًا كهربائية حتى يستحيل المرور من خلاله، كانت فكرة معتمة وصلدة ومرعبة أيضا، سرت رعدة قوية في جسده أربكته وأشعرته بمدى ضعفه، فدفع تلك الفكرة جانبا مطرق الرأس ممتعضًا خائفًا وحزينًا.

وجد نفسه يسير بإرادة قوية وبقلب مضطرب، يدق عاليا بشكل مخيف، حاول تهدئة نفسه كثيرا ولكن كان ذلك أمرا مستحيلا، انعكس الأمر ليتحول إلى جسده كاملا حيث كان يرتجف بشكل مبالغ فيه وكأنه عَارٍ، يسير على البؤرة الأعلى في القطب الجنوبي، كان المكان هادئا للغاية، يستطيع أن يرى منزله من هنا، الشارع هادئ، سيارات مختلفة تقف أمام المنازل التي تقع على اليمين واليسار من الشارع، هذا منزل مايكل هارسون، وهذا منزل السيدة ويليامز الأرملة العجوز، وهذا منزل السيد كونان المجنون الذي

يتخيل دائما أن السماء تسقط كل يوم في المساء، ابتسم ابتسامة حانية إلى الماضي، رأى فجأة أحدهم يمر به، إنه الشاب توم ابن السيد رايت، يبدو شاردا، فكر في أن يناديه وبالفعل فعل ذلك، «أسأل.. أسأل عن منزل السيدة ويليامز.. إنه المنزل رقم... 65 (منزل ديفيد جونز 66)، لا أدري!.. يبدو أني ضائع هنا»، رغم أن كلماته لم تبدُ مرتبة، مضطربة، وقد ظهر عليه التلعثم إلا أن توم لم ينتبه لذلك كثيرا، كان لا مباليا على الإطلاق، فلقد كان ديفيد محقا حينما جزم بشروده، «تعال معي، إنه قريب جدا من منزلنا»، مشى ديفيد بجواره دون أن يتفوه بكلمة، كان توم ما زال شاردا لا يتكلم، مطرقا إلى الأرض، وضح منشغل البال، ولكن تكاد الكلمات تطفو على سطح الفراغ المقيت الفاصل بينهما، لم يستطع ديفيد أن يلتزم الصمت وبالفعل أطلقها: «سمعت أن هناك جريمة بشعة حدثت هنا في الجوار».

«لم تحدث هنا أية جرائم»، قالها توم دون اكتراث، انفعل ديفيد وشعر بأن هناك يدًا امتدت وانتشلته من ظلام بئر عميق، ولكنه بصعوبة بالغة حافظ على هدوئه، حضر في ذهنه العديد من صور غير مكتملة، كان الحماس كفيلا بأن يحرمه من تكوين أفكار مكتملة، «لقد حدثت خارج هذا الحي، كل ما أعرفه، أن الطبيب الذي يسكن في منزل 66 قتل زوجته»، سقطت الكلمات من توم ثقيلة وقاسية

على أذنَي ديفيد ومعها سقط عزمه، سقط حماسه وفرحته القصيرة للغاية، الصور المبعثرة في ذهنه لم تكتمل بالفعل لأنه تم محوها فجأة وكأنها غبار على نافذة تصفعها الرياح، شعر بأن الطبيب يخبره بأن الله رزقه بطفل بعد عشر سنوات من الانتظار، الكشوف والمتابعات الطبية، الإرهاق النفسي والآمال التي تخرج من القبر حية لتموت على بابه، الصراع والمعاناة، الصلوات والدموع، ولكنه أيضا طأطأ رأسه بحزن وهو يقول: لكننا للأسف فقدنا زوجتك، شعر بأنه سيبكي في هذه اللحظات ولكن كلمات توم أخرجته من داخل هذا المستشفى الكئيب في هذا التوقيت: «إن المنزل مغلق منذ ذلك الحين، ها هو منزل السيدة ويليامز»، وانطلق في طريقه.

وقف ديفيد أمام منزله ينظر له بحسرة وألم، يبدو المنزل حزينا ومخيفا أيضا، كان المنزل على شكل مستطيل أمامه حديقة صغيرة، ذا طابقين، تستطيع أن ترى في الواجهة نافذتين في الطابق العلوي، بينما هناك باب زجاجي تظهر من داخله غرفة المعيشة إن وقفت في مواجهته بعد أن تمر في الممر الضيق الذي يقسم الحديقة إلى نصفين، وبعد أن تمر بالباب الخشبي الصغير الخاص بالحديقة والمنزل معا. كان قلبه معصورا وكأن أحدهم يعتصره بقبضة قوية بين يديه وبهدوء ثقيل يسكت دقاته، يفقده الحياة، حاول مقاومة الآلام التي لم يشعر بها إلا الآن، ولكنه لم يكن يحمل تلك الرغبة،

لم يكن يملكها، اليأس كالهواء يسير واثقا يغلفه ويغلف أفكاره، رفع رأسه قليلا وقد دمعت عيناه ثم ظهرت فجأة فكرة من الفراغ! فكرة لا يعلم من أين أتت! ورغم شكه في كنه تلك الآلام إن كان سببها الإدمان بالفعل أو لا إلا أنه فجأة قاومها بغضب ونفور، حاول ترتيب ما قاله له توم، لقد حدثت خارج هذا الحي، إذن عليه البحث في مكان آخر بعيدا عن هذا المنزل، وهذا يعطيه أملا جديدا، قد يكون ضعيفا ولكنه أيقن أن توم لا يختلف عن الملصقات المنتشرة في المدينة والتي تطالب بالقبض عليه، هذه الفكرة الأخيرة كانت مرضية له إلى حد كبير، كان شاردا شاخص العينين في الفراغ، عيناه دامعتان، استيقظ من أفكاره فجاة على صوت أتى من خلفه «ديفيد، أنت ديفيد، يا الله، ماذا تفعل هنا؟!»، إنها السيدة ويليامز، المرأة العجوز الطيبة، التي لا تنفك عن سماع أغنية «We will meet again» لـ «فيرا لينن»، فقد فقدت زوجها خلال الحرب العالمية الثانية بمجرد زواجها منه في سن صغيرة للغاية، قصيرة صاحبة شعر أبيض، ووجه مستدير ما زال يعكس جمالها إبان أيام شبابها، جليسة المنزل، ادخرت من عملها في البورصة ما يجعلها تتكفل بمصاريفها في أيامها الأخيرة، تحشرجت الكلمات في حلق ديفيد، لم يعلم ماذا يقول، فكر في الفرار، تعجب كثيرا لمعرفتها هويته رغم شكله الذي تغير تماما، وهل يمكن خداع المسنين بالإضافة إلى أنهم عملوا في البورصة الخادعة؟! أمر صعب!

حاول أن يحرك قدميه ولكنهما مخدرتان تماما، سرى الخدر في جميع أجزاء جسده، اضطربت أفكاره، شعر برغبة قوية في لكمها لتصمت، لتخرس للأبد، ولكن كل ذلك لم يحدث، بل ظل جاحظ العينين ينظر لها «ديفيد، أنا السيدة ويليامز، ألا تتذكرني؟! تعال معي بسرعة قبل أن يراك أحد»، كانت الجملة الأخيرة كفيلة بأن تخرجه من خلف قضبان هلعه، إنها تعلم شيئا، وإن لم تكن تعلم، فهي تبحث عن الحقيقة كما يبحث هو، لا تريد له الإيذاء، لن تكون السيدة المسنة أداة ترسله إلى الكرسي الكهربائي.

مشى خلفها دون وعي، وكأنه منوم مغناطيسيًّا، كان الشاي الذي أعدَّته مع صوت فيرا لينن الحزين، ذا مذاق جيد ودافئ للغاية.

We'll meet again, dont know where, don't know when. But I know we'll meet again, some sunny day. Keep smiling through, just like you always do, till the blue skies chase the dark clouds, far away.

شعر بالحزن العميق رغم الدفء الذي لم يحسه منذ مدة طويلة، رغم أنه لم يكن يلقي عليها السلام حين مروره بها إلا أنها لم تشكُ يومًا، كانت هيلدا الطيبة كثيرا ما تجلس برفقتها حين غياب ديفيد لساعات طويلة في عمله، «أوه عزيزي ديفيد، لا أعلم كيف حدث كل ذلك؟! ولكن ماذا تفعل هنا؟! هل جننت؟! إنهم يبحثون عنك

في كل مكان، ولكن لا عليك، إن مظهرك مختلف تماما، ولكن لا أحد يستطيع أن يخدع امرأة عجوز»، وابتسمت ابتسامة صادقة، ولكنها باهتة حزينة، نهض ديفيد فجأة، من مكانه وهو يقول: «أعلم أنني لم أكن الجار الطيب، الودود، على كل حال أشكرك بصدق»، شعر ديفيد بانفعالات غريبة فتدحرجت الدموع من عينيه، ربتت عليه السيدة ويليامز بحنان «لا تبك يا عزيزي، لكل شيء نهاية، أنا لا أصدق ما حدث، ولا أريد أن أسمع شيئا، عليك أن تمشي من هنا سريعا، ربما اشتبه فيك أحدهم وأبلغ عنك، أنا آسفة، لَكَمْ أود لو تظل هنا»، ابتسم ديفيد ابتسامة باهتة، فقد كان يراها امرأة تزج أنفها فيما لا يعنيها، يراها ثرثارة لا فائدة منها، الأمور تتضح ولكنها تتضح مؤخرا، تتضح مؤلمة، تلك الأمور التي يراها الآن بعين لم يكن يمتلكها من قبل، ابن عمه توني جونز، صديقه روبرت، والآن السيدة العجوز، لماذا تتضح الأمور دوما بعد فوات الأوان؟! كان سؤالا قاسيا على نفس ديفيد.

خرجت لتتقصى أمر الشارع، ثم عادت إليه مسرعة «الآن يمكنك أن تخرج»، نظر لها نظرة ممتنة مبتسما ابتسامة باهتة وشاكرة توحي بتأنيب الضمير، «لا عليك يا ديفيد، انطلق الآن»، وحين خروجه من الباب سمعها تقول: «أوه، ديفيد، الذاكرة اللعينة، لقد ترك لي أحدهم شيئا خاصا بك بعد حدوث هذه الفاجعة بأيام قليلة، إنه

مظروف، لقد جاء للبحث عنك ولكن كما تعلم، لم يكن هناك أحد بالمنزل، فأخذته منه، ربما أجد به شيئا يفيد، في الحقيقة كنت أنوي تسليمه للشرطة، ولكنني احتفظت به، أعلم أنه أمر غريب ولكن هذا ما حدث».

دخلت إلى داخل غرفة النوم ثم عادت بعد دقيقتين تقريبا، كان مظروفا كبيرا مغلقًا، «نعم لم أفتحه في الحقيقة، فأنا أحب أن تظل الأشياء على سِرّيتها ولكنني أتكهن بأنه أمر عادي، ربما أرسله لك أحد الأصدقاء ممن لا يعرفون مستجدات الأمور»، أمسك ديفيد بالمظروف وقلَّبه يمينا ويسارا والتعجب سيد الموقف، لم يجد عليه أي اسم أو عنوان، فتحه بريبة، وجد العديد من علب الأدوية التي يعطيها بيتر له، التي يعطيها لروكسانا أيضا، شعر بالفزع، جحظت عيناه، حاول أن يداري ذلك رغم صعوبة الأمر ولكنه أخيرا استطاع، ووجد ورقة صغيرة مكتوبًا عليها:

«الهاتف غير معطل، لا مكالمات جديدة، أعتقد أنك كنت مخطئا، الخزينة رقم 27».

تعجب ديفيد كثيرا وشعر بالفزع مما رأى، هل هذه مزحة ثقيلة؟! كانت عيناه غائبتين عن الوعي وعقله شاردا، كانت السيدة ويليامز صامتة تراقبه عن كثب في هدوء، خرج ديفيد من المنزل دون وعي رغم أن السيدة ويليامز ألقت عليه العديد من الأسئلة حينما همَّ

بالمغادرة، لم يكن هناك شيء عقلاني يمكن التفكير أو التكهن به، هواجس غريبة، شعر بالألم فجأة، لم يفكر كثيرا في ابتلاع قرص آخر، مشى على غير هدى، بل كان يجر قدميه، رغم أنه شعر بألم ساقه مرة أخرى إلا أنه لم يكترث، كانت قد تحسنت كثيرا والعرج في قدمه لم يعد واضحا، كانت إشارات عقله غير واضحة، قبضة يده تعصر الورقة دون وعي والمظروف في يده الأخرى، خرج من الشارع تماما..

بل خرج من وعيه..

30

الورقة ماثلة أمامه أينما ذهبت عيناه، اختفى داخل كتاب كبير من الأفكار فُتح فجأة داخل عقله، لم يكن مفهرسا، لم يكن واضحا، كان أشبه بلغة مختلفة وغريبة لا يمكن فهمها، إن الأشياء بدت له أقرب إلى الخيال، بل إنها الخيال بعينه، استرجع لوحة الثعلب بما تحمله من ذكريات، ابتسم ساخرا في نهاية المطاف، جالس في غرفته يدخن بشراهة لم يعهدها مسبقا في نفسه، العديد من السجائر المطفأة نبهته لذلك رغم أن الساعة لم تتعدَّ العاشرة مساء في هذا التوقيت.

«الهاتف غير معطل، لا مكالمات جديدة، أعتقد أنك كنت مخطئا، الخزينة رقم 27».

اعتقد بأنه غبي للغاية لأنه لم يسأل السيدة ويليامز عن هوية المرسل أو شكله ولكنه سرعان ما علم أن ذلك لن يغير من الأمور شيئا، دعك من هذا كله، ما علاقة تلك الأقراص بي؟! ما علاقة كل هذا بي؟! ولماذا يرسل لي أحدهم هذا كله؟! ومن هو ذلك المرسل؟! اعتقد أن الإجابات لا يمكن الحصول عليها، نظر مليا إلى رقم الخزينة، الرقم 27، هل يملك خزانة في بنك ما تحمل هذا الرقم؟! بالتأكيد يستطيع أن يتذكر شيئًا كهذا، بالتأكيد إنها في منطقة

ما من ذاكرته اللعينة، فهو يستطيع أن يتذكر كل شيء حدث في الماضي عدا تلك الثمانية أشهر الشهيرة، المتوجة على رأس حياته بأسرها والتي غيرتها بالكامل، شعر بالإرهاق الشديد ولكن ذلك لم يمنعه من أن ينفجر في البكاء بقوة، كان يبكي كطفل ضائع في مدينة مزدحمةكبيرة، كان الجو في هذه الأثناء يقذف حمما من الثلوج، الرياح تئن بصوت مخيف في الخارج والرعد يعزف سيمفونيته المتقطعة الخاصة، المرارة تتسلل في داخله والذكريات تعاوده ساخنة وكأنها حدثت منذ ساعة أو أقل، كان يرى بعين متألم موجوع فاقد للأمل، رأى أن الأمور قد وضحت، ذهبت هيلدا وذهب معها كل شيء، الآن يستطيع أن يجزم بذلك، تلك هي الحقيقة الوحيدة الواضحة وسط كل هذا الهراء، الحقيقة التي لا يمكن إنكارها الآن، لذلك لم تأتِ لتساعده، لم تأتِ لترى العذاب الذي يتعرض له من قبل مجهول مجنون، لقد ذهبت تماما، أصبحت ذكرى غير واضحة ملطخة بالدماء، ورغم يقينه من كل ذلك إلا أنه كان واثقا بأنه لم يقم بهذا الفعل الدميم.

نعم بالتأكيد لم يقتل هيلدا..

فجأة وبدون مقدمات كان يغني، يغني باكيا ويائسا، يغني بصوت متقطع مهزوز نفس الأغنية التي سمعها في منزل السيدة ويليامز، الأغنية التي تحمل الأمل في اللقاء، الأمل الكاذب الذي يدفعنا للاستمرار رغم علمنا بأن المتبقي منا محروق مهشم يائس،

نهض وهو يضع يديه على عينيه، لَكَمْ يود الصراخ، تمنى لو أنه مات في الحرب الأليمة الخادعة، تمنى أشياء كثيرة رغم علمه بأنها لن تحدث، كان ديفيد عاقلا بالشكل الكافي ليكتشف ذلك ولكن هذه هي النفس البشرية التي تتوق إلى المستحيل أو التعلق بمجرد أمنيات، فإن وجودها في العقل كافٍ لتضميد بعض الألم أو صناعته من جديد، تختلف تلك النظرة وهذا المعتقد من شخص لآخر ولكن ديفيد كان يعلم أن تضميد الألـم لن يأتي..

لن يأتي على الإطلاق..

مسح عينيه مستخدما كفيه وهو يشعر بالمرارة، تأكدت له أشياء لم يرها من قبل، تأكد أنه كان ظالما في العديد من المواقف، ظالما لابن عمه توني جونز والآن السيدة ويليامز، عزيزتي هيلدا، قد أقتل نفسي ولكنني بالتأكيد لن أقتلك، أعترف بأنني عدواني ولكن ليس الأمر بيدي على الإطلاق، سأكتشف قاتلك وإن كلفني ذلك حياتي، فالحياة دونك أكذوبة لعينة.

ثلاث دقات على الباب كانت كافية ليصحو من غفوته، ليُنتزع انتباهه الحزين، فتح الباب: «روبرت، أنت مرة أخرى، ألهذا السبب تتركني وحيدا؟! أنت أيضا حزين على هيلدا، لقد كنت قاسيا في أحيان كثيرة معك، أعترف بذلك، تبا لكل شيء يا روبرت، أرجوك ساعدني لأكتشف الحقيقة، أنت تعلم كل شيء، إنني بريء ولذلك

لم تبلغ عني، وهذا يعني بأنك تسامحني على كل ما فعلت دون قصد، إنك أيضا لا تصدق بأنني قتلت المسكينة هيلدا، أبدا لن أكون بهذا التوحش، روبرت، لماذا لا ترد يا صديقي؟! أحتاج إليك أكثر من نفسي، ألا تفهم ما أنا فيه؟!».

نظر له روبرت نظرة طويلة وهو ما زال مستندا على الباب ثم أخرج سيجارة وأشعلها في هدوء «إن الله يساعد فقط من يساعدون أنفسهم».

«تبًا لك ولهذه الجملة السخيفة يا روبرت، تبا لكل شيء، أنت لا تملك إلا هذه الجملة التي تدفعني إلى الجنون، ماذا عليّ أن أفعل لكي أجعل الله يساعدني؟!».

صاح بجملته الأخيرة كثيرا ولكن روبرت لم يتحرك، كان ساكنا، باردا كالموت، شبح أتى من الظلام، أخذ نفسا عميقا مرة أخرى من سيجارته ثم قال: «ديفيد، ابحث عن الخزينة 27، فإن بها ما ينتظرك».

دلف سريعا إلى الغرفة وأمسك بالورقة، ظل جاحظا ينظر إليها محاولا بشتى الطرق أن يفكر، التفت مرة أخرى إلى روبرت فلم يجده، هرول تجاه الباب، نظر يمينا ويسارا، نظر عبر السلالم، ولكنه لم يجد روبرت، لقد غادر تماما، عاد متعجبا، ولكنه تخلص من ذلك سريعا، لم يفكر في الأمر، فإن روبرت أصبح غامضا كالموتى،

كان يفكر في الخزينة رقم 27 حين أمسك بأوراقه، استطاع أن يشم أنفاسًا صاعدة باردة تلامس رقبته وهو جالس على كرسيه، حاول أن يتنفس ولكنه بدلا من ذلك شهق شهقة خفيفة مكتومة، تصلب في مكانه، أنفاسه أصبحت مسموعة، وفجأة نهض مذعورا بعد أن أصبح الأمر لا يطاق، ثم عاد خطوتين إلى الخلف، كان يشبه الأطفال حينما يرتعدون، حينما تركز أعينهم على الشيء الذي يخيفهم ولكن دون أن يصدر منهم صرخة واحدة، الخوف البارد الذي يتسبب كسرعة البرق بشلل في الأحبال الصوتية، تعجب بيتر لذلك، أشار بيدِهِ أن اهدأ، إنه أنا مجرد بيتر سميث، أيها اللعين كدت أن تقتلني من الخوف، ولكنه لم يقل ذلك، بل كانت المفاجأة ما زالت مسيطرة عليه، وبعد دقائق من شرب القهوة كان جالسا في مواجهته لا يفكر، «ديفيد، لمَ ذهبت إلى الحي الذي كنت تقطن فيه؟! أنت تعرض نفسك للخطر، أنت تكذبني، تعتقد أنني أكذب، أكذب عليك، ولكن هذه ليست الحقيقة، فالحقيقة هي تلك التي انتزعتها اليوم، لن أسألك عما دار هناك لأنه لا يهمني، ولكنك الآن مطمئن إلي بأنني لا أستغلك أو أحولك لمجنون كما تعتقد، ربما حولتك لمدمن ولكن وبصراحة تامة، إنها الطريقة الوحيدة التي أستطيع من خلالها التحكم فيك، كما أن الأمر منفعة متبادلة وأنا لا أطلب منك الكثير، كل ما أطلبه ألا أتحوَّل لمنبوذ مثلك مطارد من العدالة، بالمناسبة، أين المظروف؟!».

جحظت عينا ديفيد وظل ساكنا في مكانه، نهض بيتر من مكانه، لم يبحث عن شيء؛ لأن المظروف كان هناك على المنضدة الصغيرة قابعا في سكون، أخذه بيتر وفتحه، لم يكن به سوى علب الأقراص اللعينة، أخذها بيتر كلها «أظن أنها ستؤذيك، فأنا موردك الوحيد، لا تتعجب إن كنت لم أندهش منها، دعك من هذا الآن، روكسانا ستأتي لك غدا، عليك أن تعطيها هذه العلبة، فلقد أسرفت كثيرًا في تناول الأقراص في الفترة الأخيرة، لا تنظر لي كثيرا، فأنا أعلم أن إيفان تمدها بها»، وناوله علبة من العلب التي أخذها من المظروف ثم نظر إلى العلب الأخرى نظرة ماكرة وابتسم ابتسامة رهيبة ثم قال ببرود: «إنها كمية كافية للإبقاء عليكما لمدة طويلة». قبل أن يغادر نظر إلى الورقة الأولى طويلا وهي بين أصابعه وقد بدا غير مكترث، وضح لديفيد أنه يقرأها ثم تركها مرة أخرى على المنضدة مبتسما، فلقد قام ديفيد بإخفاء الورقة الأخرى الخاصة به تحت الوسادة في وقت سابق، وحين مغادرته التفت وهو ينظر له نظرة مريبة: «لا تلعب كثيرا بالنار يا ديفيد، فإنها تحرق من يتلاعبون بها، تحرقهم دون رحمة، تذكر، أمامك خمسة أيام، خمسة فقط».

لم يعر بيتر اهتماما كبيرا في هذه اللحظات، كانت المعضلة الكبرى بالنسبة له والسؤال الغامض الذي لا تفسير له، ما علاقة كل هذه الأقراص به؟! وماذا يوجد في الخزينة رقم 27؟! نعم خزانته الخاصة كانت رقم 27، يستطيع الآن أن يتذكر ذلك، حينما انتقل إلى

العمل في المركز الطبي في مدينة كارسون منذ أربع سنوات تقريبا إن حسبنا الثمانية أشهر الضائعة، ثم فكر بأمر بيتر وشعر بانفعال، كان يستطيع أن يقتله في هذه اللحظات ولكن ما الفائدة الآن؟! الانتقام لن يحرره من قيده، لن تمنحه جريمة أخرى ثمة شيء، بل ستزيد من شقائه، ورغم أن بيتر يستحق القتل بما سببه له من آلام ومعاناة وذل إلا أن تلك المعاناة ستزيد بشكل هائل إن أقدم على قتله، كما أنه وفي، جزء منه يعلم أن هناك شيئا يرفض ذلك في الوقت الراهن، يرفضه بشدة، رأى في بيتر شخصا آخر، يمنحه مساحة من الوقت، خمسة أيام لتنفيذ العديد من الأشياء، اكتشاف الحقيقة وتحرير روكسانا من قبضته، شعر بالعجز واليأس ولكن كانت الإرادة هناك في منطقة منه، خرجت من الغضب المحشور في قلبه، شعر بإعياء وآلام متتالية في رأسه، لم يكن لديه سوى قرص واحد بعد أن كان لديه أقراص قد تكفيه لأشهر طويلة، حين أخرج القرص، تذكر بحسرة مرة أخرى العلب الكثيرة التي كانت بحوزته، نظر للقرص طويلًا، ألح الألم بشكل غريب في هذه الأثناء، ومضاته المعتادة تعود إليه ولكن أضف إليها هذه المرة وقوفه غاضبا في أحد الأركان وهو يلوِّح بيديه في وجه روبرت، دس القرص في حلقه بغضب وبعد لحظات أطلق همسة خافتة جدا..

الخزينة رقم 27...

31

لم يستطع ديفيد أن يستجمع أفكاره رغم مجهوداته العظيمة في ذلك، لم يكن يعلم أين تكمن النقطة التي يجب من خلالها أن يبدأ، كان هناك شيء عالق يمنعه من المرور عبر تلك الفتحة الزمنية، الحادث اللعين هو العائق الوحيد، انكفأ على المنضدة ورغم أنه كان واضحا أنه سيشعل سيجارا إلا أنه لم يفعل ذلك، لقد ألقى به جانبا.

اليوم الثاني

الورقة الثانية

بيتر سميث

عزيزي بيتر، لن أمنحك شيئا ولن أمنحك ما تود أن تعرفه لأنك بالتأكيد تعرفه ربما أكثر مني ولكن حتى لا ينتهي بي الأمر كفأر باحث عن جبن في ليلة مظلمة وباردة، وكم هذا قاسٍ - لو سألتني عن رأيي - سأقول لك ما حدث، الصيدلية البغيضة والزبائن المختلفون، لا شيء جديد، بحثت عن الحقيقة فيما بعد، هذه هي الحقيقة التي تعلمها ولكن ما لا تعلمه أنني لا أومن بحقيقتك هذه، وسأكتشف الحقيقة التي تبدو غامضة لي، وقد تبدو لك كذلك أيضا،

ذهبت إلى الحي الذي كنت أقطن فيه، ذهبت إلى هناك بمحض إرادتي وهذا بالتأكيد أمر جيد، أليس كذلك؟! تحدثت إلى الشاب «توم» جاري القديم، وأيضا جلست قليلا مع السيدة ويليامز كما تعرف، وبالتأكيد أنت تعرف البقية، لا تندهش، إنني أملك جزءا من قوتي المفقودة الآن، إني حزين وبشدة ولكنَّ هناك شيئا يمنعني من الاستمرار في الحزن، من الآن فصاعدا سأعكف على الوصول إلى الحقيقة، ولا تقلق بشأن روكسانا، سأنهي لك الأمر في الميعاد..

سأنهيه تماما..

ديفيد جونز

2011 /12 /26

اليوم الثاني

الورقة الخفية الثانية

ديفيد جونز

لا أعلم، كلما اقتربت من تحقيق الأمل فارقني دون إنذار، الآلام التي تدور بقلبي الآن لا يمكن وصفها، هي إحساس متقطع وعميق أيضا، يعزف بحزن مستخدما أيدي الشيطان، فإن القدر لن يكون قاسيا إلى هذا الحد، أتساءل كثيرا عن السيدة ويليامز التي ظهر فيما بعد أنها كانت تكنّ لي آيات الحب والاحترام بينما أنا، ها ها، ياللسخرية! أعتقد أنني كنت مخطئًا في العديد من الأمور، مخطئا

بشدة، ولكن ككل مرة أكتشف أنني كنت فاقدا للكثير من الأشياء، كن صادقا ولو لمرة يا ديفيد، نعم لم أكن فاقدا بل كنت أتعمد الفقد بمحض إرادتي وهذا أمر مؤلم، استطعت بكوني باتريك بلامر أن أكتشف جزءا غريبا عن ديفيد جونز.

هيلدا..

لو كنت هناك يا عزيزتي لقتلت ذلك السفاح الذي أوقعنا في تلك الكارثة، أنا حزين يا هيلدا، حزين بشدة، ولكن ما يجعلني مثابرا هو اكتشاف حقيقة ما حدث، رغم أنني لم آبه يوما لمشاعر المحيطين بي أو البشر عموما لأنهم لم يأبهوا لي يومّا، إلا أن ما أمرُّ به جعلني أرى الأمور بعين أخرى لم أكن أملكها من قبل، أعتقد أنني أملك بعض المفاتيح الآن، معي رقم الخزانة، 27، أعلم أن الموضوع غامض للغاية ولكن سأستطيع قريبا أن أملك الحل، أعدك بذلك، ولكن ما يحيرني بشدة هو روبرت الذي ابتعد فجأة، يعذبني بصمته وبكلماته غير المفهومة والقليلة دائما، هل تعتقدين بأن هناك شيئا يخفيه؟! لا أعلم يا هيلدا ولكن من الواضح أنني بدأت أشك في كل شيء، حتى في نفسي، فما كنت أعتقده صحيحا ظهر لي أخيرا بأنه خاطئ، وما كنت أعتقده خاطئا تبين لي أنه الصواب، هيلدا إلى الأبد سأحبك، ولكن حبيبتي بحق الله قولي لي كلمة واحدة حينما تأتينني في ومضاتي الغريبة، قولي لي لِمَ كل ذلك؟! أعلم أنك في

مكان ما هنا، تستطيعين أن تري كل شيء من العالم الأعلى، ليتني معك، ولكن ليس الآن، ليس قبل اكتشاف كل شيء.

روكسانا

إن المشكلة بالنسبة لي لم تعد مشكلة روكسانا وحدها، بل إن الأمر تعدى كل ذلك، فإن الأمور أصبحت مختلطة، ولا بد أن أظفر بموعد معها غدا، آتية غدا ولا بد أن تخبرني عن كثير من الأمور، لا بد من القضاء على بيتر بأي شكل، حتى ولو قتلته، نعم حتى ولو قتلته، فإن الأمر لن يختلف كثيرا، فأنا بطبيعة الحال أواجه الموت ولكن ما يحيرني هو إصراره الغريب أحيانا على إنقاذي، أحيانا أرى الصدق في عينيه، ولكن حينما أرى استغلاله وألمس جفاءه أعلم أنه ليس أكثر من صدق مزيف، أو ربما جانب إنساني فيه يطفو للحظات ثم سرعان ما يغرق في الظلام مرة أخرى، فأنا بطبيعة الحال أدرك ذلك جيدا؛ لأنني طالما مررت به.

لا يمكنني أن أضيف شيئا آخر رغم أن مسألة علب الدواء التي وجدتها في المظروف الذي أعطتني إياه السيدة ويليامز مخيفة ومفزعة، إنني رأيت تلك العلب من قبل، إنني موقن من ذلك، تبا لذاكرتي، تبا لكل شيء.

ديفيد جونز

2011 /12 /26

32

«أعتقد أننا تعجلنا قليلا في هذا الأمر».

«لا أظن ذلك، فهو ذكي كما تعلم، ذكي بطريقة مخيفة، وكان يجب أن أضعه في هذا الموقف بالتحديد وبهذه السرعة، الأمر كان مفاجئا وصادما له، وهذا ما نحتاجه في هذا التوقيت بالتحديد، الصدمة، لكي يحقق ما نسعى إليه وينفذه بالطريقة التي ننشدها، أستطيع أن أقول إنه على الطريق الصحيح الآن، ولكن المشكلة تكمن في اليومين القادمين، وعلينا أن نكون مستعدين لأية ظروف طارئة».

«أتمنى أن تكون على صواب، وينفذ ما نريد، في المرات السابقة تم تدمير كل شيء بسبب تفاصيل بسيطة للغاية وعدنا إلى نقطة الصفر، وهذه المرة ومع شخصية كديفيد وبهذه الطريقة سيكون في عداد الموتى، لن يصمد مرة أخرى، وإن لم يصمد فنحن لن نستطيع أن ننقذ أي شيء، سنبقى مكتوفي الأيدي، ليس أمامنا فرصة أخرى وسيكون الكرسي الكهربائي أسرع منا إليه».

«أنت محق، الأمر كله متوقف عليه الآن، سنفعل ما علينا وبعدها لا نملك شيئا سوى الترقب والانتظار والتحلي بالأمل».

أنهى بيتر كلماته وهو ينظر نظرة مترقبة إلى محدثه، زفر بعدها زفرة مكتومة توحي بالضجر واستجداء الأمل.

عزيزي ديفيد،

«الشعور بالألـم لا يأتي من الإنسانية، بل إن الإنسانية تأتي من الألم».

روكسانا سميث

33

خلال كل ذلك وخلال كل ما مضى كان غافلا وعالما في نفس الوقت بأنه الآن لا يستطيع أن ينظر إلى الخلف أو يخاف منه، روكسانا عزيزتي، لا ترتجفي كثيرا، الجو ليس بهذا السوء الذي تشعرين به ولكن أعلم أن هناك أشياء أخرى تجلب ذلك الإحساس، الرجفة القوية المباغتة، رجفة الموت النابعة من الخوف أو من المرض.

كانت روكسانا تجلس في هدوء على الكرسي المواجه له، الساعة لم تتعد الثالثة عصرا، ولكن يبدو أن النهار راحلٌ وسط غيمات لم تقبله كزائر، كان الجو منعشا رغم السماء الملبدة بالغيوم، سرت رعشات برد خفيفة بجسده خلال اصطحابه لها إلى البازيل، لم يفكر في شيء آخر وهو يسألها عن مرافقته، لم يفكر في بيتر، لم يفكر إلى أين ستؤول الأمور، لم يفكر حتى في نفسه بقدر ما كان يفكر بها ويراها من خلف مرآتها المتألمة لها في حضور وحش في حياتها كبيتر.

رغم الحرج الذي كانت تشعر به وهي تدخل إلى الصيدلية إلا أنها كانت واثقة تسير بخطوات ثابتة، الهالات السوداء تحت

عينيها أخفتها بمساحيق تجميل مختلفة، الآن لم يعد الأمر مقترنا بالجمال، إن الأمر مقترن بشيء آخر، الإدمان وإخفاء آثاره، اللعنة التي يداريها المصاب بالمواد الكيميائية ليصبح في النهاية مجرد مسخ، رغم أنها فعلت ما ينبغي فعله في حالتها إلا أن عينيها لم تكن غريبة على ديفيد ليكتشف ذلك السواد والذي بدوره يعكس الكثير، لم يحاول للحظة اختراق عالمها المخفي عنه من خلال تخيل ما يحدث لها في حياتها، ولكنه اكتفى بأن يرى ذلك من خلال صمتها الملفع بالألم، من خلال عينيها اللتين تجهران بكل شيء، رغم أنها لا تظهر ذلك إلا أنه كان يشعره وبشدة، لم يكن يعرف ديفيد أين تكمن الحقيقة، بمعنى آخر، أين منبع إحساسه هذا؟! وأين ولد؟! وكيف وصل إلى هذه المرحلة؟! فهو على النقيض تماما من أن يشعر بأي كائن كان، لم يكن ليكترث، ولكن الظروف والحياة الجديدة أودت به إلى ذلك، فتحت لديه تلك المنطقة الخفية، الأمر برمته كان بالنسبة له غامضا وغريبا ورغم محاولاته الكثيرة فيما بعد لمعرفة ذلك، إلا أنه لم يصل لأي شيء سوى أن هناك شيئا يبزغ من بين ستائر الظلام لينير له عينيه عن شيء حُجب عنه بملء إرادته أو رغما عنه.

كانت تدخن بعصبية، يداها ترتجفان، عيناها خائفتان، تنظر له نظرات متشككة ولكنها ودودة كقطة تخاف أن تمد يدها إلى الطعام

فتعاقبها سيدتها، لم تتفوه بالكثير، بل لم تتفوه على الإطلاق وكذلك ديفيد، كلاهما صامت، بعد أن فرغا من طلب الطعام الخاص بهما، حاول ديفيد أن يجد خيطا يبدأ به، كان ذلك واضحا حينما اقترب برأسه منها ليهمس بشيء ما، ولكنه أخيرا لم يفعل شيئا سوى أن عاد إلى الخلف مهزوما، ولكن روكسانا ابتسمت ابتسامة باهتة حزينة له: «أنت تدرك جيدا أن وجودك هنا معي قد يعرضنا معًا للخطر»، لم ينطق بكلمة وتعجب قليلا مما أبدته له «لا تخافي شيئا، لقد أحضرت لك الأقراص، كنت أعلم أنك ستعودين من أجلها، لماذا لم تحضري بالأمس كما أخبرتك؟»، كان السؤال يخرج منه كمن يعرفها منذ سنوات، كحبيب قديم شعر بالحنين إلى ذكرياته، ترددت كثيرا قبل أن تقول: «أنت لا تعرف شيئا مما أنا فيه، ولا أستطيع أن أخبرك بأي شيء، ولا أعلم لم أنا هنا! ولكن أحتاج بشدة للحديث إلى أي كائن كان»، بعد برهة من الانتهاء من كلماتها قالت وهي تطفئ سيجارتها بعصبية شديدة: «أنا أكذب»، حاولت منع نفسها من البكاء ولكن الأوان قد فات وسبقت دموعها إرادتها، «أنا خائفة بل مرعوبة، لقد علمت بموضوع الأقراص كما تعلم، وبالتأكيد زوجي سيتردد على الصيدلية التي أتردد عليها وحينها سيعلم كل شيء»، ابتسم ابتسامة حانية ومتألمة لها «لا تخافي، لن أخبره بأي شيء».

«لقد كانت صديقتي الدكتورة إيفان تمدني بها من وراء ظهره وكنت أئتمنها على شيء كهذا وها هي غابت دون إنذار، غابت دون أن تبلغني، ولكن أنا أعذرها، لا بد أن ما دفعها للسفر كان خارجا عن إرادتها»، شرد ديفيد قليلا بعد أن أنهت كلماتها وهو يشعر بالمؤامرة التي تحاك ضدها، المسكينة لا تعلم أن إيفان مشتركة في كل ذلك، المسكينة لا تعلم حقيقة العدو الذي يرتدي قناع الصداقة المبهر، نعم إنها لا تعلم شيئا، شعر بألم قوي يدق رأسه فجأة، الومضات اللعينة تعود من جديد أكثر قوة وأكثر إلحاحا، دس يده في جيب سترته ولكن لا شيء على الإطلاق، لقد نسي تماما أن لا أقراص في حوزته، فكر في أن يطلب منها قرصا من العلبة التي أعطاها إياها ولكنه امتنع عن ذلك في اللحظة الأخيرة، حتى لا تشعر بأنه هو الآخر ضحية، والضحايا لا يستطيعون أن يساعدوا أنفسهم، فكيف يتسنى لهم أن يساعدوا الآخرين؟! المريض يستحيل أن يكون طبيبا، تمالك نفسه بقدر إمكانه ورغم ذلك وضح عليه.

«هل بك شيء؟! أرى أنك تعاني، هل هو الصداع؟»، أومأ برأسه وهو يميل برأسه قليلا إلى اليمين محاولا بجهد رسم ابتسامة لطمأنتها، «لماذا تساعدني يا دكتور باتريك؟! لا أعلم يقينا السر وراء ذلك، فكرت كثيرا في أول لقاء بيننا وتعجبت كثيرا لقوة ملاحظتك، ولا أخفي عليك أمرا آخر أيضا، إن زوجي لا ينفك عن الحديث عن مريض في المركز الطبي اسمه مطابق لاسمك»، ثم ضحكت

ضحكة عالية متوترة، لاحظت أن ملامحه تغيرت إلى الدهشة المفاجئة، عيناه جاحظتان، فشعرت أنها أساءت إليه، «أنا آسفة، لم أقصد»، حاولت بجهد أن تكف عن الضحك وكان لها ذلك بعد برهة قصيرة شعرت خلالها بالحرج، «صدقني أنا لم أقصد، ولكن لقد فوجئت بتشابه الأسماء وشعرت بالفزع لوهلة»، ابتسم ديفيد ابتسامة باهتة، كان هناك دقات من الألم تتوارى في هدوء في هذه اللحظات داخل رأسه بعد أن أشعلت روكسانا أمرا آخر داخله، فكر كثيرا وشعر أنه داخل مؤامرة غريبة ومحكمة، لمَ يختار له بيتر هذا الاسم بالتحديد؟! لم يحاول أن يتفوه بكلمة وبعد ثوانٍ قال: «لا عليك، فالأسماء المتشابهة عديدة هذه الأيام مع التكدس الذي نعيش فيه، فإن لي ابن عم يحمل نفس الاسم أيضا، وكثيرا ما يخلطون بيننا في الكثير من الأمور وأنت تستطيعين أن تتصوري الأمر».

لم يعرف ديفيد ماذا يقول خلال تناولهما للطعام بعد أن جاء إليهما خلال فترة وجيزة من الصمت، ولكنه كان ينتظر اللحظة الحاسمة، شعر بمدى السوء الذي تتعرض له روكسانا، شعر به بشدة وعن قرب، كان هناك رعب يدقه كلما فكر في اسمه الجديد: باتريك بلامر، ما العلاقة التي تربط هذا الاسم بي؟! إن بيتر لا يفعل شيئا من الفراغ! نعم إنه لا يفعل ذلك، «ما الذي دفعك إلى الإدمان؟!»، لم تتفوه بكلمة وتركت الشوكة والملعقة جانبا، الرعب كان يتطاير

من عينها كشرر من نار، نظرت يمينا ويسارا بتوتر وكأنها تتقصى أمر شيء ما، خائفة بشدة، ملامحها تغيرت، كانت مضطربة ولكنها بعد دقيقة تقريبا نظرت له نظرة طويلة، في الحقيقة كانت غائبة عن الوعي، شاردة، «زوجي»، ابتسم ديفيد ولكنه تراجع في ابتسامته سريعا، لم تنتبه لتلك الابتسامة الصغيرة التي تستحيل ملاحظتها في خضم رعبها الذي تشعر به في هذه اللحظات، شعر بأنه ملك الخيط المطلوب، «أرجوك يا باتريك، أنت الإنسان الوحيد الذي أخبرته بذلك، رغم أن الجميع يعلم بذلك، وكلمة الجميع في الحقيقة ليس لها تعريف عام كباقي البشر، فإن حياتي لا تتجاوز الصيدلية وزوجي وإيفان، وكان لنا صديق آخر ولكن بيتر أصر على قطع علاقتنا به -أنهت جملتها الأخيرة بمرارة -... وبعد برهة كانت ملامحها تغص بالألم «لقد أخبرتك بأنني فكرت فيك كثيرا وأرى أن من يشعر بي بمجرد النظر هو إنسان حقيقي، لقد ائتمنتك، أنت لا تعلم زوجي، فقد يقتلني، إنه مهووس بي، ولقد استغل حبي له، فصرت كما ترى، مدمنة، لا أقوى على توفير الأقراص اللعينة لنفسي، وكان عليّ البحث، وجدت إيفان، إنها إنسانة طيبة تعلم زوجي جيدا، تعرف سري الوحيد، لقد سرقت قرصا وأعطيته لها لتستطيع أن توفر لي هذا النوع، وقد كانت مندهشة وبعد عناء توصلت لنوع قريب منه لكنه للأسف ليس هو ولا يمنحني نفس الراحة التي أشعرها مع الأقراص التي يعطيها لي بيتر»، صمتت للحظة ثم انهارت باكية

«أنت لا تعلم شيئا يا باتريك، لا تعلم شيئا، أريد أن أموت، حاولت كثيرا أن أقتل نفسي ولكن أنا جبانة كما أنني أحب الحياة، لقد مللت كل شيء، لا أريد أن أصبح مدمنة، حاولت كثيرا الهرب ولكن هل يهرب السجين الضعيف من حكم ديكتاتور بشع؟!.. نحن لسنا داخل قصة للأطفال أو قصة أسطورية كتلك التي طالما ضحكوا بها علينا حينما كنا صغارا»، حاول ديفيد مواساتها ولكن كانت الآلام أقوى منه، مع كل كلمة من روكسانا كان الأمر يزداد سوءا، كانت الكلمات تدوي مع ألمه ممتزجة بتلك الومضات الغبية الملحّة عليه، تقوض وجهه، نهض من مجلسه واستأذنها سريعا ثم ذهب إلى دورة المياه، أفرغ كل ما في معدته، كان يصدر أصواتا توحي ببشاعة وسوء الأمر، عيناه المحمرتان ووجهه المتصبب بالعرق كانا خير شاهدين، تذكر الأيام الأولى اللعينة التي دخل فيها بيتر حياته، كم كان الأمر قاسيا مهينا ومفزعا، وكم كان هو الآخر صلبا متحملا لكل ألوان العذاب التي ذاقها على يديه، قرر أن يمشي في هذه اللحظات، أن يجد عذرا، أي عذر لكي لا يجعل روكسانا تشعر بشيء مريب، تمالك نفسه وهو ينظر إلى المرآة، ينظر إلى ملامحه الحقيقية التي اختفت خلف القناع الذي يرتديه، شعر بمضض وألم، أطرق رأسه إلى الأرض مستسلما لعذابات ذكرياته ولآلام رأسه، وسريعا غسل وجهه وكأنه يوقظ التفكير النائم في كل جزء منه ليذهب بعيدا عن مخدعه، لكي يهرب بنفسه من الأفكار

السوداء القاسية التي تهاجمه، ثم انطلق سريعا بعد أن هندم نفسه إلى روكسانا راسما ابتسامة صادقة طامسا ألمه تحت ستارها، «أنا آسف ولكن بالفعل أشعر بأنني لست على خير ما يرام، هل يمكننا أن نتقابل غدا بعد انتهاء العمل في الصيدلية؟! إنه ينتهي في الساعة السابعة مساء، أنا آسف لذلك حقيقة ولكن كما ترين»، كان يخفي ألمه بصعوبة بالغة ولكنه كان ناجحا في ذلك، «لا عليك يا باتريك، أنا في الحقيقة لديَّ أشياء مهمة لا بد أن أفعلها الآن، في الغد الأمور ستكون أفضل بكثير لأن بيتر سيكون مسافرا خارج المدينة»، ابتسم ابتسامة ودودة «هل يمكن أن أطلب منك شيئا؟».

«بالطبع».

«كوني على ثقة بأنني لن أخذلك، لديَّ الأسباب الكافية لذلك».

ابتسمت ابتسامة متوترة دون أن ترد ونهضت من مجلسها وغادرت، بينما ديفيد ذهب في طريقه بعد أن دفع الحساب وهو يفكر بألم رأسه، تدور بعقله الكثير من الأفكار غير المرتبة، حاول كثيرا أن يمسك بطرف خيط ولكن ذلك كان بعيدا للغاية، أعمق من الألم، موجعا أكثر من الومضات الغبية التي تتردد عليه بلا انقطاع في الفترة الأخيرة، شعر بخيبة أمل في لحظات احتاج فيها لتفعيل الأمل ولكنه أخيرا سار في طريقه بعد أن وفقه القدر في الحصول على «تاكسي» ليسعفه إلى الفندق الذي يقيم فيه.

34

بعد صمت سرى بينهما، انتهى بيتر بإعطائه قرصا وهو ينظر له نظرات ثاقبة لا تعكس الخير على الإطلاق، يستطيع أن يتكهن بذلك جيدا، يراه عبثيا ولكن كان لا بد من توخي الحذر في هذه اللحظات الصعبة، لم يتفاجأ كثيرا بتواجد بيتر في الغرفة حين وصوله ولكن أرعبته فكرة ما، فضل أن يخبئها في داخله بدلًا من أن تلتهمه، بعد مرور بعض الوقت داخل الحمام خرج ديفيد ليجد بيتر قد غاب تماما، بحث عنه في كل مكان داخل الغرفة ولكن بلا جدوى، لم يجد سوى ثلاثة أقراص تركها له على المنضدة بجانب الأوراق، تعجب كثيرا وتساءل، وبعد قليل سرى الخوف داخله، تساءل كثيرا عن الأفكار التي دارت في عقل بيتر، هل رآهما حينما كانا سويا بالمطعم؟! هذا بديهي فهو يعلم جيدا بما يدور ولكن ما لا يعلمه بيتر ما أبحث عنه في الحقيقة، هل هوسه بها جعله يتشكك بي أنا الآخر؟! قد يكون الأمر كذلك، لا يمكن أن يكون غير ذلك، فما رأيته من نظراته المتشككة الأخيرة ومعاملته لتلك المسكينة يجعله يشك حتى في نفسه؟! أعتقد أنني في مأزق حقيقي الآن.. ولكنه لا يعلم أنني أبحث عن شيء آخر أبدًا..

لو علم هذه الحقيقة الخفية لانتقم مني أشد انتقام، لوجدت الشرطة تحاصر الفندق، لاقتحموا تلك الغرفة بعد كسر قفل الباب برصاصات عديدة متكررة ومفزعة، لن يكون وقتها التفكير مثاليا أو أقرب إلى المثالية بل فوضويا كتفكير هارب من الإعدام حينما يباغته الكرسي الكهربائي، ستصبح حياتي مجرد كابوس يمر أمامي في لحظات قصيرة، انتفض جسده حين تخيل ربطه بإحكام إلى الكرسي الكهربائي، ينتظر اللحظة التي يومئ فيها منفذ الأحكام برأسه تلك الإيماءة التي ينبذها المجرمون، وحينها ستتحرك السكينة الكهربائية إلى أسفل لتطلق إشارة النهاية، ستتوغل الكهرباء بقوة داخل الجسد، فتهزه هزة قوية، من الطبيعي أن يتطاير الجسد أو أن يتم قذفه بعيدا نتيجة لقوتها ولكن هيهات، إن الأمر مستحيل، فإنه مربوط بإحكام مبالغ فيه، يقولون إن ذلك من أجل مصلحته، من أجل أن تكون نهاية هانئة! تتصلب شرايينه، النهاية والومضة الأخيرة.

فأر ميت داخل مصيدة، هكذا ينتهي الأمر.

روكسانا أخبرتني بذلك الاسم ولكن الحقيقة أنني لم أتجرأ على ذكر أي شيء حتى لا ترتاب مني، لن أستطيع أن أعلم الحقيقة خلف اسم باتريك بلامر ولكن هناك معلومة مهمة للغاية، إن هناك باتريك بلامر آخر يقبع في المركز الطبي لمدينة كارسون، وهذا الأخير يبدو أن بيتر على صلة به، فكر في نفسه كثيرا ولكنه أخيرا وفجأة نظر إلى الأوراق ثم أتى بكرسيه الشبحي وجلس وأمسك بالقلم.

اليوم الثالث

الورقة الثالثة

ديفيد جونز

أعتقد أنني الآن على الطريق الصحيح، فأنا أملك زمام الأمور، روكسانا أصبحت تثق فيَّ إلى حد ما، لم تسألني عن سبب طلبي لقاءها؛ لأنها تعلم جيدا أنني أساعدها، لم تفكر فيَّ للحظة أنني من ذلك النوع الغريب من الرجال الذي يستغل نقاط الضعف في النساء ولا أظن أن روكسانا من هذا النوع، إنها ضعيفة مبتورة المشاعر تعيش في نفق مظلم، ينتظرها أسد جائع في نهاية ذلك النفق، ومن خلفها يقبع المحيط الهائج والسباحة فيه غير ممكنة، لا بد أن أثبت لها أنني أهلٌ لهذه الثقة لأصل إلى ما أريد.

باتريك بلامر

ذلك السر الذي لا بد لي من البحث خلفه، عليَّ رسم خطة صغيرة، الغريب أن بيتر لم يذكر شيئا لي في هذه الليلة، لم يتفوه بكلمة، أشعر ببعض الخوف، ما الذي يخفيه بيتر بالضبط عني؟! وماذا ينوي؟! ولم اسم مريض في مصحة نفسية؟! هل شرع يشك فيَّ أنا الآخر؟! عجبا وهو اليد التي أوصلتني إلى روكسانا، هو من رسم الخطة الكاملة! الخطة التي لا أعلم عنها شيئا، فمثل هؤلاء أتوقع منهم كل شيء وأي شيء.. تبا له.

لا بد لي من البحث خلف الرقم 27، خلفه يقبع اللغز الحقيقي لما رأيته في المظروف المزعوم الذي أعطته لي السيدة ويليامز، بالتأكيد هناك إجابات لا بد من البحث خلفها، سأستخدم روكسانا لتطلعني على بعض التفاصيل، لن أستطيع أن أفعل شيئا وحدي.

ديفيد جونز

27/ 12/ 2011

كان ديفيد يكتب بنوع من الهياج، مقاوما الآلام التي بدأت تصرخ مرة أخرى، يهز رأسه من آن لآخر حتى تنفك تلك الومضات عن العبث برأسه، إنها تزداد، روبرت هذه المرة يقف مرتعدا في شقته وهو في مواجهته جامدا كالموت، هيلدا ما زالت تصرخ في وجهه وتتحول فجأة إلى المرأة التي تتوسل إلى ربها ولكنها في الحقيقة كانت تتوسل له بينما هو باكٍ، كانت ومضة أخيرة مفزعة.

اليوم الثالث

الورقة الثالثة

بيتر سميث

أعتقد أن الأمور لم تسر بخير هذه المرة عزيزي بيتر، فلقد كانت مقابلتي بروكسانا خالية تقريبا من أي شيء يمكن ذكره، أنا مصاب بالإحباط، سار يومي طبيعيا وأغلقت الصيدلية رغما عني، فلم

يكن بإمكاني أن أضيع تلك الفرصة حينما أتت روكسانا، ولكن لا أظن أن الأمر سيزعجك إن كان كل شيء يصب في مصلحتك، الغريب أنك تعلم برجوعي في هذا التوقيت ولكنني لم أعد أتعجب شيئا، فأنت في كل مكان أذهب إليه ولا تحتاج إلى هذه الأوراق السخيفة، على العموم بيننا لقاء في الغد، أتمنى أن أصل إلى مأربي.. أقصد مأربك.

ديفيد جونز

2011 / 12 / 27

35

في اليوم الرابع كان ديفيد ساكنا معظم الوقت داخل الصيدلية، غير منتبه في كثير من الأوقات، ينظر من آن لآخر على ساعته بشيء من الاهتمام، لم يتناول قرصا واحدا وقد ساهم عدد الزبائن الكبير في إشغاله كثيرا عن الأفكار التي يمكن لها أن تدور في رأسه، لعن الصيدلية وروادها في داخله آلاف المرات، ولكنه كان يعلم جيدا أن مزيدا من اللعنات لن تصيبهم بشيء، بل ستصيبه وحده بالعصبية وعدم التركيز والخروج عن المسار المحدد الذي رسمه لنفسه.

في الساعة التي دقت فيها الثانية ظهرا كانت روكسانا منهارة واقفة وسط الزبائن تنظر لديفيد من حين لآخر نظرات خاطفة مفعمة بالتوتر والترقب، عيناها محمرتان كجمرتين طازجتين، وجهها شاحب كميت خرج توًّا من القبر مشتاقا بشدة لأهل الحياة، فإن الموتى يكرهون الوحدة، كانت هناك نظرات استجداء غير طبيعية له، شعر للحظة بأنها ستسلم أمرها لرغبة جسدها في الانهيار، كانت عيناه شبه ثابتتين عليها، حاول جاهدا أن ينهي الطلبات الأخيرة للزبائن حتى يلحق بها، اتخذت ركنا في الصيدلية في وسط بعض

المستحضرات الطبية تعبث بلا اهتمام صادق، كانت نظراتها الواهنة الخائفة وعيناها المرتجفتان كافية لتعكس له مدى ما تمر به من سوء، الموعد المقرر بينهما والذي تقدم خمس ساعات كان كافيا أيضا لإثبات ذلك، دار بعقله العديد من الأفكار وهو يفكر بأمرها، كانت هناك أفكار مرعبة تتعلق جميعها ببيتر، عاد يفكر في السكون الغريب والمريب الذي كان ملاصقا لبيتر في الليلة الأخيرة السابقة حينما وجده في غرفته، الطريقة التي كان ينظر بها، الطريقة الأخرى التي ترك له الأقراص من خلالها، ودعنا لا ننسى الطريقة التي غادر بها، إنه الصمت، ذلك الصمت اللعين الثقيل، كصمت من نحب حينما نكون على خلاف معهم، ليس ذلك الصمت الذي يجعلنا نوبخ أنفسنا دون سبب ولكنه ذلك الصمت الذي يسبق العقاب..

وضع لافتة (مغلق) على باب الصيدلية؛ حتى لا يدخل مزيد من الزبائن وتعجب كثيرا للكم الكبير الذي تردد على الصيدلية في هذا اليوم، ربما يعود ذلك إلى الجو المعتدل نسبيا اليوم، حينما انتهى اتجه إليها وهو يعتذر بعينيه ولكنهما لم يتبادلا حرفا واحدا، كان هناك شيء يلجم لسانيهما، شعر بمدى ثقل الكلمات، نظر لها نظرة طويلة لا توحي بشيء، سارت بجواره بعد أن انتهى من إغلاق الصيدلية، لم ترحب بركوب تاكسي بإيماءة منها، انصاع لها وهو يفكر محاولا أن يسأل، ولكنه أخيرا وبعد محاولات فاشلة في فتح مجال للحديث، قال لها: «روكسانا هل حدث شيء؟!»،

كان وجهها يزداد كمدا وهما، أحمر فجأة وظهر له وريد أزرق في منتصف جبهتها وكأن هناك شيئا يقبض على أنفاسها، ثم نظرت له نظرة طويلة بدأت بابتسامة باهتة مؤلمة، وانتهت بدموع شهقت بسببها في النهاية شهقة قوية ومن ثم انفجرت تبكي: «إنه يقتلني يا باتريك، لم يعد هناك مجال للصبر، لم يعد هناك مجال للانتظار، يشك في كل شيء، في تصرفاتي، في مكالماتي التليفونية، لقد أخذ الأقراص التي...»، وانفجرت مرة أخرى في البكاء، كان صوتها مهزوزا وشبه منهار، نظر ديفيد حوله «هل سافر كما قلت لي؟»، أومأت برأسها بسرعة وهي تبكي بالإيجاب، ما زالت مطرقة برأسها إلى الأرض ودموعها تسيل بغزارة ولكن هذه المرة في صمت.

انطلقا سويا نحو البازيل، لم يتفوها بكلمة، كانت تحاول بقدر الإمكان أن تمسك عن دموعها، كذلك ديفيد حاول كثيرا مساعدتها في ذلك ولكن يبدو أن الأمر كان أقوى من رغبتهما وإرادتهما، كان سيسهل عليه تقبل دموعها لو كان الأمر لا يتعلق ببيتر ولكن هو يعلم جيدا كيف يعامل بيتر الضعفاء؟! كيف يستغل تلك الفرص ليبسط سيطرته على كل شيء، أغمض عينيه وهو يشعر ببعض الألم، إلا أن الألم تراجع أخيرا وهو يفتح عينيه على صوت بكاء روكسانا الحزين المتقطع الذي يعلو ويهبط من آن لآخر، لأول مرة شعر بأنه يحتال على ألمه ونظر لروكسانا نظرة غريبة، لم تكن نظرة حانية أو مطمئنة أو حتى نظرة شفقة، كانت نظرة تحمل تساؤلا غريبا، ولكن الغريب

أن ذلك السؤال اختفى تماما حينما حاول إعادته في ذهنه ليطلقه في الفراغ، وعوضا عن ذلك سأل سؤالا يعلم إجابته جيدا، «روكسانا، ماذا حدث؟!»، حسنا.. سيتفادى ببساطة تامة القرص القادم، سيتفاداه قدر ما يستطيع، سيقول لنفسه إنه ليس من ذلك النوع الذي يتحول إلى عبد لمادة لعينة تطرق رأسه بمطرقة حديدية حين ندرتها، لو كان للألم صوت لصاح في جميع الحاضرين ليخبرهم عن مقدار تملكه من رأس ديفيد، لأخبرهم بالحقيقة بأن ديفيد الآن سيتعرض لومضات لم يسبق له مشاهدتها، سيعرض له الجانب الآخر المؤلم الذي لم يره في الفيلم الشهير «صمت الحملان»، لن يرى الدماء كما كان يراها تتطاير على وجه القاتل حين رشق المنشار في الضحية، لن يرى كل ذلك ولكنه سيسمع ذلك الأنين حينما يحافظ القاتل على وعي ضحيته لكي يستمتع بألمها، سيخبر المشاهدين بأنهم لا يقلون دموية عنه حتى وإن أنكروا ذلك، سيكون ديفيد جونز هو المشاهد الأهم على الإطلاق حينما يصرخ ويصرخ وسط الحشد الحاضر، الأنين والذكريات التي تحضر في شكل ومضات سينمائية هذه المرة ستكون أنينا له طعم جديد، إنها روكسانا حينما ستبدأ في قص تلك اللوحة الدموية المؤلمة.

مذكرات روكسانا

2008 / 12 / 28

«أعتقد أن الأمر ليس مهما»، كان عليها أن تبرر ذلك حينما سألها عمن يحدثها في تلك الليلة الكئيبة، كانت نائمة على سريرها، بل نصف نائمة، استقبلت مكالمة في منتصف الليل وحينما عاد من غرفة المعيشة سألها بيتر بنوع من التوتر عن هوية المتحدث ولكنها أخبرته بأن لا شيء يستدعي ذلك، إنها الليلة التي تسبق عيد ميلاده، كانت تشعر بآلام متفرقة تأتي بين الحين والآخر لتزور رأسها زيارة غير معلنة، غير مريحة وغير مرحب بها، أدوية الصداع المختلفة كانت كحبات النعناع التي تغير طعم الفم، لا فائدة منها سوى إصابة فمها بطعم الأدوية السخيفة والمنفرة.

تصرفاته الغريبة كانت بمثابة شيء طبيعي يحدث من آن لآخر في الفترة الأخيرة، سهره الطويل، غيابه عن عمله، نظراته الطويلة لها والشاردة أحيانا كانت تقلقها بل أصابتها أحيانا بالفزع.

في هذه الليلة المشؤومة كان بيتر يحمل في يده قرصا أتى به بعد أن أخبرته بسوء الألم وما تعانيه في الأيام الأخيرة، وتذكرت أنها حين ابتلعت القرص في يوم سابق وبعد دقائق قليلة انتهى الألم تماما، لم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي تصاب فيها روكسانا بالصداع، بل كانت هذه ربما المرة السادسة في ثلاثة أيام، وإن حسبنا محصلة الأقراص سنجد أنها تعادل قرصين في كل يوم، لم تسأله عن اسم الدواء، لم يخطر على بالها سوى التخلص من

ألمها، ولكن بيتر في هذه المرة ألقى القرص بعيدا، انتبهت ونهضت من مجلسها وهي تنظر له نظرات تنم عن دهشتها، شاخصة أمامه كتمثال، نسيت للحظة ألمها وتطرقت إليه بعينين متسائلتين، ما الجريمة التي أقدمت عليها ليعاملها بهذه الطريقة القاسية؟! حاولت أن تفهم ولكنه كان واجمًا ملامحه غاضبة متقوضة تثير القلق، خافت للحظة ولكنها سرعان ما تركته بعد أن جزمت في نفسها بأن محاولة فتح أي نوع من النقاش ستؤدي بها إلى بئر بلا قرار.

بحثت كثيرا عن القرص وهي منحنية على الأرض، رأته جيدا وهو يتدحرج تحت السرير، تأوهت أكثر من مرة مع البحث، ازداد الألم وألح بشدة، وكأنه يعوي شاعرا بهزيمته القريبة، كانت تبحث كالمجنونة عن ذلك القرص ولم تعلم الدافع الحقيقي وراء ذلك في هذه اللحظات! ماذا هنالك؟! ما الذي يحدث لي؟! أسئلة كثيرة لا وقت لإجابتها على الإطلاق، لا وقت لأي شيء، «بيتر، أعطني قرصا، إن الآلام تحطم رأسي»، كانت لاهثة في هذه اللحظات، عيناها محمرتان تحيطهما هالة ضعيفة من السواد، قلبها يدق بعنف، التوتر في ازدياد، الألم في إلحاح مستمر، أمسكت رأسها بيديها بعد أن جلست على الأرض وضمت ركبتيها إلى صدرها، ضغطت على رأسها بقوة وكأنها تضغط على الألم حتى ينسحب ولكن هيهات، أطلقت صرخة قوية ومن ثم «بيتر.. أرجوك»، كان ينظر لها بعينين

ثابتتين، يبدو باردا وكأن لا شيء يحدث، يدس يديه في جيوب سترته الشتوية السوداء المغلقة بسوستة، استخدمت جهدا مضنيا حتى وصلت إليه وهي تحبو على الأرض بصعوبة بالغة، «بيتر، أعطني القرص، بحق الله أعطني القرص، إنني أموت»، لم يبد عليه الحزن أو الشفقة على حالها، ظل هكذا حتى غابت عن الوعي.

في الصباح كانت روكسانا تجلس في سريرها حينما أفاقت وبجانبها على حافة السرير كان بيتر يجلس دامع العينين يقبل يديها، «لقد استطعت أن أمدك بالقرص، الحمد لله أنت بخير يا حبيبتي، أنت بخير يا روكسانا»، وبعد أن مسح دموعه نظر لها نظرة قوية «عليك أن تستخدمي تلك الأقراص، لقد جلبتها لك، إنها الوحيدة القادرة على تخليصك من آلام رأسك، لا تكثري منها وإلا تحولتِ لمدمنة»، علمت روكسانا في هذه اللحظات أنها لن تتحول لمدمنة لأنها كانت بالفعل كذلك.

2009 / 2 / 25

«إن اللعبة التي تكسرها كثيرا لا بد أن تتكسر من تلقاء نفسها حين رؤيتك»، قرأت تلك الجملة كثيرا بالصدفة في أحد الكتب بعد أن تبدل حالها، روكسانا الجميلة المدمنة، تترقب يوميا أن ينتهي كل شيء، أن تأتي الثورة وينتهي كل شيء ولكن لم يكن ثمة شيء يأتي، وهذا ما كان مفزعا، العيش في ترقب وانتظار النهاية البائسة

التي لا تأتي، كان بيتر يعلم جيدا كيف يعزف على أوتار الخوف، يعلم من أين يبدأ وكيف ينتهي وكيف يمسح ذاكرته فجأة، لم تكن الأمور سيئة حين تبدو كذلك، واضحة، الرعب الواضح والقسوة المعلنة، ولكن كانت تبدو أسوأ بكثير حينما يكون الأمر معكوسا، مطموسا وغامضا، أكثر ما كان يفزعها ذلك الهدوء الملفع بالرومانسية البلاستيكية، كان يدفعها ذلك لأن تنوح في وحدتها، تترقب العذاب، ما تراه من بيتر جعله في عينيها إنسانا غير طبيعي أو تحول، ربما لبسه أحد الكائنات الفضائية المفزعة، تصور لها كثيرا كذلك وهي تحت تأثير المخدر، كاد يغشى عليها أحيانا من فرط الرعب وهي تسمع خطواته داخل المنزل، تلك الخطوات التي تبدو كخطوات قاتل بارد يعلم جيدا كيف يتلذذ بآلام ضحيته قبل الإجهاز عليها، بحثت في عقلها كثيرا عن أصل ما يحدث، تعرف حياة بيتر جيدا، تقلباته الناتجة عن حرب العراق وكوابيسه المتكررة عن ذلك الشاب الذي قتله، كل من رحلوا من حياته دون إنذار، لم تكن حياة جيدة على الإطلاق، ولكن ما هي النقطة التي أيقظت كل ذلك؟! ما الذي يدفعه للتلصص على مكالماتها؟! وأضف إلى ذلك أسئلته الغريبة المتوالية. أزمة من الماضي عادت في كابوس لعين! خبطة قوية على رأسه ليلا من متشرد هائم! لم تفسر الأمر في البداية سوى أنه غيرة مفرطة فهي تعلم كم يحبها، تعلم ذلك جيدا بل وأكيدة منه.

إنه يناديها من خارج الغرفة، لملمت أفكارها سريعا ومسحت عينيها الذابلتين ونظرت نظرة خاطفة على وجهها الذابل هو الآخر، تدرك جيدا أن إدمانها ليس الفاعل الوحيد فيما وصل إليه حالها، خرجت ووقفت على أول الدرج في الطابق العلوي محاولة بجهد أن تعرف مكان مصدر الصوت، ولكنها لم تعرف.

لقد كانت الدفعة قوية، ارتطمت بشدة بالسلمة الخامسة من أعلى، سمعت صوت قدمها اليمنى وهي تنكسر تحتها، صوت طقطقة رأسها وهي ترتطم بقوة في الأرض، جانبها الأيمن وهو يتهشم، وجهها وهو يصطدم بهدوء بالأرض، خبطات متتالية تنازليا بعد أن هبطت هبوطا اضطراريا، تسبب لها في كسر عظمة في فكها وكسور في يدها اليسرى وكذلك كسر في ساقها اليمنى، ولا ننسى بعض الكدمات في مناطق متفرقة من الجسد، كان يلوح لها شبح على أعلى الدرج يقف في ثبات ويدخن سيجارة، تراه كشبح غير واضح المعالم، تستطيع أن ترى وعيها وهو يفارقها، أغمضت عينيها.

أغمضتها تماما..

بعد أن قضت فترة وجيزة في المستشفى كان يتابعها بعناية تامة، يرمم لها جسدها، كانت تجلس حبيسة غرفتها، لا تقوى على الحراك، أفكارها فزعة ومشتتة، كان يخدمها بلا أدنى إحساس

بالتعب أو الضجر، بل كان في الحقيقة مخلصا في عمله كطبيب، لكنه في عينيها لم يكن سوى طبيب الشيطان، لم يبخل عليها بأقراص الإدمان، بل كان كريما فيما يتعلق بهذا الأمر إلا تلك الليلة التي لم يأتِ فيها إليها، كان في الخارج، تستطيع أن تسمع صوت التلفاز، كان يضحك بصوت عالٍ، ضحكات تحمل نكهة الذل، أنا هنا يا روكسانا، تعالي وخذي أقراصك إن شئت، إن استطعت، لا تعطني الأقراص يا بيتر ولكن بحق الله أعطني مسكنات الألم الذي ينخر في كل جسدي، رأسي الذي يؤلمني وساقي ويدي، بعد ساعتين، كان العرق يتصبب بقوة من كل جزء في جسدها، ترتجف بشدة، شعرت بأن الألم في ساقها كمسامير محشورة بقوة على جانبيه، الألم في ذراعها كان يشبه كماشة أطبقت بفكيها على عظامها دون رأفة، حاولت زحزحة نفسها، فألح الألم بقوة في كل جزء فيها، صرخت صرخة مسموعة ولكن ما زال بيتر يضحك، يضحك بشدة، استطاعت بعد جهد مُضْنٍ أن تسحب نفسها بمساعدة يدها الوحيدة، الطرف السليم حتى الآن، جلست على طرف السرير ونادت بقوة «بيتر»، كان الألم هو ما يناديه، الذل هو ما يرجوه، العجز ما يثير شفقته، أطبقت بيدها المتاحة بقوة على رأسها، آلامها تتنافس في الصعود، ولكن كان ألم رأسها هو المنافس الأقوى على الإطلاق.

«بيتر»...

ومن ثم الصرخة الثانية...

سقطت على الأرض وهي تبكي بمرارة، قبضت بيدها على ملاءة السرير وسحبتها إلى أسفل، صرخت صرخة بصوت مبحوح يفارق قوته، جهشت بالبكاء بقوة، عضت بأسنانها الملاءة وكأنها تضع مولودا متعسر الولادة، أخذت نفسا عميقا، كانت تسمع صوتا خفيا، بالتأكيد صوت هلاوس آتية من بعيد لتمنحها جزءا آخر من الشقاء، أو من الدواء، ستعلم الآن، «لا تخافي، لا تتوقفي عن التنفس، إنك تبلين جيدا، هيا لقد اقترب، إنني أرى رأسه، لا تتوقفي عن التنفس»، زحفت بصعوبة، مع كل سنتيمتر كانت تزحفه كان ألم ساقها يصرخ ويعول ليمنحها جرعة زائدة من الوجع.

«بيتر»...

«هيا يا سيدتي، ادفعي مرة أخرى، لا تتوقفي عن التنفس».

كانت قريبة في هذه اللحظات، قريبة للغاية من الباب ولكنها أشد قربا من الإغماء، تمنت في لحظة ما أن تحصل على هذا الأخير لتستريح، ذكريات حياتها المبهمة غير الواضحة في هذه اللحظات تبدو منطقية، لكنها ذكريات صارخة لا تؤتي ثمارها، لا تمنحها القوة المطلوبة.

«ادفعي بقوة يا سيدتي».

الآلام في تصاعد، الجنين في الطريق.

«بيتر»...

تستطيع أن تسمع صوت جهاز نبضات القلب وهو يصدر تلك الصفارة اللعينة التي تخبر المتواجدين أن الحياة انتهت، إنها صفارة النهاية، لقد انقضى كل شيء، آسف يا سيدي، لم تكن الأنفاس منتظمة، الحالة كانت متعسرة، آسف يا سيدي، الآلام كانت قوية ملحة، فوضوية، أسرع منا إليها.

أطلقت همسا يوحي باسم «بيتر»

ذهبت في غيبوبة..

ذهبت بعيدا..

2009 /12 / 31

نهارا

كانت جميع الأفكار عبثية في هذا التوقيت مقارنة مع هذا الألم، كغبار يتطاير بمجرد هبوب الرياح، ولم يكن الألم إلا تلك الرياح التي تطيح بكل شيء بلا مقاومة، الأفكار تبدو مجرد سائح بليد لا يعلم شيئا عن المكان الذي يزوره، لا خريطة، لا معلومات، وسرعان ما سيغادر، الملح المختلط بشفتيها الناتج عن دموعها في هذا الصباح كان له مذاق منفر، لم تكن تلك هي المشكلة الوحيدة،

أيضا العرق المتصبب منها كان يدفعها من آن لآخر لتذوقه، وكأنها قطة لاهثة أمام بئر من الماء تراه بعيدا في صحراء خادعة.

كان صباحا مريرا سبقه غياب «بيتر» تماما عن المنزل لمدة ليلة كاملة لم تتناول فيها قرصا واحدا - إن أخذنا في اعتبارنا أنها كانت تتناول على الأقل قرصين في اليوم - كانت كل الأفكار شيطانية غير مرتبة، تهرول داخل الشقة كالمجنونة وأحيانا تحبو لاهثة بلا أدنى قوة أو إرادة تبكي، تدمدم بكلمات غير مفهومة وكأنها أصيبت بالجنون، قميص النوم الذي كانت ترتديه بلونه الأسود كان مبتلا من خلال العرق المتصبب من شعرها ورقبتها وصدرها، لم يكن هناك أي شك بأنها ستناضل كثيرا رغبةً في البقاء، رغبةً في استنشاق نفَس واحد بلا ألم، أملًا في حرية مزيفة سيمنحها لها قرص لمدة ساعات قليلة، المجنون فقط في هذه اللحظات من يتخيل أن المدد قادم سريعا وروكسانا لم تكن مجنونة، لكنها كانت آملة في المستحيل، انتظرت بشوق دخولها في غيبوبة ولكن بات ذلك الأمر أيضا مستحيلا، بات خياليا، قبضت بقوة على رأسها وهي تصرخ، ولكن لم يكتمل المستحيل كما تصورت، فلقد كان هناك يطالع الغرفة - في هذه اللحظات - التي تمزقت وتحولت إلى غرفة مراهق مجنون، عبث بكل ركن فيها، حوَّلها إلى حرب أهلية، كان البرود الغريب ما زال متمكنا منه، نظراته الثاقبة المتصرة كانت خير دليل، اقترب منها دون أدنى اهتمام وجثا على الأرض ووضع

يديه على منكبيها وهو ينظر لها، الهالات السوداء أسفل عينيها، ووجهها الشاحب غيَّر من ملامحها كثيرا، ترتجف بشدة، كانت نظرته حانية ورقيقة بشكل غريب ومخيف أيضا، «لكم افتقدتك يا روكسانا، لقد انشغلت كثيرا بالعمل، ولم أنتهِ إلا منذ قليل»، نهض من مجلسه وهو يخلع سترته وكأن العالم لم يتغير، وكأن روكسانا تقف أمام مرآتها تتزين لاستقباله، كأنها صحت للتو على صوته فَرِحة بقدومه، كأنه لم يحدث شيء، ألا يوجد شيء غريب يا بيتر؟! ألا ترى أنني أودع الحياة، بالله عليك ماذا يحدث هنا؟! فكرت في نفسها، ولكن كل ذلك كان مختبئا خلف ظلال الألم والدهشة ولكن الدهشة في وقت لاحق حزمت أمتعتها وانطلقت في طريقها بعيدا عن عقل روكسانا.

«بيتر أنا متعبة، رأسي يتكسر ببطء، أنا أموت».

«لا تتخيلين مدى الأسى الذي أشعر به حينما أرى مريضا يعاني، لَكَمْ أشعر بالحزن، ولكن هذه طبيعة الحياة، أصحاء ومرضى»، والتفت إليها وهي جاثية على الأرض وقد أوشكت على تقطيع شعرها، وهي تغرس أصابعها في رأسها في محاولة يائسة للوصول إلى مكان الألم واستئصاله، «بالمناسبة أين سنقضي الليلة؟! أعتقد أنني سأترك الأمر لك، إنها ليلة رأس السنة... ها، ما رأيك لو نقضيها وحدنا بعيدا عن الضوضاء والصخب، أظن أن الأمر سيكون رائعا»،

وظهرت منه ابتسامة مراهق يحلم بأجمل ليالي رأس السنة، برحلة طويلة لفرنسا، برقصة أسفل برج إيفل، بأغنية لا يفهم معناها ولكنه واثق بأنها تحكي له عن العاشق الذي غزا إنجلترا كلها من أجل قُبلة من حبيبته الاسكتلندية المخطوفة، تلك الابتسامة الحالمة أصابتها بالرعب.

«بيتر، أنا أموت»، كان بيتر ما زال حالما بتلك الأغنية الفرنسية، شاهرا سيفه وهو ينظر إلى محبوبته بثقة وخيلاء وشوق، «أعلم ذلك جيدا، ولكن لا تجعليني أغضب يا روكسانا، واسمعي الكلام، اسمعيه جيدا، فأنا لا أود أن أغضب ونحن في انتظار ليلة كهذه»، علمت وهي تصارع الألم أنها لا بد أن تجاريه، أيها الملعون، من أنت بحق الله؟! كل هذا لن يفيد، كتمت أفكارها وغضبها، أيقنت في هذه اللحظات أن ألمها لن يزول إلا من خلال الشيطان، الشيطان الذي يستحيل أن يمنحها الحرية دون أن تدفع الثمن، نهضت بصعوبة، كانت ترتجف بقوة، كان كل شيء يبدو في عينيها مموجا، الغرفة تتراقص، وجه بيتر لا يبدو لها سوى وحش يحرك عينيه ورأسه بطريقة بطيئة ومخيفة، «لنقضها وحدنا، لنقضها في السماء أو في الجحيم، كما تحب أنت يا بيتر، ولكن أرجوك، أنا أموت»، خرجت كلماتها الأخيرة وكأنها سكيرة معربدة تترنح في أقذر شوارع أمريكا، كان ناظرا في هذه اللحظات من خلال

نافذة كبيرة في غرفة النوم، يشبه تمثالا مرعبا رأته في فيلم ما ولكنها لا تستطيع تذكره، لا تستطيع أن تزيل ذلك الألم لتتمكن من العودة إلى ذكرياتها، كانت تعلم أن صمته هذا لن ينكسر إلا على صخرة كبيرة من الألم، نعم ستنكسر تلك الصخرة على رأسها الآن.

«أقضيه في الجحيم، إنها جملة رائعة، هل ترين أنني أستحق الجحيم؟! يا عزيزتي، إن الجحيم لم يفتح أبوابه بعد»، ثم استدار بغتة بعصبية وبقوة دفعها بيديه فارتطم رأسها بالأرض، وأمسكها من قدميها وشدها تجاهه، لم تكن روكسانا تصرخ؛ لأن الصدمة كانت كافية للعصف بها، ومن ثم قطّع لها لباسها كله بقسوة وسرعة حتى أصبحت شبه عارية، بقايا قميص نومها الأسود المقطع تغطي منها جوانبها بينما نهداها وبطنها ورجلاها تواجه نظراته البشعة القاسية بلا أدنى ستار، كانت تشبه لوحة مؤلمة، بل فظيعة، جسد مبتل من تجاه الصدر والأرداف، رجفات متلاحقة لا تتوقف من فرط الألم في كل جزء من جسدها، نظر لها نظرة طويلة يتأمل جسدها، «سأمنحك اليوم للشيطان يا روكسانا، فأنت من اخترت الجحيم»، كانت روكسانا في هذه اللحظات توشك على الدخول في غيبوبة، رأته يخلع ملابسه بسرعة ومن ثم أخرج قرصا ودسه بقسوة في فمها مستخدما أصبعين، أخذته بنهم بل ومصت أصبعيه أيضا، لم تكن تأبه لشيء وإن استطاعت النطق في هذه اللحظات

لشكرته على جميله هذا، لم يكن يمارس معها الحب كبيتر بقدر ما كان يمارسه كمغتصب متلذذ بضحيته، صفعها كثيرا بينما كانت هي تتألم في حسرة، ألم رأسها شرع يغط في النوم بينما كل الآلام الأخرى شرعت تصرخ في السماء، الصمت المخيم عليها كان في الحقيقة ألما رهيبا، كانت تئن وتبكي دون أن تحدث صوتا حتى لا توقظ شيطانًا آخر يحويه بيتر داخله، حينما انتهى منها نهض من مجلسه وارتدى ملابسه، بينما هي كانت نائمة على الأرض كجثة طازجة دافئة، جسدها يتصبب عرقا، عيناها لا تنفكان عن البكاء، دموعها تسيل في هدوء وانتظام في صمت، جسدها يرتجف بقوة، جثا على ركبتيه وظهرت على وجهه علامات أخرى مختلفة تماما «ارتدي ملابسك واستحمي يا حبيبتي، سأذهب لتحضير الطعام، سأقابلك في غرفة المعيشة»، طبطب عليها وانطلق في طريقه خارجا، نظر لها نظرة أخيرة صادقة لا توحي بأي شيء غير الحب، الحب الصادق. ظلت روكسانا ترتجف في مكانها، نهضت بصعوبة بعد وهلة طويلة، أمسكت بقميصها الممزق وهي تغطي ما يسمح لها، شعرت بالذل وهو يندس بقوة في قلبها، كانت تعلم أن سقوط كبريائها شيء بديهي لا يمكن مناقشته مع نفسها، لأول مرة تبكي بصوت، جاهشة بقوة بعد صمت طويل ومرير، وضعت يدها بين فخذيها وكأنها تتأكد من أن عضو الشيطان خرج منها، كلما هاجمتها

تلك الذكريات المؤلمة في الدقائق اللاحقة نهرت نفسها وهي تصرخ بما استطاعت من قوة، جلست على أرضية الحمام، جامدة كالموت، تفكر فيما حدث، شعرت بأن ما تمر به مجرد كابوس ولكن ما كان أكثر بؤسا بالنسبة لها أنها كانت على يقين بأنها تعيش الكابوس في الحقيقة، تعيشه بكامل تفاصيله، فالكوابيس يستحيل تذكرها كاملة ولكن كان عليها أن تحفظ كل التفاصيل رغما عنها، شرع جسدها مرة أخرى يرتجف.. يرتجف بشدة..

دون توقف...

2009 /12 /31

ليلا

ارتدت فستانا رائعا مكشوف الظهر في تلك الليلة، كانت روكسانا تقف قبل كل ذلك تنظر إلى نفسها في المرآة بشكل غريب، حزين إلى حد بعيد، الذل كان يترقرق في عينيها، حاولت كثيرا أن تبكي ولكن كان ذلك مستحيلا، لم تعرف السبب في حجز الدموع في محاجرها ولكنها كانت تدري أن هناك جزءًا ضعيفًا يئن بصوت ضعيف، فقد القدرة على البكاء، بل فقد القدرة على الاستطاعة نفسها.

مر عليها كثيرا ما حدث خلال ذلك النهار البائس، كانت تنظر له من وقت لآخر وهو يتناول طعامه، لم يبدُ عليه أي شيء، وكأنه لم

يحدث شيء على الإطلاق، كان يتحدث عن المرضى والمجانين الذين يراهم من وقت لآخر خلال عمله - رغم أن تخصصه بعيد تماما عن المرضى النفسيين - ولم يبدُ عليه أي شيء آخر يوحي ولو حتى بمجرد نظرة أن هناك شيئا مختلفا، هذا الأمر الأخير بعث بالرعب في قلبها، كانت الأسئلة المتاحة في هذا التوقيت جنونية وغير مرتبة، لم تعرف سر انسياقها وقبولها بما يحدث، لم تعرف بالتحديد ما الأمر، ولكن رأت نفسها تقبل بأن تكون رهينة، أسيرة في حرب غير متكافئة، كانت الأمور بالنسبة لها تشبه السجن، لا يمكن الخروج أو الدخول دون أمر السجان، والسجان لم يكن سوى بيتر.

مسحت على رأسها بهدوء وهي تأخذ نفسا عميقا حينما سمعت صوته يتعجلها، «أنا آتية يا بيتر، لقد انتهيت تقريبا»، الكلمات المتحشرجة والنبرة المهزوزة في حلقها كانت ملفعة بدموع ساخنة سقطت فجأة حينما انتهت من جملتها، كان عليها أن تقول: أنا جاهزة لعذاب جديد، أنا لا أفهم شيئا ولكن كن رقيقا وأنت تعذبني، الرقة والعذاب، رأتهما روكسانا شيئًا واحدًا في هذه اللحظات، فالرقة المتناهية تولد العذاب، والحب المتناهي يولد التعاسة، ومن الحب الأعمى يأتي العذاب وتأتي أيضا التعاسة، ولكن كل ذلك لم يمثل ولو بنسبة ضئيلة ما كانت تشعر به، ولو أنهم أعطوها قلما لتكتب

ما تحس به لرسمت خطوطا غير مفهومة، شخبطة، لتكشف لهم عن اضطراب وغضب أحاسيسها.

خرجت ووقفت أمام باب الحمام بعد أنا أحكمت إغلاقه، شرودها في هذه اللحظات جعلها تفعل ذلك وكأنها تحكم إغلاق المنزل، كانت تشعر في هذه اللحظات بأن هواء باردا يمر على ظهرها ليداعبه، كان الإحساس طيبا ولكنه مخيف، الصمت الذي تشعره كان ثقيلا، نظرت حولها وهي تتقصى أمر بيتر، ذهبت إلى الأدراج الخاصة به في غرفة النوم، فتحتها باحثة، تنظر حولها وخلفها من آن لآخر، وكأنها تفعل شيئا غير مسموح به في منزل بيتر سميث، في منزلها، نعم كانت تبحث عن الأقراص اللعينة، فهي لن تقبل بتذوق العذاب ثانية بهذا الشكل، لن تقبله، جملة اعتراضية لا يمكن لها أن تحدث، لأن جزءًا خفيًا فيها يعلم أنها ستقبل ثانية، ولو علم بيتر بأنها تحاول سرقة جزء من انتصاره لكانت العاقبة أكبر مما تتصور، بحثت بجهد، قد يظن البعض بأن ما تفعله أمر بطولي، ولكن روكسانا كانت تعلم أنه الجزء الخفي الذي يبحث عن الحياة.

حاولت في نفسها أن تكتشف حقيقة ما يحدث، لم ذلك التغيير؟! ماذا حدث لكل ذلك؟! كانت الإجابة عقابا شديدا، الإجابة أنه لا إجابة تشفي أو تبرهن، لم يكن هناك حتى إجابات

كاذبة؛ لتمنح نفسها وبيتر تبريرا لما يحدث ولكنها اكتفت في هذه اللحظات بالبحث دون نظر لمسببات الأمور، فإن الأمر عبثي وتضييع للوقت بشكل كبير في الوقت الراهن، بالتأكيد إنه يخفيها في مكان ما هنا، وضعت يدها في درج ما وهي تتلفت خلفها من آن لآخر بشكل عشوائي ومضطرب، فتحته بهدوء، تستطيع أن تشعر بأنها تقبض الآن على شريط من الدواء، فرحة غامرة تسير بحذر نحو قلبها، وسط الأوراق والدبابيس التي يستخدمها في ربط أوراقه، وسط الأقلام وبعض الملصقات، وسط موجة من المفكرات الصغيرة التي يحتفظ داخلها ببعض التفاصيل، وجدت ذلك الشريط، قبضت عليه، فكرت قليلا، أطرقت السمع، لا تسمع شيئا، عليها إخراجه، شريط سيقوم بالمهمة، سيمنحها قوة مؤقتة وعذابًا مؤجلًا، لن ينتصر الشيطان، أخرجت الشريط وهي تنظر بعيون لامعة، لا شيء مكتوب، لا أقراص، الشريط فارغ تمام، «إنه فارغ، ضعيه في القمامة وهيا بنا يا روكسانا، لقد تأخرنا»، فزعت في مكانها ووضعت يديها بسرعة على فمها لتكتم صرخة، وقع الشريط من يدها، جحظت عيناها، إنه بيتر، لم يكن آبها على الإطلاق، قلبها يدق بصوت عالٍ، كل أحاسيسها مضطربة، نهضت من مجلسها بعد دقائق كانت خلالها مشلولة التفكير، فزعة، يمكنها أن ترفض، ولكن الرفض ليس أحد اختياراتها، وفيما بعد، ربما لن يكون.

يبدو في أجمل حالاته، أجملها على الإطلاق، ينظر لها نظرات طويلة لا يبدو فيها شيء يمكن الارتياب فيه، ولكن في الحقيقة كانت ابتسامته تحمل عكس ذلك تماما، ولم تعجبها حينما أطلقها، كانت تقول في نفسها: إن الأمور تتفاقم بسرعة جنونية ولا يمكن التصدي لها. الرقصة التي رقصاها سويا قبل تمام الساعة الثانية عشرة، رغم كلاسيكيتها وجمالها إلا أنها أصابتها بصداع غريب، لم تكن المشكلة في الأغنية بقدر ما كانت في حركاته المنظمة، لم يخطئ كعادته حينما يرقص، لا إن الأمر أكبر من ذلك بكثير، فإن بيتر لم يكن يعرف الرقص من الأساس، هذا الأمر الأخير جعلها تفكر، ولكن الرعب الذي يسري بداخلها يمنعها من ترتيب العديد من الأشياء لتبدو لها الأمور صحيحة، الرقة التي كان يدفعها تجاهها كانت كافية لأن تجعلها تؤمن وتتأكد بأن ما تنتظره من آلام وعذاب لن يكون بعيدا على الإطلاق.

تعرف أنها أصبحت مدمنة لمخدر لا تعرفه، اكتشفت أنها تحبه بشدة، اكتشفت ذلك، فلم يكن هناك سبب آخر يجعلها تتحمل الإدمان؟! سؤال غبي، روكسانا تحب بيتر بشدة، تحبه حتى الموت، ولكن الموت الذي يصنعونه في أفلام هوليود من أجل الحب يختلف كثيرا عن الموت الذي يصنعه بيتر من أجل امتلاكها، حجز لهما غرفة في الفندق، الغرفة 313، الغرفة التي يحجزها كل ليلة رأس سنة منذ تعارفا ليقضيا هناك إجازتهما، بيتر لم يلمسها في هذه

الليلة، لم يحاول، رغم أنها جهزت نفسها في الحمام كما تفعل كل سنة، ولكن هذه السنة نفسها الخائفة هي من تقوم بتحضيرها للقاء بيتر، للقاء ألم جديد من نوع خاص، فكرت كثيرا أن تفتح فوهة المدفع وتدفع كل ما تشعر به تجاهه وليحدث ما يحدث ولكنها كانت تشعر بالألم، الألم الذي بدا عمله سريعا وملحا، مصمما على النفاذ ليكون السبيل لتحرير صك ملكية لها وإعطائه إلى بيتر بكل حرية واقتناع.

أعطاها القرص دون مناقشة، دون حتى أن تسأل، وخلد إلى النوم بعد أن أخبرها بأن عليهما العودة للمنزل في اليوم التالي، كانت متعجبة للغاية، طريقته كانت عادية في الحديث، هل شعر بآلامها؟! بالتأكيد فهي تعلم تماما بأنه يحبها، أو كان، ومن ملك الحب يعلم تماما أن هناك جزءا فيه لا يستطيع رؤية من أحبه متألما، ذلك الأمل الضعيف أو الكاذب كان يلوح لها، البراءة التي يتمناها المظلوم رغم علمه بقصور أيدي العدالة، والعدالة أبدا لا يمنحها البشر، كانت تعلم بكل ذلك ولكن هناك دافعًا قويّا يمنحها ذلك الأمل الكاذب، أمل المقهورين، المنافق العالمي والخبيث أيضا، ولكن كان بالفعل أملا كاذبا، ليس لأن بيتر ضرب بأملها عرض الحائط ولكن لأنها لم تستطع النوم، كانت نائمة ترتجف، خائفة من أن يشعر برجفتها تلك، الدموع تسيل في صمت على وجنتيها، لتسقط مريرة على وسادتها الغريبة، كلما خرج نفسه المنتظم رأته

ينهض فجأة ويخنقها مستخدما تلك الوسادة، يكتم أنفاسها بهدوء وبلا تردد، وللحظة غافلها النوم.

كانت المخدة ثقيلة على أنفاسها، كانت تتحرك بكل قوة في بداية الأمر، تحرك يديها بقوة، تدفعه من صدره وبطنه من فوقها بكل ما أوتيت من عزيمة، لكنه يعلم جيدا كيف يطبق بها على أنفاسها، كان ذلك مباغتا، والمباغتة هي الجزء الأهم في تنفيذ خطة القتل، اللحظة التي غطت فيها في النوم هي اللحظة الأمثل، جاء الموت سريعا على أيدي بيتر هادم الآمال السعيدة والإيجابية، كانت تحرك يديها بشكل جنوني في الفراغ الفاصل بينهما، لا تستطيع الآن أن تلمس صدره، لا تستطيع أن ترى وجهه الشيطاني، لكنها تستطيع أن تتخيله، أنفاسها تنسحب، شرعت حركة يديها تهدأ، كأنها تتخدر رويدا، لا تستطيع أن تفعل شيئا آخر سوى البحث في الفراغ ربما تجد شيئا يهون عليها اللحظات الأخيرة والمفجعة، «تريدين حريتك، سأكون سعيدا بأن أمنحها لك يا روكسانا»، أخرج تلك الكلمات بقوة وعصبية وقسوة، نبرته الشريرة توحي بذلك، يبدو صوته كشبح يقف بعيدا وهي تستغيث بأنفاسها الأخيرة.

نهضت مفزوعة وهي تضع يديها على رقبتها، جحظت عيناها وهي تتأكد من أنها تمارس الحياة، إنه نائم كما هو، تتنفس بصعوبة شديدة، كتمت أنفاسها وفزعتها بصعوبة، لم يقتلها بعد، لم يحدث ذلك.

غريب أنه لم يحدث..

36

مر وقت طويل حتى استفاق ديفيد من غيبوبته، الأمر جاء تدريجيا، شعر بآلام لم يحسها من قبل، كانت كل كلمة تخرج من روكسانا تشعره بأن السماء ستسقط على رأسه، إعصار رهيب اقتلعه من جذوره، كان عليه أن يكون مثابرا في لحظات تنعدم فيها المثابرة، حاول طمأنتها في بداية الأمر ولكن هذا الأمر الأخير بدا مستحيلا حينما توغلت بكل تلك المعاناة في إيقاظ العديد من الذكريات المريرة لديه، شعر بأن أحدهم يغرس دبابيس طويلة وعميقة وحادة في أعمق مكان في رأسه المسكين، الومضات هذه المرة كانت قاسية إلى أبعد حد، لم تأتِه بهذه الطريقة من قبل، حاول مرارا أن يجد الخلاص حتى لا تشعر بأنها تبحث عن الدواء داخل مريض لا يقل مرضا عنها، رأى أن ما فعله بيتر به لم يكن سوى رحمة كبرى، بيتر الشيطان، توقف لحظات أمام كلمة الشيطان، لم يكن الشيطان في مخيلته واضحا، ملامحه كانت تتغير لترتسم في العديد ممن قابلهم في حياته، والده السكير وأمه التي هجرته والشاب المقتول في العراق، وأخيرا بدا له الشيطان مبتسما واثقا وهو واقف في ركن

من الأركان المظلمة وهناك هالة مخيفة وضعيفة من النور تحدد عينيه، ولكن وجهه لم يكن واضحا.

استند إلى الخلف ودس يده في جيبه وأمسك بالأقراص الثلاثة، أطبق يديه بشدة عليها، الآلام الرهيبة تثور بقوة في رأسه، في ذكرياته، روكسانا مسترسلة تبكي من آن لآخر في صمت، لم يكن الرعب بعيدا عنها، كانت تتلفت من وقت لآخر حتى لا يرها أحد، علم أنها وجدت من تبوح لها بسرها قبل أن تلقى مصيرها على أيدي بيتر أو على أيدي الرعب، في كل الأحوال النهاية ستكون قاسية... وخيمة.

كان وجهه يزداد احمرارا من وقت لآخر، إحساس يدفعه للانفجار، آلام روكسانا التي قصتها عليه لم تكن سوى آلام تتكرر أمامه، كائن ضعيف يقص انتصارات الشيطان، شعر بالدوار، أمسك بطرف المفرش الذي يغطي المنضدة وكأنه يستغيث بشيء ما، قرر أن يمنع روكسانا من الاسترسال ولكن شيئا عميقا في نفسه منعه من ذلك، لم يعلم السر، ولكن ذاك السر كان قريبا جدا قبل سقوطه، السخونة الغريبة التي تملكت منه، العرق المتصبب، دوار عنيف، إجابات غير مكتملة، ومضات، لن آخذ قرصا واحدا.

سقط ديفيد...

غاب تماما عن الوعي..

37

عزيزي باتريك بلامر

الألم رواية قديمة تقارب عمر الزمن، لكنه أبدا لا يهرم.

38

حينما استفاق ديفيد تلفت حوله متعجبا، كانت روكسانا هناك تنظر له نظرة شفقة، ربتت عليه وابتسمت ابتسامة خفيفة مواسية «الحمد لله أنت بخير، لم أكن أتخيل أنك حساس إلى هذه الدرجة، أنا آسفة، آسفة للغاية، يبدو أنني تماديت وتسببت لك في العديد من الآلام»، في بداية الأمر لم يفهم تماما ما قالته، في الحقيقة لم يسمعه لأن الأصوات كانت ما زالت بعيدة وكأنها آتية من مذياع بعيد جدا لا يمكن التقاط شيء منه سوى الهمس، كانت عيناه غريبتين، نظراته تحمل العديد من الأسئلة ولاحظت روكسانا ذلك، أعادت ما قالته مرة أخرى، نهض من مجلسه دون أن يتكلم، نظر لها طويلا نظرة غريبة، نكس رأسه إلى الأرض وانسحب وقتها بعض العاملين الذين ساعدوها في حمله وإفاقته حينما تأكدوا أنه بخير، نظر حوله وهو يتفقد المكان وكأنه يراه لأول مرة، كانت الآلام قد ذهبت بعيدا، تكورت خائفة في غرفتها المظلمة ذات النافذة الوحيدة المفتوحة، نظر إلى روكسانا نظرة طويلة أخيرة، كانت عيناه تحملان لمحات مريرة من الذكريات، لم يكن ينظر لها ولكنه كان هناك في

مكان ما، مكان هو وحده يعلمه، في الحقيقة هذا المكان كان يبدو مشوشا غير واضح لأنه في النهاية أطرق رأسه إلى الأرض مفكرا ومتعجبا أيضا، ولكن كل ذلك لم يخلُ من المرارة.

«آسفة ولكنني استعنت بقرص من الأقراص التي تحملها في سترتك، لم أدرِ ماذا أفعل! كنت منفعلة وخائفة ولقد سألني أحدهم إن كنت تعاني من شيء ما، فلربما تحمل معك دواء معينا تأخذه باستمرار، فأنت تعلم مثل تلك الحالات، كنت مشوشة ولا أعلم ماذا أفعل، فوجدتها، كنت مرتجفة وخائفة، ولكن أنت بخير الآن».

جحظت عيناه وهو يدس يده بسرعة في جيوبه، وكأن أحدهم أخبره بأنه يحمل في جيب سترته التذكرة التي فازت بجائزة اليانصيب، بلع ريقه حينما وجد قرصين ولكنه لم يخرجهما من جيبه، بل أخرج يده فقط فارغة وهو ينظر لها متأملا، «باتريك، هل تسمعني؟! أقول لك...»، أومأ برأسه مقاطعا بهدوء «نعم.. نعم أسمعك»، شعرت روكسانا بأنها تعدت حدودها فالتزمت الصمت وهي تنظر بعيدا عنه بإحساس ملفع بالمرارة والذنب أيضا، شعر بذلك وتأكد في نفسه أيضا أنها لم تنتبه أبدا لحقيقة تلك الأقراص في وسط ما حدث، كما أن حالتها لا تؤهلها إلى تقصي أي أمر كذلك، شعر بالحزن في نفسه، اكتشف بعد ذلك أن الإحساس الغريب الذي مر به لدقائق لم يكن من تأثير أي شيء، في الحقيقة، لقد كان ناسيا تماما من يكون،

نعم هذه هي الحقيقة، لم يكن ديفيد جونز، لم يكن باتريك بلامر المزيف، لم يكن أيًا منهما على الإطلاق.

دس يديه في جيوب سترته مرة أخرى وهو ينظر لها بعد أن استعاد نفسه «أنا آسف، لقد أقلقتك بدلا من مساعدتك ولكن كُوني على يقين من أنني سأفعل ما يتوجب عليَّ فعله لإنقاذك من هذا كله»، لم تنطق روكسانا بكلمة رغم الصدق الذي شعرت به في نبرة ديفيد وهو بدوره شعر أيضا بأنها لا تعير الأمر انتباها، أمسك بيدها وأقسم على ما قاله، نظرت له نظرة حزينة ولكنها انتهت بابتسامة باهتة تحمل بصيصا من الأمل، سألها عن بيتر بعض الأسئلة التي يعرف إجاباتها.

وصل إلى نقطة ما جعلته صامتا لبعض اللحظات حيث بدا أن هناك فكرة بزغت في الأفق، فكرة ماكرة ولكنها بدت له الجزء المطلوب والواجب تنفيذه في هذا التوقيت، «إن كنت بالفعل بحثت في كل أرجاء المنزل عن تلك الأقراص اللعينة ولم تجدي شيئا! فإنه من المؤكد أن هناك مكانا آخر يحتفظ فيه بيتر بهذه الأقراص، يا ترى أين يمكن لنا أن نجدها؟! لأننا في البداية يجب أن نوفر تلك الأقراص، لا تعلمين كم قاسيت للحصول على هذا الشريط لك، ولا أعلم إن كنت سأحصل عليها ثانية، وفي هذه الحالة ستعودين مرة أخرى أسيرة له، بالتأكيد سنجد ما يساعدنا، في الحقيقة دكتور إيفان هي من أخبرتني عن مكان تلك الأقراص وامتنعت عن ذكر اسمها

لي، وبما أننا أصدقاء لم أحاول خوض حديث معها بخصوص هذا الشأن، خصوصا أن الأمر خاص بكما كصديقتين، ولأنني بالتأكيد لا أعلم أنها مواد مخدرة ولكنني فقط تكهنت بذلك، وهي في المقابل لا تريد خسارة من جانبين، الجانب الأول: خسارة صداقتك من خلال البوح بسرك، والجانب الآخر: حتى لا تبدو أمامي طبيبة غير وفية لأصول مهنتها وغير جديرة بكونها طبيبة، كما أننا لا نعلم السر الذي يخفيه بيتر بشأن إيفان، لأكن صريحا معك، أنا أشك في علاقة بيتر بإيفان»، رفعت روكسانا حاجبيها وهي تشعر بالصدمة والتعجب معا، هزت رأسها وهي تنفي بقوة ما يقول، «ألا تدركين ما أنتِ فيه؟! حتى هذه اللحظة وأنتِ تبررين ما يفعله بك، أظن يا روكسانا أن هذا أمر لا بد من الخلاص منه، يجب أن تفهمي جيدا، إنك تطيحين بنفسك أمام ضعفك ولن أستطيع مساعدتك إلا في حالة واحدة، أن تعرفي أنك.. زوجة الشيطان».

كانت كلماته قوية ومدوية، تحمل تحديا، «الخزانة 27»، حاول ديفيد حينما نطقت بهذا الرقم أن يمنع نفسه عن رد الفعل المبالغ فيه الذي خرج منه، جحوظ عينيه، قبضة يده التي ضربها بقوة على المنضدة، الغضب الذي لاح على وجهه، ولكنه أخيرا توقف بصعوبة وهو ينظر إلى علامات التعجب والخوف التي ظهرت على وجه روكسانا في هذه اللحظات، أخذ نفسا عميقا وفكر بصوت مسموع، «الخزانة 27؟!».

«إنها الخزانة التي تخصه في المركز الطبي الذي يعمل فيه، أتوقع أنه يحتفظ بالأقراص هناك، ولكن أنا خائفة، ألم تسمع جيدا ما قصصته عليك».

«لا عليك، كل ما أسعى إليه هو الوصول إلى هذه الأقراص، وبعدها يمكنني معرفة سرها، كما أننا ربما نجد شيئا آخر يفيدنا»، نظرت له بعين متشككة «أنا لا أريد أن أوذيه، إن بيتر لا يحتاج إلى الأذى، إنه يحتاج إلى العلاج»، ابتسم ديفيد ابتسامة خفيفة وساخرة في نفس الوقت، أيتها الرقيقة، مع كل ما حدث لك ما زلت تخافين عليه، ما زلت تؤمنين بأنه يستحق الحياة، «لا تقلقي، ولكن كل ما أريده نسخة من مفتاح خزينته تلك إن استطعت»، جحظت عيناها وقفز الرعب فيهما وانكمشت على نفسها، ارتجفت شفتاها، كان كل جزء فيها يرقص خائفا «لا»، وأصر ديفيد على طلبه وهو يمنحها جرعات متتالية من القوة والمثابرة، انصاعت له رغم محاولاتها الجهيدة في إقصاء الأمر، لم تعده بشيء ولكنها قررت أن تحاول.

39

في الحقيقة كان الطريق إلى الفندق طويلا، طويلا للغاية، هكذا بدا الأمر له حينما وصل غرفته، ما حصل عليه ديفيد في هذا اليوم كان بعيدا تمام البعد عما كان يجول في رأسه. لم يتخيل للحظة أن الأمر سيكون على تلك الشاكلة، دبيب الألم كان بعيدا ولكنه كان يشعر به، شعر بدوار بين لحظة وأخرى ولكنه تمالك نفسه من خلال تفكيره الذي شرع في الانتظام رويدا، شعر بغضب من لحظة لأخرى، وضح ذلك في خطواته المنفعلة والسريعة، تذكر فجأة أنه ابتعد تماما عن المهمة التي يجب عليه القيام بها، لم يبقَ أمامه سوى ثلاثة أيام، لقد انقضى اليوم الرابع، شعر بأن الحياة تكشر عن أنيابها، تقترب بشدة، المسافة ليست كبيرة وستلتهمه دون رحمة، سيموت دون أن يعرف الحقيقة، دون أن ينقذ نفسه، دون أن ينقذ روكسانا التي أصبحت بالنسبة له قضية، مسألة حياة. في الحقيقة وفي جزء منه كان يعلم أن روكسانا بما تعانيه تمثله هو، فكر في أمرها كثيرا، كلما تذكر شيئا من مذكراتها البائسة شعر بالألم، ألم لم يشعره تجاه أحد ربما على طول حياته، على الأقل لم يكن هذا الألم معلنا، فهو

بطبيعته لم يتعاطف يومًا إلا مع نفسه، وهذا الأمر الأخير جعله يدرك أنه فقد الكثير، هذا من جانب، ومن جانب آخر كسب عدم انخراطه في أمور تبعث على الغثيان، إن ديفيد جونز أيقن بأشياء كثيرة في جولة صغيرة إلى المكان الذي يمكث فيه، كانت الصراعات التي تمر برأسه وتتخلل تفكيره واضحة جلية، ولكنه أبعد بعض الأفكار السيئة عنه ليستطيع إكمال مشواره المتبقي منه بالضبط ثلاثة أيام، أبعد فكرة الكرسي الكهربائي، بل إنه في الحقيقة قرر أن يجلس عليه بعد أن يقتل بيتر، لتبدو له الأمور عادلة، ارتكاب جريمة بشعة تساوي ميتة بشعة.

المعادلة سهلة...

اليوم الرابع

الورقة الرابعة

بيتر سميث

علمت من روكسانا أنك مسافر اليوم، لهذا السبب أعطيت لي ثلاثة أقراص، تساءلت كثيرا عن سر صمتك، ربما لتقصيري في مهمتي، تلك المهمة التي يجب أن تنقضي خلال أسبوع وكأننا نتحدث إلى رجل محترف يستطيع التصرف في مثل هذه الأمور، رجل غير معرض للتهديد، غير مدمن، معافى تماما، لا ينتظره الكرسي الكهربائي، ألا تدرك عزيزي بيتر ما أمرُّ به، امنحني بعض

الوقت، فالأمر بصراحة تامة يحتاج إلى الكثير من الوقت، أنا لا أبرر لك شيئا ولكنني أقول الحقيقة صادقة وعليك أن تقرر.

ديفيد جونز

2011 / 12 / 28

اليوم الرابع

الورقة الرابعة

ديفيد جونز

إن الأمور تتفاقم بشكل غريب ولكن يجب ترتيب الأمور بالشكل الصحيح، أعتمد على روكسانا كل الاعتماد الآن للحصول على المفتاح الخاص بالخزانة رقم 27، ذلك السر الغريب الذي بعثه مجهول لي، هناك خيط أكيد يربط ما يحدث ببيتر، أمر قديم ويجب معرفته، حينما تكون الخزانة التي يملكها بيتر هي نفسها الخزانة التي ذكرت في الورقة وهي نفسها الخزانة الخاصة بي يوما، فهذا أمر يجب أن يؤخذ في الاعتبار، فقد يكون بيتر هو من جهز لكل ذلك ولكن السؤال لمَ؟! شخص مريض مثله أستطيع أن أتوقع منه أي شيء، نعم يستطيع أن يستغلني بهذه الطريقة المريرة، هل هو من قتل هيلدا؟! سؤال إجابته صاخبة تحمل مزيدا من الغضب والغموض، آه لو ثبت لي هذا الأمر، سيكون الكرسي الكهربائي هو النهاية لا محالة، سأكتشف كل شيء قريبا، أتمنى ذلك.

هناك أشياء تخص روكسانا في ذكرياتها، ماذا لو كانت روكسانا بالفعل خائنة؟! ولكن هل تخون امرأة بضعفها الذي وصلت إليه؟! ذلها المتواصل من قبل الشيطان يمنعني من تصديق ذلك، لربما فعلت ولذلك يعاقبها، لا! لا! لا أظن، فمن مثل روكسانا هن كائنات ضعيفة مستسلمات لأقدارهن، يقبلن بكل شيء في صمت، بل ويبررنه أيضا، هو أجبن من أن يقتلها، ربما أنه الحب، ولكنه الحب الذي يعمي البصيرة لنجعل ممن نحبهم ضحايا، أعتقد أن الأمور أعمق من ذلك بكثير، هناك شيء لا أفهمه فيَّ أنا.

شرعت الآلام تصحو، لقد قفزت فجأة من النافذة المفتوحة، حريتها صاخبة هذه المرة ولكنه تمسك بالقلم، وجد ورقة بجانبه مطوية ومكتوبا عليها اسمه، ورقة غريبة ودخيلة لم ينتبه لها إلا الآن، أمسكها وفتحها وهو يضع إحدى يديه على جبهته محاولا التوسل إلى الآلام، نظر بطرف عينه قبل أن يقرأ إلى سترته التي يوجد بها القرصان المتبقيان ثم نظر إلى الورقة مرة ثانية وقرأ:

«هناك أشياء تبحث عنها في الخارج، إنها ليست هناك بكل تأكيد، إنها بداخلك، عليك أن تبحث في المكان الصحيح قبل أن تقرر عملية البحث، فإن البحث الجيد يعتمد كل الاعتماد على المكان، لا تضع الوقت».

صديقك الوحيد

روبرت

أغلق ديفيد الورقة وهو يشعر بالتشتت، ما الذي يقصده صديقي الوحيد؟! لماذا دائما يبدو مبهما؟! نعم إنه خطه، أنا أعلمه جيدا، أرجوك يا روبرت امنحني شيئا واضحا بدلا من تلك اللعبة السخيفة التي تلعبها معي، شعر بدوار رهيب ولكنه نهض من مجلسه سريعا متألما وأخذ قرصا آخر، غاب لدقائق داخل الحمام، لم يكن يفكر في أي شيء، لم يكن قادرا على ذلك، سمع ذلك الصوت الهامس يهمس له مرة أخرى بنفس الكلمات «ديفيد، لا تضع الوقت وانج بنفسك، إنهم في كل مكان، عليك أن تهرب إن سنحت الفرصة، اهرب بعيدا»، خرج سريعا وعاريا باحثا عن مصدر الصوت ولكنه أيقن أن ذلك الصوت يأتي من الاتجاه الآخر من الحمام، الاتجاه الذي لا يمكن الوصول إليه، وبعد أن قرر ارتداء ملابسه، وقف قليلا في الغرفة يتأمل ما يحدث، شعر بالجنون وأنه أوشك على قتل نفسه من زخم الأفكار وغرابتها في رأسه، هدأ قليلا مع هدوء ألم رأسه، سقط على الكرسي الشبحي وأعاد رأسه إلى الوراء مفكرا، جالت بخاطره روكسانا، امتعض بشدة، بكى وكأنه طفل صغير يتيم جائع بلا مأوى، أمسك بالقلم، لم يكتب شيئا، فقط كتب..

ديفيد جونز

2011 /12 / 28

ديفيد

«أنت تملك الحزن؛ لأنك تملك الخطيئة، وأعتقد أن هذا شيء جيد».

باتريك بلامر

40

لا يمكن أن يرى من هو في الخارج ما يحدث في الداخل حتى لو قصصنا له آلاف المرات ما يحدث، حتى لو تم قصه مع تمثيله بإتقان، لا يمكن أن يحدث ذلك؛ لأن هناك أشياء كثيرة ستكون مفقودة من تلك الحلقة، إن التمثيل لن ينقل حقيقة الإحساس الحقيقي لما حدث في الداخل (الواقع)، لن تكون التأثيرات هي نفسها وستكون متعارضة مع عالم الواقع (الداخل)، لن يكون الممثل بارعا ليقتل مثلا بشكل حقيقي، ولكنه في الحقيقة سيكون دراميا مؤثرا، إن هناك شيئا أخيرا أيضا، أعتقد أنه سيصحو فجأة حينما يصفق له الجمهور على أدائه المبهر بينما من هم في الواقع (الداخل) سيموتون، ربما للأبد.

دارت تلك الفكرة في رأس ديفيد جونز وهو في صباح اليوم الخامس منتظرا بنفاد صبر خبرا من روكسانا، المفتاح اللعين، فك أحجية الرمز الغامض، معرفة حقيقة باتريك بلامر، كان شاردا معظم الوقت، غير منتبه لما يحدث في الصيدلية، كان شبه غائب عن الوعي في أحيان كثيرة، يتحرك كآلة أوشكت على التعطل، تلفظ

أنفاسها الأخيرة، مهموما ومفكرا بكل شيء، أدرك جيدا خلال ثوانٍ أن هناك شيئًا فيه قد تم فتحه، ذكرياته المريرة التي تتقلب عليه مع تلك الومضات التي أصبحت أكثر وضوحا صارت قذيفة تفتته بلا رحمة، لم يعد يهز رأسه لإزالة تلك الومضات، بل شرع يتركها حرة تفعل ما تريد، أدرك أنها لا تأتي هباء، أدرك أيضا أن عليه الوصول إلى البؤرة، البؤرة التي تحوي كل شيء، في اعتقاده أن هذه البؤرة هي باتريك بلامر.

لم يتنبه إلا بعد ثوانٍ معدودة حين أمسكت روكسانا بيدها المرتعشة يده وهي تبتسم ابتسامة باهتة وخائفة، كانت ترتعش بشكل غريب ولكنه لمح في عينيها تلك النظرة المواسية، تعلم جيدا أن ذكرياتها المريرة تعد حملا كبيرا على ظهر أي شخص، ولو كان جبلا لانقسم إلى نصفين، نظر إليها طويلا ومتأملا، كان يراها هيلدا في هذا التوقيت، فجأة ودون سابق إنذار جال بخاطره موقف كهذا دار بينهما، نعم يستطيع أن يراه في مكان ما وفي ساعة ما، لا يعلم بالتحديد التفاصيل ولكنه يستطيع أن يرى هيلدا جيدا بتلك النظرة الحزينة الخائفة وهي تتودد إليه، تمسح أحزانه بلمسة من يدها الرقيقة رغم أنه لم يكن حزينا كحاله الآن، عاد مرة أخرى على صوت روكسانا وهي تناديه بهمس مسموع وواضح «باتريك»، أيقظ ذلك الاسم ما طلبه منها بالأمس، أعاد إليه أيضا الهمس الذي

ينصحه بشكل غريب، ذلك الصوت الخفي الهامس الذي يدفعه بلا سبب إلى شيء لا يعلم نتيجته أيضا.

بعد غياب قصير في التفكير، عاد يحدق في عينيها، لا بد أنه تكهن بالحقيقة في نظراتها ووجهها؛ لأنه بعد ذلك ابتسم ابتسامة خفيفة توحي بالشكر والامتنان؛ لأنه يدرك جيدا أنه عرَّضها لخطر داهم مع مخلوق لا يرحم، بيتر سميث، ذلك المخلوق الغريب والمتوحش، أعطته المفتاح، كانت تخبئه داخل علبة من علب الأدوية التي كانت تمدها بها دكتور إيفان «أرجوك، لقد عرضت نفسي للخطر، حاول أن تكون حذرا، فأنت لا تعرف بيتر»، لا تنصحيني يا روكسانا، فأنا أعلم عمن تتحدثين جيدا، أعلمه ربما كما تعلمينه، فكر في نفسه وأخيرا أومأ برأسه شاكرا ولم يتفوه بكلمة بعدها وحينها غادرت روكسانا من باب الصيدلية، وقفت على الباب قبل ذلك ونظرت له نظرة طويلة حزينة قلقة بينما هو ظل ناظرا تجاه الباب حتى بعد أن ذهبت بعيدا، كان الشرود متملك منه، ولكنه عاد على صوت الزبائن في الصيدلية وقرر أن يأخذ قسطا من الراحة، حيث شرعت خطته في الظهور، شرعت بقوة تطفو في عينيه وفي نظراته الحادة التي كان ينظر بها من آن لآخر حتى إلى مرايا الصيدلية الموجودة حوله وكأنه يؤكد لنفسه ما انتواه.

انطلق ديفيد جونز في هذه اللحظات نحو المركز الطبي لمدينة كارسون، اتجه إلى أقصى شمال شارع كارسون، كان المركز الطبي يقع على يسار الطريق، وقف طويلا وهو ينظر إليه، مفكرا، يدس يديه في جيوب معطفه الطويل الأسود، مطرقا إلى الأرض، المعطف الذي يرتديه يتمايل من أسفله حتى خصره مع الرياح التي شرعت تقوى، كان يستطيع أن يستمع إلى هدير الرعد في هذه اللحظات، كان صوته قاسيا ومرعبا ومنذرا، كوحش يزأر متوعدا أهالي مدينة كارسون.

من منطقة ما ارتدى هدوءا غريبا، كان يلبسه بشكل هو نفسه تعجب منه، فلم يكن ليتخيل أنه سيكون على هذا المنوال، لم يتخيل ذلك على الإطلاق، ولكن حدث ذلك وفرح له، دفعه هذا الشعور إلى الإحساس بالنصر القريب في مهمته الخطرة، ماذا لو كان بيتر في الداخل؟! ماذا لو اكتشف ما فعلته روكسانا؟! آه لو رآني، ستكون العواقب وخيمة، امتلأت قبضته بالغضب والحذر معا وهو يسير في ثبات إلى الداخل دون أن ينظر إلى أحد، مشية عسكرية وصلبة ولكنها تعكس شخصية طبيب يعلم تماما وجهته، يمر من هنا كل يوم، نعم هو بالتأكيد كذلك، فلقد كان يعمل يوما في هذا المكان، يعرف جيدا كل ركن فيه، ويعلم أيضا أين تقع تلك الخزائن الخاصة بالأطباء، تلك الخزائن الملعونة التي تقع في الطابق الثالث – هناك الغرف الخاصة بالأطباء وبأمتعتهم واستخداماتها المختلفة –

المبنى مكون من أربعة طوابق، جدرانه بيضاء، يتمتع برعاية صحية عالية ودقيقة، أرضه مصقلة بنوع ممتاز من السيراميك الأبيض، تجد لوحات تحذيرية وإرشادية أيضا في كل مكان من المبنى هذه «ممنوع التدخين» وأخرى «ممنوع الإزعاج» وأخرى «ممنوع الدخول»... إلخ.

وصل إلى الاستعلامات، كان يقف على مسافة مترين أو أكثر قليلا وهو ينظر إليهم، نظر إلى الأمن المتواجد بالمكان، هذا هاري الوسيم، وهذا أيضا راؤول الأسباني المجنس بالجنسية الأمريكية والد البنتين الأصَّمتين، يتحدثان سويا، إنهما من أمن المستشفى، يستطيع أن يرى أيضا عبر الممر الطويل الممتلئ بالحجرات التي يدخل ويخرج منها الأطباء والممرضات بعض الأمن المكلف من قِبَلِ ولاية نيفادا للحراسة، منهم من يشرب القهوة ومنهم من هو جالس يقرأ الجريدة أمام إحدى الغرف، استوقفه شيء أعاده إلى الخلف سريعا، شعر بالرعب، فكر بسرعة، هرول بخطوات سريعة في الاتجاه الآخر من الممر، حاول ألا يبدو عليه شيء، دقات قلبه متسارعة، كان ينظر بسرعة عن يمينه وعن يساره داخل الغرف حتى وجد غرفة فارغة تماما، فدخلها وأغلق الباب، لم يقرأ اللوحة الموضوعة على الباب، لا يهم، المهم أن يتوارى عن أعين الشيطان، أعين بيتر سميث، كان هناك صوت في أذنيه «لا أعلم

هل الله سيعينك يا ديفيد أم أن الله سيمنح الشيطان فرصة أخرى *كما منحها له في بداية الخليقة ليكون عونا لجهنم في حشر المزيد* من ضحايا النزوات والخطايا». عليّ أن أبقى هادئا لوهلة، إن بيتر كان قادما في اتجاهي، لا أظن أنه رآني، لا أظن أن ذلك حدث، أتمنى ذلك.

41

وقف وهو يلهث وكأنه كان يجري على قضبان حديدية ويلاحقه قطار، كانت قبضته في هذه اللحظات تصب عرقا من شدة إمساكه عليها جراء ذلك الرعب الذي يقفز في قلبه، لو جاء الشيطان لقتلته، سخر من نفسه اللعينة بعد ثوانٍ، لماذا لا أواجهه إن كان الأمر كذلك؟! لا تكن بطوليا يا ديفيد، هذا ليس بالوقت الذي تتصارع فيه الخيوط. هدأ قليلا وفتح الباب قليلا بهدوء وحذر كبيرين وهو ينظر من ذلك الجزء الذي لا يستطيع أن يمر من خلاله سوى فأر صغير، نظر بعين واحدة وهو يتفقد الممر في الخارج، لم يكن يستطيع أن يرى المشهد كاملا، أخذ نفسا عميقا، شعر بألم طفيف في رأسه، وتذكر أن معه قرصًا واحدًا، القرص المتبقي بعد ليلة أمس، دس يده في جيبه وتأكد من وجوده، يستحيل أن تأتي العواقب جميعها في لحظة واحدة، ولكنه كان يدرك أن الحقيقة غير ذلك، إنها تأتي مريرة لاذعة ومتلاحقة، نفض عن رأسه قليلا تلك الأفكار السوداء وانسحب إلى الخارج محاولا بقدر الإمكان أن يهدئ من روعه، حاول أن يبدو طبيعيًّا ولكن من تلك الشفتين المرتجفتين والعينين

الزائغتين يمكن التكهن بالرعب المختفي في كل جزء منه، رأسه منخفض قليلا ولكنه ثبت عينيه أمامه بعد لحظات وهو يمسح المكان ككاميرا ضوئية لا تغفل شيئا.

اتجه إلى الطابق الثالث، هناك الغرفة التي توجد بها الخزائن، وقف قليلا، نظر حوله بهدوء، لم يكن هناك ما يثير الخوف، قابله في الممر المؤدي إلى الغرفة المقصودة العديد من الأطباء والممرضات، على مقربة من الغرفة الخاصة بذلك، شعر بأن خطوات تتبعه، قرر أن ينظر إلى الخلف وبدا ذلك تماما من حركة رأسه إلا أنه تراجع تماما وظل ثابتا بقدر الإمكان، محاولا ألا يبدو مريبا لمن حوله، كانت الخطوات واضحة، تحمل نفس ترتيب ونغم خطواته، شعر بأن قلبه سيخطو خطوة مفاجئة وصادمة ليلقي بنفسه من على حافة صدره وينتحر، حاول أن يرفع يده ليصد قلبه عن قراره، بدا له الممر طويلا والغرفة بعيدة جراء الرعب الذي يدب فيه، في الحقيقة كانت الغرفة تقترب، تقترب للغاية وكل الأمنيات تقفز في ذلك القلب البائس بعدم حدوث ما لا يحمد عقباه.

اختفى داخل الغرفة وأغلق الباب خلفه، نظر إلى كم الخزائن المتراصة فوق بعضها البعض، من 1 إلى رقم ....، لا يعلم، تبدو له كثيرة جدا، متراصة في شكل عمودي، الغرفة كبيرة جدا،

تستطيع أن تسع الكثير، كما أن ارتفاع الخزائن داخل الغرفة قد يصل إلى متر و70 سنتيمترا، اختفى في وسطها بعد أن شعر بأن مخيلته المرتعدة هي ما صورت له شخصا يراقبه، يتبعه، كان هناك طبيب بالداخل يقف في مواجهة خزانته، نظر إلى ديفيد نظرة خاطفة وعاد إلى ما كان يفعله، بينما حاول ديفيد أن يكبح ذلك الرعب في نفسه، ما زال قلبه مصرًّا على الانتحار، رغبة حقيقية في العودة تواجهها رغبة حقيقية في الاستمرار، اعتقد ديفيد للحظة بأن أمره انكشف ولكن لم يحدث ذلك حتى الآن، وهذا شيء جيد، ولكن هكذا تبدو الأمور في مثل هذه المواقف، لا بد أن يمر البطل ببعض المواقف التي تؤهله إلى النهاية، إلى الفزعة الكبرى، حينما ينقض عليه الشيطان فجأة من الظلام، يخبره بأن هنا لا بد أن توضع كلمة النهاية، فكر في نفسه قليلا وهو يمر عبر كل تلك الخزائن، تذكر رقم خزانته، لا لم يفعل، فهي لم تغب عن باله للحظة، لم ينسها ليتذكرها، اكتشف ذلك الآن فقط، إنها الخزانة رقم 27، بالتأكيد يملكها طبيب آخر الآن، بيتر سميث اللعين، بيتر سميث الشيطان، بعد أن امتلأت الشوارع بملصقات تحمل صورته وكتب فوقها «مطلوب للعدالة»، هذا كافٍ بأن يمحو سيرة أكبر حاكم في التاريخ من على عناوين كل الكتب التاريخية وليس من على عنوان مجرد خزانة.

وصل إلى الخزانة رقم 27، إنها هناك، ليست بعيدة على الإطلاق، كان حينها الطبيب المتواجد في طريقه إلى المغادرة، يستطيع ديفيد أن يراه جيدا من هذا الاتجاه، أغلق الباب خلفه، أصدر الباب صريرا بطيئا ومفزعا زاد من خوفه وهواجسه في هذه اللحظات، وقف وفكر قليلا مع محاولة يائسة لترويح قلبه، قراره بفتح الخزانة أخذ منه وقتا طويلا، بدا له الأمر كذلك، أخرج المفتاح من جيب سترته، نظر له متأملا، أخذ نفسا عميقا وخائفا، بالتأكيد لن يعثر على فك اللغز كاملا ولكنه بالتأكيد سيجد شيئا يساعده على ذلك، خيطا يوضح له الرؤية، الطريق المعتم، أي شيء سيكون ثمينا بكل تأكيد، أثمن من أي شيء في حالته هذه، آه لو كان بيتر من فعل كل ذلك، آه لو كان الأمر كذلك.

فتح الخزانة بهدوء، نظر فيها جيدا، لمعت عيناه، ثم أغلقها بسرعة وكأن ثعبانا قفز برأسه السامة عليه من خلالها، شرعت دقات قلبه تتسارع وتتصارع، اتسعت حدقتاه، أنفاسه لاهثة، تمالك نفسه بصعوبة بعد برهة قصيرة ثم فتحها مرة أخرى ببطء، ألقى نظرة تحاول التصديق، تصديق ما يراه، مسدس في مستشفى، في خزانة طبيب، نعم كان هناك مسدس أمريكي الطراز بها، نوع أنيق لا يمكن الحصول عليه إلا بمبلغ غير قليل، مد يده مرتجفا مترددا، أمسكه في يده، وقف مواجها للخزانة حتى لا يره أحد، أو بالأحرى لا يرى أحد

ما يحمله في يده داخل مستشفى، قلَّبه يمينا وشمالا في يده ونظر إليه نظرات غير مدركة، غائبة عن الوعي، كان قابضا عليه بقوة، شرعت آلام رأسه تسترسل مرة أخرى، ومضات تغزو عقله، ومضات قوية جدًّا، لم تمر عليه بهذا الشكل من قبل، لا، بل مرت مع ذكريات روكسانا السوداء، وضع المسدس مرة أخرى مكانه داخل الخزانة وأمسك برأسه وجثا على الأرض راكعا في مواجهة الخزانة، هيلدا تصرخ بشدة، ثم تبتسم ابتسامة حزينة تثير الشفقة، ابتسامة تجردت من الحياة، كاد أن يصرخ ولكن بصعوبة تامة امتنع عن ذلك.

«من أنت؟! وماذا تفعل هنا؟! انهض بسرعة وضع يديك فوق رأسك واستدر بهدوء وإلا أرديتك ميتا»، كان الصوت غليظا وحازما، لا يبدو من لهجته أنه سيتراجع في قراره بأي حال من الأحوال، يبدو أنه أحد أفراد الأمن، إنه صاحب الخطوات التي تبعته، التي كشفت أمره، ماذا سيفعل؟! نهض بصعوبة، كانت الآلام كافية لتفتك برأسه وما زالت هيلدا مبتسمة تلك الابتسامة المتجردة من الحياة، نهض بصعوبة دون أن يتفوه بكلمة وبسرعة كبيرة ومفاجئة دفع جسده بقوة إلى الوراء حتى اصطدم بالشخص الذي خلفه، استطاع أن يحدد مكانه من صوته الغليظ الحازم، وقع المسدس الذي كان يحمله رجل الأمن بعيدا عنهما بخطوتين، كانت الصدمة قوية في الخزائن والصوت الناتج مدويا، ذلك الصوت الناتج عن

تخبط الصفائح المعدنية، حاول رجل الأمن التخلص من ديفيد بعد أن أصبح محشورا بينه وبين الخزائن فلكمه بقوة على رأسه بقبضة يده، ولكن تفادى ديفيد الضربة بحرفية غريبة واستدار له ثم لطمه بقبضة قوية في أنفه ثم بضربة قاسية للغاية من رأسه موجهة إلى أنفه مرة أخرى أفقدته الوعي تماما.

وقف ديفيد جاحظ العينين مذهولا ومفزوعا أيضا ينظر إليه وكأنه ينظر إلى جثة ميتة، لم يكن متعجبا في البداية كثيرا ولكنه كان مبهورا ومشدوها، في الحقيقة لم تمر ثوانٍ حتى تعجب مما فعل وفكر بسرعة، لقد كنت في الجيش الأمريكي منذ سنوات ولكن كيف تمكنت من فعل كل ذلك؟! شعر بالغربة عن نفسه، نظر نظرة متألمة إلى رجل الأمن، لو لم أفعل ذلك لانتهى الأمر تماما، لانتهى كل شيء، أدار العديد من الأفكار في رأسه في هذه اللحظات، لم تكن مرتبة ولكنها كانت كافية لتخرجه من هذه الهوة، سحب الرجل بهدوء من قدميه واستعان بالأصفاد التي كانت بحوزته وربطه إلى أحد الأعمدة المصنوعة من الألمونيوم التي توجد في نهاية الغرفة والذي لا يمكن رؤيته لأنه محجوب بالخزائن، خمسة أعمدة مرتبطة ببعضها بأحبال لونها أحمر، ثم اتجه سريعا ومضطربا مرة أخرى إلى الخزانة رقم 27، وأخذ المسدس ووضعه في جيب سترته ولم يخرج يده من عليه تحسبا لأي ظرف، لن يختلف الأمر كثيرا إن كنت قاتلا، لن يختلف.

تذكر بشكل غير واضح ليلة كئيبة كان يمر خلالها مهرولا بين العديد من الناس في فندق ما، بدت له ليلة صاخبة، يستطيع أن يرى ذلك بوضوح، كان أصفر الوجه، متوجسا، لكن وجهه حازم وحزين أيضا، وحين حاول إغلاق الخزانة بسرعة حتى لا ينكشف أمره لمح علبتين من الأقراص التي يتناولها، أخذهما ودسهما داخل سترته في الجيب الآخر، شعر بخيبة أمل، فلم يجد شيئا سوى مسدس وبعض الأقراص ورجل أمن في غيبوبة بعد أن تم ضربه بقسوة، أقراص لعينة لن تأخذه بعيدا عما هو فيه، استوقفته ورقة كانت موضوعة تحت العلبتين، نظر لها متأملا لبرهة، ثم أمسكها بيده وقلَّبها، كانت مطوية، فتحها بسرعة وشرع يقرأ في صمت:

«أنت تملك الحزن؛ لأنك تملك الخطيئة، وأعتقد أن هذا شيء جيد».

باتريك بلامر

قرأها مرات عديدة، شعر بدوار غريب وقوي، تعجب قليلا، تمالك نفسه بصعوبة بالغة، دس القرص في حلقه بعد أن أخرجه من جيب سترته ثم تنهد بمرارة، تذكر كلمات روكسانا عن باتريك بلامر: «إنه أحد المرضى، يمكث في المركز الطبي لمدينة كارسون»، إنه هنا..

هنا بكل تأكيد.

وضح من اتجاهه حينما خرج من الغرفة أنه يعلم جيدا أين يذهب، إنه في الاتجاه المؤدي إلى القسم الذي يقبع فيه المرضى النفسيون والمجانين، ومن يدعون الجنون أيضا، المبنى ليس بعيدا، يقع في المنطقة الخلفية للمركز الطبي لمدينة كارسون، المبنيان مرتبطان من خلال ردهة واسعة في الطابق الأول، في نهايتها ممر طويل في نهايته باب، هذا الباب يؤدي إلى المبنى الآخر، ومن ثم عليك أن تصعد دَرَجًا يتكون من تسع سلمات ثم يقابلك باب آخر، حين الولوج منه عليك أن تتأكد جيدا من سلامة عقلك لأن ذلك سيكون أفضل كثيرا.

كان ديفيد مشوش الأفكار، لكنه كان يعلم جيدا وجهته، إنه يبحث عن باتريك بلامر، الشخص الذي يحمل اسمه، ولكنه لا يعلم بالتحديد إن كان يحمل منه شيئًا آخر، كان يفكر في رجل الأمن أيضا القابع في غرفة الخزائن الخاصة بالأطباء، فحين اكتشاف أمره سيكون الأمر صعبا، سيكون الفرار مغامرة كبرى، وربما أسوأ.

أطبق على الورقة في يده، تلفت يمينا ويسارا مرات عديدة بحذر شديد ولكن يبدو أن ما أقدم عليه مع رجل الأمن أكسبه بعض الهدوء، على عكس ما تصور في البداية، فقد كان يعتقد أن الفرار بعد ما فعل هو الشيء السليم الذي يجب القيام به، الشيء البديهي والفطري الذي يخرج بلا إرادة بعد ارتكاب الجريمة، ولكنه لم يفعل

ذلك، كان هناك شيء يدفعه لاستكمال الفكرة، تلك الفكرة الخبيثة التي نبتت جذورها في رأسه وانعكست على أفعاله، كانت أفكاره المشوشة ترسم حلقة غريبة بدت له مرتبة، أحيانا تكون الفوضى هي النظام الأفضل؛ لأنها لا تخضع لقوانين، لا تخضع لأي شيء، رآها عادلة في هذه اللحظات، الفوضى التي تُخضع كل شيء بمثابة حاكم عادل.

خفض رأسه حينما وصل إلى الطابق الأول، ولكنه بأطراف عينيه كان يستطيع أن يميز من يقابله سواء أكان رجال أمن أو أطباء أو مرضى، عليك أن تسرع يا ديفيد، فإن الأمر سينكشف عاجلا أو آجلا، وحينها ستكون العواقب وخيمة، أسرع يا ديفيد، كان يحث نفسه بشكل كبير، لا يمكن أن ننسى الخوف، فإن الخوف كان من أهم الدوافع التي تدفعه إلى الاستمرارية، إجابة أسئلته كانت تحتاج إلى الكثير، الكثير من المخاطرة، والكثير من الحذر.

ولج من الباب الأول ثم قفز السلمات بسرعة كبيرة حتى ولج من الباب الأخير، لأول مرة في حياته يدخل إلى هذا المبنى، نظر إلى ذلك الممر الطويل أمامه، كان خاليا من أية صورة للحياة، توقف قليلا وقد بدا عليه الحذر الشديد والتعجب أيضا، يبدو أن كل ما مر به خلال الدقائق القليلة الماضية كان له أثر ثقيل ومؤلم على رأسه، أخذ نفسا طويلا محاولا التماسك، فاجأته تلك الومضة التي

انطلقت تعدو حينما رأى المسدس لأول مرة، ولكنه أطلق الرصاص عليها سريعا قبل أن تتملك منه، انطلق في طريقه عبر الممر بحذر شديد وهو ينظر إلى الغرف الموجودة عبر الممر، كان يسير بلا أدنى رقابة، لم يرَ هناك من يوقفه، لم يرَ حتى أطباء في المبنى، تكهن بالعديد من الأشياء ولكنها جميعا كانت منطقية ولذلك تنحى عن التفكير ثانية، فلا شيء منطقي على كل حال في هذه اللحظات، شعر بأنه لا يجد صعوبة حينما وصل إلى الردهة الكبيرة في وسط المبنى، كان هناك مكتب بدا له أنه مكتب استعلامات، كان يجلس خلفه رجل أمن ولكنه نائم، رافع قدميه على المكتب، رأسه إلى الوراء، فمه مفتوح، يصدر شخيرا قويا كخنزير، وعلى الجانب الآخر، كانت هناك أيضا ممرضة واقفة خلف المكتب بجوار ذلك الرجل تقوم بترتيب العديد من الأوراق، وجد أنه في نهاية الردهة من الاتجاه المقابل له، سلم آخر وعليه صعوده بكل تأكيد، كان المكان يعج بالعديد من الأطباء والممرضات، منشغلين للغاية في أعمالهم، خفض رأسه وانطلق وصعد السلم سريعا، خطواته خفيفة وسريعة، حينما انتهى منه وجد بابا كبيرا ومفتوحا أيضا، فتحه ودخل من خلاله، وجد ثلاثة ممرات، ممر على اليمين وآخر على اليسار والأخير في مواجهته، ظل ساكنا في مكانه، لم يتحرك، شرع يفكر ماذا يفعل، استطاع أن يسمع صوت صراخ في

أكثر من منطقة، استطاع أن يسمع أيضا صوت صياح أحدهم وهو يأمر آخر بالتوقف، استطاع أيضا أن يسمع جلبة قوية وكأنه عراك بين مجموعة كبيرة وصوت ارتطام قوي ومخيف، كانت الأصوات تصدي بقوة بفعل الفراغ الكبير عبر تلك الممرات، شعر بالخوف، خوف غريب وثقيل أيضا، اتجه سريعا بلا إرادة في الاتجاه الأيسر، حتى وصل إلى قاعة كبيرة يجلس فيها العديد من المرضى، لم يكن برفقتهم أحد من الأطباء ولكن كان هناك ممرض في نهاية القاعة يجلس وفي يده مجلة ويبدو أنه شارد فيها.

وقف قليلا وهو يتأمل المرضى، لم يكونوا كثيرين ولكنه لاحظ أن بعضهم مكبل بالأصفاد من قدميه، رغم أنه شعر بأنه لا يتوجب ذلك إلا أنه أخيرا قرر أنه قرار يستحقه هؤلاء، كانت هناك سيدة طاعنة في السن ونحيلة للغاية وصغيرة الحجم أيضا، بدت له كمومياء، تختفي عيناها خلف نظارة سميكة، شعرات قليلة جدا تغطي رأسها الأصلع، كانت تنظر له وهي تمسك بيدها إبرة وبعض الصوف، كانت مبتسمة ابتسامة صادقة، ابتسامة عارفة بالعديد من الأمور ولكنها ابتسامة مرعبة، وجد نفسه يقترب منها ثم جلس بجوارها على كرسي، نظر إلى الصوف وراقبها وهي تعمل بدقة تامة، لم تتفوه بكلمة، لم تتذمر أو تصرخ مثلا، وهو بدوره لم ينطق شيئا، لم يدر ديفيد لِمَ شعر ببعض الهدوء في هذه اللحظات،

وكأن عالم المجانين والمرضى النفسيين أفضل من عالم العقلاء البغيض والسخيف.

«يقولون إن النهاية وشيكة، لذلك أصنع ذلك المنديل لباتريك حتى يجد شيئا يمسح به دموعه»، لم تنظر إليه حينما قالت ذلك ولكنه انتبه لها بشكل كبير، حاول أن يفهم ما تقول، تعجب قليلا وانكمش ما بين عينيه متسائلا، «لا تحزن، إن النهاية لا بد أن تأتي، ولكن إن امتلكنا فرصة أخرى علينا أن نرسم نهاية مرضية»، تعجب أكثر وهو ينظر لها محاولا أن يفهم. «لا تستمع لها كثيرا، إنها هكذا دائما مع الغرباء تنطق بكلمات غريبة كهذه، أنا جون أعمل كممرض هنا»، ومد يده لمصافحة ديفيد، نهض ديفيد من مجلسه وهو يسلم على الشاب الذي كان يقرأ المجلة بعد أن شعر ببعض الخوف في بداية الأمر ولكنه بعد أن تمالك نفسه صافحه بهدوء وتوجس «ومن أنت؟»، تلعثم قليلا ولكنه تدارك الأمر «أنا.. أنا دكتور بول هارسون، جديد هنا كما ترى وجئت لرؤية الحالات، في الواقع لديَّ فضول كبير لتفقد الأمر، كما هو الحال دائما مع الأماكن الجديدة، فضول الأطباء»، وابتسم ابتسامة مصطنعة ولكنها ودودة، أطرق الشاب برأسه موافقا بابتسامة، «المكان كله تحت أمرك، الآن سأتركك لممارسة عملك، وإن احتجت لأي نوع من المساعدة أنا هنا كما ترى، لا أفعل شيئًا سوى المراقبة وبعض التسلية مع بعض

المجلات السخيفة»، ابتسم ديفيد وهو يهز رأسه، لم يكن التوجس قد فارقه ولا الحذر أيضا، «أعتقد بأنني أبحث عن بعض الحالات الخاصة، هناك مريض حدثني عنه أحد الأطباء، أعتقد أنه حالة تثير فضولي كطبيب، أعتقد أن اسمه باتريك بلوم.. باتريك بلاكمان».

«هل تقصد باتريك بلامر؟!»، ابتسم ديفيد وهو ينظر له بود «نعم أحسنت هو كذلك، باتريك بلامر».

«إنه من أخطر المرضى لدينا وهو موجود في غرفة وحده، أعتقد أنه مستيقظ الآن، ولكن عليك أن تكون حذرا، سآتي معك ربما تحتاج للمساعدة، الغرفة ليست بعيدة عن هنا، إنها في هذا الممر الذي هناك، الرابعة من على اليمين».

«لا عليك سأذهب وحدي، لا تقلق، أستطيع أن أتعامل مع تلك الحالات، إنه مجال عملي كما تعلم».

أومأ الشاب برأسه موافقا بعد تفكير لبرهة قصيرة، «على العموم، إن الأصفاد موضوعة في قدميه».

اتجه ديفيد جونز في هدوء وريبة، شعر بأن خوفا شديدا شرع يتملك منه، حاول أن يهدأ قدر ما استطاع ولكن كان ذلك مستحيلا، ماذا سيحدث؟! من سيكون باتريك بلامر؟! المجنون الخطير المكبل بالأصفاد، لا يمكن أن يكون الأمر محض صدفة! إن قانون

المصادفات قانون لا وجود له، فكل شيء مرتب بعناية ولا يوجد مجال لأخطاء أو تغيير في المسار، استطاع وسط كل أفكاره أن يسمع وقع قدميه الثقيلتين وهو يسير في اتجاه الغرفة، وقف أمامها، كانت موصدة، كان لها شباك صغير أيضا ولكن هناك قضبان حديدية عليه، بدا له وكأنه سجن، أخذ نفسا عميقا، أمسك بمقبض الباب، شعر بألم طفيف يلح تصاعديا في رأسه، تجنبه بقدر الإمكان وفتح الباب.

42

وقف متوجسا ينظر إلى باتريك بلامر الحقيقي القابع أمامه، كان يجلس على حافة سريره، الغرفة غير مضاءة ولكن نورا خافتا يتسلل من خلال النافذة وهذا كان كافيا، كافيا ليكتشف أن باتريك بلامر لم ينتبه له، أو هكذا بدا له الأمر، كان ناظرا في الاتجاه الآخر بشكل مائل فلم يظهر منه إلا جانب وجهه الأيمن، لم يميز ملامحه جيدا، يهتز باستمرار، هو من يهز نفسه مضطربا، من الأمام إلى الخلف بحركات منتظمة غير بطيئة وغير سريعة أيضا، لكن بعد لحظات اكتشف أنها حركة لا إرادية، يمسح على رأسه الصلعاء ويهرش بها بشكل غريب ومخيف، بدا له أن هناك العديد من الجروح على جسده العاري، فلقد كان باتريك عاريا، عاري النصف العلوي تماما بينما يرتدي سروالا قديما ملطخا بقطرات قديمة من الدماء، لونها أحمر قاتم أقرب إلى السواد، استنتج ديفيد أنه كان يملك جسدا قويا رغم بنيته الضعيفة، استنتج ذلك من خلال جسده الذي ما زال يحتفظ ببعض العضلات أو بقاياها في مناطق مختلفة.

اقترب بهدوء وهو يتأمله خائفا، نظر إلى قدميه ليتأكد من وجود الأصفاد، وحينما تبين له ذلك شعر ببعض الاطمئنان، لم يكن يدري ماذا يفعل ولكن بالفعل عليه الإسراع، فإن أمره قد ينكشف في أية لحظة. «باتريك بلامر».. همس بها مائلا برأسه بتوجس محاولا أن ينظر إلى وجهه بعد أن اقترب خطوتين منه فأصبح على بعد نصف خطوة تقريبا.

«إنهم في كل مكان... إنهم في كل مكان»، اهتز باتريك بلامر وهو يقول تلك الكلمات وكأنه يهذي، كان يقولها هامسا مضطربا يلمس رأسه الصلعاء بشكل غريب.

«باتريك بلامر» أعاد ديفيد النداء مرة أخرى ولكن بشكل مسموع محاولا أن يعيد باتريك بلامر من العالم الذي يقبع فيه الآن، لن يخرج كما دخل، هذا شيء مستحيل، لا تقل لي يا باتريك إن الحكاية انتهت هنا، أرجوك قل لي من أنت وسأختفي للأبد.

«باتريك بلامر»...

في هذه اللحظات التفت باتريك بلامر برأسه إلى ديفيد وهو يلمس جبهته بأطراف أصابعه وفمه نصف مفتوح بعينين عميقتين تائهتين، ولكنهما بدتا مخيفتين مع تلك الندب حولها من أثر الضرب والجروح، فقد كانت عينه اليمنى متورمة قليلا، تحتها هالة بنفسجية داكنة توحي بلكمة قوية، كيف يتعاملون مع المرض بهذه الطريقة

العدائية؟! شعر بالشفقة تجاهه ولكن ذلك لم يحل دون خوفه وهو ينظر له، أطلقها مرة أخرى «باتريك بلامر؟»، ابتسم باتريك بلامر ابتسامة ساخرة ورأسه يسقط إلى الأرض ثم بعد ثوانٍ أطلق ضحكات متتالية مخيفة، كان يهتز في مكانه، ما زال يلمس جبهته ورأسه بأطراف أصابعه، تعجب ديفيد كثيرا وهو ينظر له نظرات مذهولة، كانت ضحكات باتريك بلامر مميزة، وقعها ليس غريبا على أذنه.

«ما زلت هنا يا عزيزي السير؟! هل انتصرت في معركتك؟!»، قالها باتريك بلامر ساخرا ثم عاد مرة أخرى إلى الضحك وبعد ثوانٍ رفع رأسه فجأة بعينين جاحظتين، بوجه مقتضب وغاضب بشدة، «هل انتصرت في معركتك؟!»، عاد ديفيد إلى الخلف خطوة وعلم أن عليه مجاراة باتريك في هذه اللحظات، آملا أن يحصل على شيء وسط كل هذا الهراء، «أحاول أن أنتصر يا باتريك، أحاول».

أومأ برأسه إيماءة قوية ثم ذم شفتيه وهو ينظر أمامه وكأنه يفكر، «وتعتقد أنك ستنتصر، أنت مخطئ، لن تستطيع أن تفعل شيئا لهم، لن تستطيع الفرار من الهزيمة»، وفجأة تلفت حوله سريعا بحركات مخيفة فزعة وكأنه يتقصى الأمر، «لن يتركوك كما تتصور، ولن تذهب بعيدا لأن ليس هناك مكان آخر يمكن الذهاب اليه، ألا تفهم؟! أنت مجرد لعبة»، كان يهمس بكلماته الأخيرة وكأنه

كان خائفا من أن يسمعه أحد وأنهاها أيضا بابتسامة ساخرة شريرة ظهرت من خلالها أسنانه الصفراء، كان هناك سِنان مكسوران يظهران بمجرد أن يبتسم أضافا إليه شكلا مرعبا.

نظر له ديفيد وهو يفكر بكلماته، كان متعجبا للغاية، بعد ثوانٍ زفر زفرة قوية توحي بنفاد الصبر، وبعد برهة قصيرة، نهض خلالها باتريك من مكانه واتجه نحو الحائط ووقف مواجها له معطيا ظهره لديفيد، كان صوت السلسلة بين قدميه وهي تحتك بالأرض هو الصوت الوحيد الذي يقطع الصمت الثقيل والمريب، كان لذلك الصوت وقع بطيء ومخيف، كانت الغرفة صغيرة مكونة من سرير واحد ولا شيء آخر على الإطلاق سوى ذلك، ولكن الجدران كانت ممتلئة بالرسومات الغريبة، كان هناك رسمة لرجل يسقط من فوق أحد المباني، كان هناك أيضا رسمة تشبه خريطة مكان ما، وهناك رسمة لفأر في مصيدة وقد بدا لديفيد أن هذا الفأر يبكي، وهناك أيضا رسومات غير مفهومة على الإطلاق، ظل يتأمل تلك الرسومات طويلا، تأملها متعجبا ومتسائلا، آلام رأسه في هذه اللحظات شرعت تلح بقوة، اقترب من باتريك بلامر قليلا وهو يفرك رأسه بأصابعه، وقف خلفه على بعد خطوة واحدة، «أنا ديفيد جونز، هل سمعت هذا الاسم من قبل؟! هل يعني لك هذا الاسم شيئا؟! ديفيد جونز، حاول أن تتذكر».

«أنت مجرد لعبة»، كان يقولها هامسا وهاذيا، شرع يجر قدميه الملفعة بالأصفاد بهدوء، يسير بخطوات وئيدة داخل الغرفة دون أن ينظر لديفيد، شعر ديفيد بالغضب في هذه اللحظات، بخيبة أمل، بأنه لن يحصل على أي شيء من كل ذلك، كما أن آلام رأسه تزداد رويدا، لم يفكر للحظة في أن يأخذ قرصا ولكنه قرر في أعماقه أن يفعل ذلك بمجرد خروجه من هذه الغرفة اللعينة، «أعتقد أن بيتر سميث استطاع أن يمحوك أنت الآخر» قالها ديفيد وكأنه يحدث نفسه.

التفت له باتريك بلامر وقد كان جسده مرتجفا من فرط الغضب، «أنت غبي، لماذا لا تعترف؟! اترك الأمر، ما ذهب لا يمكن أن يعود مرة أخرى وإن كل تلك المحاولات ليست أكثر من محاولات يائسة، عبثية».

ثم صرخ في وجه ديفيد وقد وضح أن شررا من النار يتطاير من عينيه: «أنت مجرد لعبة، لقد أعجبك كل شيء، لقد أعجبتك لعبتهم، لقد استسلمت لهم، أليس كذلك؟!».

«نعم لقد استسلمت».. أجاب نفسه.

كان يلامس رأسه مضطربا بسرعة وكانت نبرته يائسة مستنكرة «نعم لقد استسلمت»... أجاب نفسه مرة أخرى.

ثم ضحك ساخرا..

أخرج ديفيد في هذه اللحظات المسدس من جيب سترته واقترب من باتريك بلامر الذي لم يكن منتبها له، ثم طرق به على الحائط، لم ينتبه باتريك في البداية ولكن بعد طرقتين أخريين، التفت له باتريك بلامر بحركة عصبية بعينين مستطلعتين، لم يتوقف عن ملامسة جبهته ورأسه الأصلع، تأمل المسدس لثوانٍ بعد أن وضعه ديفيد على كف يده لكي يستطيع أن يراه، فجأة احتدم وجه باتريك وحاول أن يسرع الخطى تجاهه ولكنه وقع بقوة على الأرض بسبب الأصفاد في قدميه، فارتطم رأسه، كان فاغرا فمه وهو يرفع رأسه يائسا، لم يبعد عينيه عن المسدس، كان مثيرا للشفقة، ابتعد ديفيد خطوة إلى الخلف ثم بعد لحظات انحنى له ونظر إليه نظرة طويلة منتظرا.

«لقد أعطوك كل شيء، ألا تدرك الآن القصة كاملة؟! إنك قريب من النهاية، لن تذهب بعيدا، لقد أقنعوك بحكايتهم، إنك تصدقهم، ليس هناك مكان آخر، نحن مجرد لعبة» قالها باتريك بلهجة يائسة.

نظر له ديفيد نظرات طويلة ومتأملة وفجأة انطلقت العديد من الأصوات المتداخلة والغاضبة أيضا، كان هناك أيضا أصوات صائحة وحركة غير مطمئنة في الخارج، علم حينها بأن أمره قد انكشف وأن عليه الفرار في هذه اللحظات، دس المسدس في جيب سترته مرة أخرى، ونظر إلى باتريك بلامر المستلقي على الأرض، أخرج بسرعة قرصا ودسه في حلقه ووقف خلف الباب وأخذ نفسا

طويلا، كان ينظر لباتريك في هذه اللحظات بطرف عينه ثم أشاح بنظره منتبها لما يحدث في الخارج وهو يسترق السمع، فجأة ودون إنذار كان باتريك بلامر يقبض بيده القوية على رقبة ديفيد بإحكام وعنف، الغضب يتطاير من عينيه وهو يصيح بصوت غليظ وغاضب «أنت سبب ما أنا فيه الآن، نعم أنت السبب»، شعر ديفيد بالخوف الشديد، انسحب الدم من عروقه، كان يمكنه أن يدفع باتريك، كان ناظرا إلى عينيه نظرة تثير العاطفة والشفقة، «اتركني يا باتريك» قالها بصعوبة تامة حيث شعر بأن أنفاسه الأخيرة ستتحرر بفضل قبضة باتريك بلامر، تركه بعد ثوانٍ من نظرة طويلة غاضبة ومتأملة، ثم خفض رأسه وهو يلامس جبهته ورأسه مستخدما أصابع يديه الاثنتين، ثم عاد إلى مكانه وجلس على حافة السرير مرة أخرى، وظل يهمس: «لا تضع الوقت وانجُ بنفسك، إنهم في كل مكان، عليك أن تهرب إن سنحت الفرصة، اهرب بعيدا»، إنه نفس الصوت، نفس الكلمات، اقترب ديفيد متعجبا للغاية مما يسمعه ثم بسرعة أخرج الورقة التي وجدها في الخزانة 27، ووضعها أمام عينيه ولكن في هذه اللحظات لم يتحرك أو ينتبه باتريك بلامر لأي شيء، كما أن الجلبة في الخارج ازدادت بشكل كبير مما دفع ديفيد إلى الوقوف سريعا خلف الباب متوترا بشدة، أخذ نفسا عميقا، فتح الباب، واربه قليلا وهو ينظر في الخارج، أغلقه ووقف خلفه

وتنهد تنهيدة طويلة، كان الرعب والقلق متملكين منه بشكل كبير، ولكن في لحظة مفعمة بالمواجهة والعزيمة والخوف أيضا خرج من الغرفة بعد أن ألقى على باتريك بلامر نظرة أخيرة، نظرة عميقة ولكنها لا تخلو من الشفقة والحيرة واليأس أيضا.

43

كانت هناك العديد من الأفكار التي تتصارع في عقل ديفيد جونز في هذه اللحظات، حاول بشدة أن يهتم بالفرار من هذا السجن الكبير قبل أن يصلوا إليه ولكن كانت هناك أفكار سيئة تسيطر عليه، كان ينظر إلى عيون جميع من حوله وهو يرمقهم بتوجس وتشكك وخوف شديد، خلال مروره عبر الممر للولوج إلى القاعة الكبرى الممتلئة بالمرضى تخيل أن أحدهم سيفتح بابا من هذه الأبواب فجأة وينتزعه إلى الداخل ويركله حتى الموت، يده شبه ميتة وهو قابض على المسدس في جيب سترته، في الحقيقة لم يكن يعلم إن كان سيضطر لاستخدامه أم لا، ولكن كان هناك هاجس مسيطر عليه بشدة، بأن عليه أن يستخدم كل شيء ممكن وغير ممكن للوصول إلى الحقيقة.

ولج إلى القاعة بالفعل وهو ينظر إلى الاضطراب الذي ساد المكان وكان هناك العديد من الممرضين والعاملين في الخارج يحاولون السيطرة على المرضى؛ حيث إن الضجة في الخارج أصابتهم بالذعر الشديد، نظر إلى المرأة التي ما زالت جالسة في

مكانها، لم تتحرك وكانت هادئة للغاية أيضا، غير مكترثة، وقف قليلا وهو يتأملها فرفعت رأسها وكأنها تشعر به ونظرت في اتجاهه مبتسمة ابتسامة مريبة ثم أومأت برأسها ببطء وكأنها توافقه على شيء ما، تذكر كلماتها الأخيرة «لا تحزن، إن النهاية لا بد وأن تأتي، ولكن إن امتلكنا فرصة أخرى علينا أن نرسم نهاية مرضية»، ابتسم ابتسامة باهتة حزينة وهو ينظر إليها، كان يستطيع أن يرى جون أيضا وهو يحاول بقدر ما استطاع أن يحتوي أحد المرضى الذي يصرخ صرخات متقطعة ومخيفة، مع هذا الجنون الصاخب شعر ديفيد جونز بالغثيان، لمحه جون في هذه اللحظات فابتسم له ابتسامة ودودة وأشار بيديه فيما يعني «إن الأمر جنوني خارج عن السيطرة»، ابتسم ديفيد ابتسامة مصطنعة ولكنها باهتة قلقة ثم اتجه في طريقه سريعا، كان هناك شرطيان عند أول باب يتحدثان، خفض رأسه قليلا وهو يقترب منهما، قبض على المسدس بقوة، لم يقرر شيئا في صدره ولكن ترك الأمر برمته للقدر، قرر أن يكون هو رد الفعل وليس الفعل، مر من خلالهما بعد أن تبادلا نظرات متشككة معه ولكن إيماءة رأسه لهما بود كانت كافية بعض الشيء لطمأنتهما.

اجتاز تقريبا المبنى كاملا، نظر من النافذة الصغيرة في الباب الفاصل بين المركز الطبي والركن المخصص للمرضى النفسيين، وبمجرد أن لمح شيئا توارى خلف الباب مفزوعا، كان بيتر سميث في هذه اللحظات واقفا في وسط العديد من الأطباء ورجال الأمن،

المكان يعج بالكثير منهم، فجأة طافت أمامه لوحة الثعلب المعلقة في غرفته، أغمض عينيه وهو يفكر، رأى نفسه أمام بئر كبيرة وعليه أن يقفز من فوقها ولكن قفزة عادية لن تكفي، سيسقط بكل تأكيد، ومن الناحية الأخرى رأى الشرطيين اللذين قابلهما في اتجاهه، لم يستطع أن يتكهن إن كانا قادمين لأجله أو لا، على كل حال وقفته تلك ستثير الشكوك بكل تأكيد، الأسود من خلفه والبئر أمامه، في الحالتين السقوط قادم لا محالة، النهاية تكشر عن أنيابها، أيها الثعلب قفزة واحدة قد تمنحك الحرية وقد تمنحك العذاب، عليك أن تقرر، أحكم إغلاق عينيه، فكر سريعا، عليه اجتياز ذلك الباب ليقابل مصيره، الجمهور في انتظاره وأصواتهم تتعالى تحثه على القفز، تحول المكان في رأسه إلى ملعب كبير، ملعب الأولمبياد العظيم، كانت هيلدا في مقدمة الجمهور ترتدي فستانا جميلا لونه أسود، متوجسة وخائفة، تشبك يديها على صدرها في انتظار ذلك المتسابق، يستطيع أن يسمع همس صلواتها في هذه اللحظات، يمكنه أن يستمع إليها بكل وضوح، قفزة من فوق البئر ستجعل ذلك الاستاد يهتز فرحا بالفوز، فرحا بالحياة الجديدة، الحياة التي سيمنحها لهم ديفيد جونز، بأن لا شيء مستحيل، لا شيء على الإطلاق.

أخذ نفسا عميقا واتجه سريعا بخطوات مرتجلة بعد أن فتح الباب، قبض بيده بقوة رهيبة على المسدس، خطوتان تفصلانه عن

بيتر سميث الغارق في الحديث بأعصاب باردة مع الأطباء، كان ذلك واضحا على ملامحه وإيماءات يديه، لم يكن ينظر إليه على الإطلاق بل كانت عيناه مركزتين على هذه البئر الكبيرة، مر من جانبه، رغما عنه نظر بطرف عينيه تجاه بيتر، كان بيتر مركزا بقوة عليه وكأنه كان في انتظاره، تلاقت عيناهما، هل هذه حقيقة؟! هل ما يراه ديفيد ويعتقده في هذه اللحظات أكيد؟! بالله عليك لا تقل لي بأنك تراني! لا تقل لي إنني لن أجتاز هذه البئر وإن قفزتي لم تكن موفقة. كان يستطيع أن يسمع صوت الجمهور وهو يئن خائب الأمل، روكسانا وهي تطأطئ رأسها حزينة بفعل الهزيمة التي تلقاها، عيناها وقد امتلأتا بالدموع، شفتاها وقد زمتهما بحزن.

رغم أنه كان باديا عليه أنه سيقف ورغم أن قدميه أصيبتا بشلل للحظة واحدة بعد تلك المواجهة اللحظية إلا أن شيئا غريبا دفعه إلى الاستمرار، دفعه إلى العبور، كانت أنفاسه في هذه اللحظات لاهثة، قلبه يدق بدقات متألمة ومرتجفة وغير منتظمة أيضا، قبول الهزيمة كان مريرا، فكر فجأة في العقاب، العقاب الذي لن يفلت منه أبدا مهما تخيل، فإن الثقة في مثل هذه الأمور شيء خيالي للغاية، والقدر لن يكون رحيما إن ارتبط ببيتر سميث الكائن الشيطاني الغريب.

نظر إلى مكتب الاستعلامات، الفوضى التي توجد حوله، الكثير من الناس يقفون وقد بدا عليهم الاضطراب، كان هناك شخص يعطي ظهره له، لكنه لم يبدُ غريبا على الإطلاق بالنسبة له، لا يستطيع أن يقف ولا يستطيع أيضا أن ينظر إلى الوراء ليتقصى أمر بيتر سميث، أن يرى عينيه المتعجبتين والمتسائلتين بكل تأكيد بعد ما حدث، عليه أن يعترف بأن بيتر سميث لا يتعجب ولا يتساءل، عليه أن يوقن بأن هذا الأمر أمر بعيد المنال، شيء قد يؤمن به المجانين فقط، استدار الرجل عند الاستعلامات، نعم إنه روبرت صديقه، كان ينظر له نظرة حزينة ولكن خلالها كان يرى بكل تأكيد ابتسامة رقيقة، لطالما كنت رقيقا يا روبرت، إنها نظرة تطمئن قلبه، تدفعه وتشجعه على المرور، خفض ديفيد رأسه بعد أن بادله نظرة حائرة، خرج من الباب، من وسط العديد من رجال الأمن، خرج مسرعا بمحاذاة السور وهو يمشي بخطوات أقرب ما تكون إلى الهرولة، آلام قلبه ورأسه كانت قوية ولكنها شرعت في الهدوء قليلا، فكر بأمر بيتر، في الحقيقة لم يكن هناك شيء مسيطر عليه سوى ذلك ولكنه فجأة عاد ليتذكر كلمات باتريك بلامر له، حاول أن يرتب أفكاره، لكن كان هناك ضجة قوية في رأسه، الضجة داخل المركز لم تختلف كثيرا وكأن عقله لم يتخلص من آثارها، اتجه مسرعا تجاه الصيدلية، لا، انحرف مرة أخرى وقرر في نفسه أن يتجه نحو الفندق، تدفعه قدماه بقوة، كانتا خائفتين ولكنهما كانتا مصرتين على الاستمرار.

44

جلس على الكرسي الشبحي شاردا، أعاد رأسه قليلا إلى الوراء، اعتقد أن الغرفة تتحرك به في دوائر غير منتظمة، كان عليه أن يمنعها من الدوران، كان يريد ذلك، أراده بشدة ولكن لم يحدث شيء، الدوار العنيف يأخذه في ذكريات غير واضحة وغير مرتبة، أراد أن يمسك بإحداها ويتوقف، حتى لو كانت تلك الذكرى مؤلمة فهذا كافٍ لأن يوقف آلام الدوار والصراخ الذي شرع بطيئا وعميقا في رأسه، كان شبهَ هاذٍ في هذه اللحظات، قابضا على مسدسه بقوة ودون وعي، إنها تلك الحالة التي عندما يصاب بها أحدهم فيتسمر ويتجمد على وضعه، يمكنه أن يتخيل ويرسم مشاهد غير حقيقية، لكنها لم تكن مشاهد جيدة على الإطلاق، عقله بث له صورا مخيفة ومفزعة، هيلدا ساقطة على الأرض وسط بركة من الدماء بينما هو في مكانه متسمر ينظر لها شاحبا وغير مصدق، هناك مشهد آخر في نهاية غرفة مظلمة في ركن بعيد، بيتر سميث وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بينما هو جامد كالموت يتابعه ويراقبه عن كثب، يتنهد بشكل غريب وضعيف وكأنه عائد من سباق ماراثون، روكسانا تئن محاولة البكاء وهي تغرق في حوض سباحة كبير، ولكنها لم تبكِ،

لم تستطع أن تفعل ذلك، يمد لها يده لينقذها من بين أنياب الماء التي تسللت إلى رئتيها ولكن للأسف كان هناك شيء يشده بقوة إلى الوراء، يمنعه من إنقاذها، من مسح دموعها التي تأبى السقوط، من وهبها حياة أخرى ولكن الحيوات لا توهب ولا تُمنَح من البشر خصوصا إن كان ذلك البشري هو ديفيد جونز.

فكر بأمر باتريك بلامر ذلك المخبول اللعين، كلماته التي ألقت الرعب في قلبه كلما تذكرها، تعجب كثيرا من ردة فعله معه حينما أطبق قبضته على رقبته، كان عليه أن يدفعه، كان عليه أن يقتله إن تطلب الأمر ذلك، فلا شيء أغلى من الحياة، كان موقنا من ذلك، وإلا لمَ هو في تلك الغرفة الآن؟! لم يصارع الإدمان؟! لمَ تحمَّل كل العذاب والذل بهذا الرضا الغريب؟! لمَ حاول الهرب؟! لمَ يساعد روكسانا ولماذا يحمل مسدسا؟! ولمَ يبحث عن الحقيقة؟! فإن الدائرة التي يمر من خلالها الآن، تلك الدائرة الغامضة والمهينة، تثبت له هذه النظرية، بأن لا شيء أغلى من الحياة، أراد بشدة أن يبكي وينتهي ذلك الدوار، أراد أن يموت أيضا، تحسس مسدسه وهو يخرجه ببطء، تحسس الزناد بأصبعه بهدوء، باتت الفكرة مقنعة، أقل إيلاما مما يشعر به في هذه اللحظات، الموت سيمنحني السعادة، سيمنحني الخلاص من الآلام، سيمنحني الحرية الحقيقية، أخرج المسدس من جيب

سترته، كانت يده متدلية بجواره وهو يطبق عليه، فكر قليلا ولكن لم يكن الأمر مجرد تفكير، بل كان هناك شيء يهمس له همسات مفزعة ومتكررة، كأنه صدى صوت آتٍ من الجحيم يدفعه للجنون، يدفعه للوقوع من على الحافة.

ديفيد جونز تخلص من نفسك..

ديفيد جونز تخلص من حياتك..

إنك مجرد لعبة..

انتهى الأمر هنا عند هذه النقطة..

استرح من آلامك وأطلق الرصاصة التي ستمنحك الحياة..

رفع المسدس تجاه الجانب الأيمن من رأسه، فوهة المسدس موجهة وملاصقة لذلك الجزء، ضغطة أصبع بسيطة ستصيب كل شيء، ستصيب الهدف، ستقتل أبي السكير، ستريحني من عذابات أمي التي هجرتني، ستنتقم لأجل الشاب العراقي الصغير والبريء، ستأخذني في رحلة لأكون بجوار هيلدا، سينتهي الإدمان، ستقتل بيتر سميث اللعين، ليرحمك الله يا روكسانا، ليمنحك السلام ويساعدك.

نعم سينتهي كل شيء..

أصبح الصوت الهامس أكثر وضوحا وإلحاحا، يستطيع أن يرى ذلك من خلاله أصبعه الذي أصبح مترددًا، يتحرك في مساحة

صغيرة للغاية، مساحة من الفراغ، هل أطلقها الآن؟! لتنطلق ولأرَ بعدها ما يحدث حينما أخرج من ذلك الجسد اللعين، سأمنح نفسي الخلاص، سأمنح نفسي السعادة الأبدية، قرر ذلك بالفعل، إنها النهاية لا محالة، انتزعه من قراره ذلك صوت أقدام تأتي غاضبة تجاه باب غرفته، صوتها لا يبشر بالخير على الإطلاق، الصوت الهامس القادم من الجحيم مختلطا معها، هل هذا ملك الجحيم آتٍ ليأخذني معه؟! ليقوم بمهمته بعد أن أنتهي من مهمتي، ولكن الملائكة لا تدخل من الأبواب! لا تدخل من النوافذ، إنها موجودة في كل مكان رهن الانتظار، رهن أن يحدث ما يقرره ديفيد..

أن يطلق الرصاصة...

أصبح الصوت قريبا وأكثر غضبا، ثابتا وقويا، الهمس أيضا أكثر إلحاحا وفزعا، من المحتمل أن يكون القادم هو بيتر اللعين، لن أمنحه ما يريد، سأمنحه موتي فقط، سأمنحه الخزي ولينتهِ كل شيء، مت أيها اللعين بحسرتك، مت كما يجب أن تموت مهزوما أمام إرادتي.

تحول الصوت الثابت فجأة إلى صوت هرولة سريعة ومقبضة أيضا، فتح عينيه في تلك اللحظات، حدقتاه واسعتان، محاولا أن يرى بقوة ما يجري خلف الباب، انتابه شعور غريب، دارت برأسه فكرة جعلته يزيح أصبعه من على زناد المسدس، لم يعلم من أين

أتت تلك الفكرة، ولكن أيقن في فترات لاحقة أنها فكرة البقاء اللعينة، الفضول، الأمل الكاذب، اكتشف جبنه المقيت أمام قيمة حياته، دس المسدس بسرعة في جيب سترته، ماذا تفعل يا ديفيد؟! أضعه تحت الوسادة! هل أنت غبي؟! لا ليس هنا، عليَّ أن أتحرك في الاتجاه الآخر، هرول سريعا يتملكه الفزع ووضعه مضطربا داخل سترته وأغلق بإحكام عليه ونظر نحو الباب نظرة فزعة، أتته فكرة مفزعة ومفاجئة بأن مجنونا فقط يحتفظ به هكذا، ما الذي أفعله؟! هل جننت؟! اتجه سريعا شاعرا بالفزع ثم وضعه أسفل فراشه، حشره في الداخل بقدر ما استطاعت يده أن تصل، كان مقبض الباب يدور في هذه اللحظات، أخذ نفسا عميقا واستعد، لم يكن يعلم لأي شيء يستعد ولكنه بالتأكيد لا يستعد لاستقبال سانتا كلوز.

45

كانت هناك نظرة طويلة ومتشككة ألقت بالرعب في قلب ديفيد من قِبَلِ بيتر، لاهثا، يستطيع أن يلاحظ ذلك، استطاع أيضا بيتر أن يرى شيئا غريبا وغير مريح في ريق ديفيد الذي كان يبلعه بصعوبة بالغة، حركة كهذه تؤكد لشخص مثل بيتر العديد من الأفكار غير المريحة، تؤكد له أن ما يحدث هنا ليس شيئا جيدًا على الإطلاق.

استمر ديفيد ملاحقا لأنفاسه المتصارعة المتوجسة، مبتسما ابتسامة عادية ولكنها بدت صادقة رغم أن هناك مسحة من الفزع كانت تختلط بتلك الابتسامة، نظرة بيتر الثابتة كانت تلقي بالعديد من الأسئلة في صدره، هل اكتشف الحقيقة؟! هل علم أن من كان هناك ينظر له في المركز الطبي هو أنا؟! هل جاء سريعا ليتأكد من ذلك؟! أيها اللعين، أنت تعلم كل شيء ولكن تعلم جيدا متى وكيف تُخرج ما في جعبتك، شعر بمرارة تسري في حلقه، أحس بطعم ريقه كَسُمٍّ يأبى ابتلاعه، صمت بيتر الطويل مع تلك النظرة الغائرة والقاسية كانا كافيين لقتله، كانا كافيين لجعله يركع على قدميه ويعترف بكل شيء، نعم أنا من فتحت خزانتك، أنا من سرقت

المسدس، أنا من ضربت رجل الأمن وأفقدته وعيه، أنا من نظر إليك وهو يمر في المركز الطبي، سامحني يا بيتر وأعطني فرصة أخرى، إنه الشيطان اللعين الذي أتاح لي تلك الفرصة، من ساعدني لأمنح نفسي عذابا آخر، كانت كل تلك الأفكار تمر في عقله، ينطق بها بصمت مخلوط بالفزع والترقب، شعر أيضا بأنه جبان لعين، لا يستحق الحياة، فالجبناء لا يستحقون الغفران، لا يستحقون الحياة، لا يستحقون أي شيء، ماذا لو أنه أخرج المسدس ووضعه تحت التهديد وجعله يعترف؟! يعترف بذلك المجهول اللعين، مجهول تلك الثمانية أشهر التي خرجت عن قضبان ذاكرته، ماذا لو أنه أعطى لنفسه العنان وأطلق رصاصة؟! رصاصة واحدة لتريحه من كل شيء، لم يكن يعلم في هذه الدقائق الصعبة السر الحقيقي خلف قبوله بالذل والإهانة، هل بحثه عن الحقيقة؟! هل محاولاته الفاشلة في الوصول إلى براءته؟! هل خوفه على روكسانا؟! الكثير من «هل؟!» كان يمر عبر عقله، كلها بلا إجابات، بلا راحة، كان متأكدا من أن بيتر أكيد تماما بأن ما رآه هناك في المركز الطبي هو ديفيد جونز، ديفيد جونز بعينه ولا شيء آخر، باتريك بلامر المزيف، الضحية رقم (....)، لم يكن يدري بالتحديد ترقيمه الفعلي في سلسلة كتاب بيتر للضحايا، بالتأكيد هناك العديدون ولكن للأسف لا يعرف بالتحديد أي رقم يحتله هو.

أخذ بيتر نفسا عميقا ثم نظر إلى سقف الحجرة، تحدى ديفيد نفسه بأن بيتر لن يتفوه بكلمة واحدة وهذا ما حدث وليته ما حدث، هذا اللعين يعلم جيدا كيف يتعامل مع أسراه بل مع ضحاياه، أخرج سيجارة وأشعلها، تسمرت عيناه على ديفيد، نفث الدخان في اتجاهه، كان ديفيد يعلم جيدا بأن بيتر يفكر، يتأنى، يرسم خطته بهدوء ومكر، يعطي لنفسه الفرصة والوقت الكافيين لاكتشاف ما أتى من أجله، للتوغل داخل الحقيقة، للوصول إلى الاعتراف الكامل منه، صدر ديفيد يعلو ويهبط بشكل ملحوظ، حاول جاهدا أن يتوقف عن الشعور بالخوف، ليس فقط من أجل أن يحرم بيتر من انتصاره، ولكن لكي يثبت لنفسه أن الجبن لم يصل به إلى هذا الحد، حاول استرجاع ما حدث مع رجل الأمن لكي يعين نفسه على هذا الشعور، ليمنح نفسه بعض القوة ولكن كانت محاولة ضعيفة لم تجلب له إلا البؤس والامتعاض.

اقترب بيتر منه قليلا وهو جالس في مكانه، نظر إلى الأوراق نظرة لا مبالية ثم نظر تجاه السرير، تأمله قليلا، شعر ديفيد بالفزع، سيكتشف الأمر، انتهت المسألة كاملة، سأقتلك يا بيتر ولكن امنحني بعض الوقت حتى أصل إلى ما أريد، لا أريدك ميتا الآن، فما زال هناك الكثير لتتحدث عنه، ما زال هناك الكثير لتعترف به، كانت نظرات بيتر أكثر شكا مما سبق، كان يلوح في عينيه الكثير

من المكر، يجول في ملامحه غضب مكتوم وأفكار سوداء، استطاع ديفيد أن يرى كل ذلك مما جعل الفزع شعورا لا يمكن الشك فيه ولا يمكن أيضا القضاء عليه.

فجأة جاءت تلك الأفكار اللعينة لتدب في عقل ديفيد، هل خلفت ورائي أية آثار؟! نعم بالتأكيد حدث ذلك، بصماتي تلطخ كل ركن، جون الممرض، رجل الأمن الذي ضربته بالتأكيد يعلم تفاصيل ملامحي، لا، إنهم لا يعرفون سوى ملامح باتريك بلامر المزيفة، لا يعرفون سوى ذلك القناع الذي أختفي خلفه، لكنهم حتما لا يعرفون ديفيد جونز، بعد لحظات قليلة أصيب بحزن ممزوج بخوف شديد ناتج عن خيبة أمل بعد أن تأكد بأنه هو وقناعه مطلوبان الآن للعدالة، ديفيد جونز، لقد ارتكبت جرائم باسمك وباسم باتريك بلامر، ديفيد جونز، للأسف لا يمكنك الإنكار، لا يمكنك الهرب، فأنت خطر على المجتمع ويجب إقصاؤك، لن يكون هناك تسريح مشروط إذا ما أضفنا حادث القتل، لن يكون هناك سوى الكرسي الكهربائي، وحده بيتر سميث يستطيع أن يفعل ذلك، أن يسلمني بهدوء بمكالمة هاتفية، هل هو هنا ليتأكد من وجودي؟! كما قال لي إن خطأ آخر واحدًا وسيمنح روحي لتلك الشرارة الكهربائية المكثفة البشعة لتودع روحي هذا العالم القاسي، بالتأكيد لقد أتى من أجل ذلك، فإن بيتر أبدا لا يخطئ موضع كلماته.

شعر بألم يجتاح رأسه حينما انحنى بيتر عليه قليلا ناظرا في وجهه بشكل مباشر، عيناه نافذتان قويتان ومتحديتان أيضا، شعر بأنه كلب حراسة يتأكد من هوية السارق ومن أين سيبدأ هجومه الشرس، أمسك بورقة وهو يمد يده من فوق كتف ديفيد ثم عاد إلى موضعه وهو يقرأها، إنها ورقة الليلة الأخيرة، أنهاها تماما ثم تركها لتسقط على الأرض «ما هذا يا ديفيد؟! هل جئت بك إلى هنا لتطلب مني بعض الوقت، ألا تدرك؟!» ثم توقف محاولا الإمساك عن غضبه ولكنه فجأة صاح صارخا في وجهه منحنيا تجاهه «ألا تدرك أيها الغبي أننا لا نملك سوى يومين؟! ألا تدرك أن الشرطة تبحث عنك بلا توقف وفي كل مكان؟!»، ثم تحولت نبرته إلى نبرة ضعيفة بعد أن تنهد تنهيدة طويلة توحي بأنه قد فاض به الكيل واستمر صمته بعدها للحظات وكأنه يجمع أفكاره «أريد الحقيقة، إنك لم تصل لأي شيء مع الملعونة روكسانا، وأنا بدوري لم أصل إلى شيء، أنت غير مفيد، أرى أنك نسيت تماما أن حريتك مرهونة باكتشاف هذه الحقيقة الغبية، أنا لن أدخل السجن ما دام هناك من يستطيع أن يدخله، لن أجلس على الكرسي الكهربائي ما دام أنه محجوز مسبقا باسمك، انظر إلى نفسك، ألم تلاحظ ذلك؟! من أين جئت بكل هذا السخف؟!». انحنى على الأرض وأتى بالورقة التي تركها تسقط ثم شرع يقرأ له متجهما وساخرا بعصبية: «تلك المهمة التي يجب أن تنقضي خلال أسبوع وكأننا نتحدث إلى رجل محترف

يستطيع التصرف في مثل هذه الأمور، رجل غير معرض للتهديد، غير مدمن، معافى تماما، لا ينتظره الكرسي الكهربائي، ألا تدرك عزيزي بيتر ما أمر به، امنحني بعض الوقت، فالأمر بصراحة تامة يحتاج إلى الكثير من الوقت، أنا لا أبرر لك شيئا ولكنني أقول الحقيقة صادقة وعليك أن تقرر»، أنهى كلماته ساخرا ثم أطبق على الورقة في يده حتى أصبحت كرة صغيرة مكرمشة وألقاها بقوة وغضب في ركن الغرفة، «نعم أنت المحترف هنا يا صديقي، لن أمنحك ثانية أخرى، لن أمنحك أي شيء»، كانت عيناه تقذفان شررا من النار وهو يحدق في عيني ديفيد متحديا، ثم بعد لحظات من تلك النظرة النارية «عليك أن تذهب إلى الصيدلية، ربما يساعدك ذلك في مهمتك، فإن جلوسك هنا لن يساعدك في شيء»، وقف قليلا عند الباب بعد أن فتحه ثم ألقى نظرة طويلة عليه، نظرة وعيد وتهديد.

كان ديفيد يبلع ريقه من وقت لآخر مع كلمات بيتر سميث، حاول كثيرا أن يتكلم ولكنه في الحقيقة كان سعيدا بأن بيتر لم يذكر شيئا بشأن ما حدث في المركز الطبي، لكنه بعد قليل تعجب كثيرا، لقد رآني بيتر، إنه أكيد بأنه أنا من مر جواره ونظر في عينيه، يعلم تماما بأنه أنا نفس الشخص الذي فتح خزانته وأخذ المسدس، بأنني نفس الشخص الذي اعتدى على رجل الأمن، يعلم كل ذلك، شعر برعب عميق، حاول أن يصدق كثيرا بأن بيتر لم يتعرف عليه، لقد أتى

إلى هنا سريعا ليتأكد ولكنه لم يجد شيئا يقر ما رآه فتنحى عن ذلك، لم يستطع أن يواجهني بذلك، لم ير ما يريبه، شكوكه ذهبت بعيدا، رغم أن ديفيد حاول كثيرا أن يقنع نفسه بهذه الفكرة إلا أن قبولها كان أمرا مستحيلا، الفزع الناتج من المسألة كلها منحه حلقة درامية مفككة وغير مفهومة، نظر تجاه السرير ثم بسرعة وخفة انزلقت يده وأمسك بالمسدس وأخرجه ونظر إليه نظرة غير مصدقة، كان يتمنى لو أنه لم يجده، ليؤكد لنفسه بأنه لم يكن هناك في المركز الطبي، لم يضرب رجل الأمن، لم يفتح الخزانة، لم يأخذ المسدس والأقراص، لم يقابل جون وتلك السيدة المخبولة، لم يكن هناك يتحدث إلى باتريك بلامر، لم يكن هذا الأخير قابضا على رقبته، لم يكن الجمهور في انتظار قفزته الزمنية، لم ينظر إلى بيتر سميث وهو يهم بالفرار، لم يحدث كل ذلك.. ولكن المسدس في قبضة يده كان كفيلا بأنه يمسح كل تلك الأمنيات، أن يزيحها تماما، أن يمنحه جزءا كبيرا وجديدا من الشقاء.

46

ظل يتذكر في طريقه إلى الصيدلية العديد من الأحداث الأخيرة ولكنه في الحقيقة كان متعجبا للغاية من صلاته، ركع على الأرض وشبَّك يديه ووضعهما على حافة السرير وأسدل رأسه قليلا وتلا صلاة، كان يصلي بمحض إرادته، دون دافع من خوف، دون دافع من غموض مقيت يدفعه إلى الجنون أو إلى الاستسلام، في الحقيقة كان يصلي من أجل الصلاة، تذكر الشاب الوسيم إبان أيام الجامعة «مايك بلوم فيلد» حينما كان يتضرع كثيرا إلى الله رغم أخطائه وعربدته ونزواته المتتالية، رغم معاشرته للعديد من النساء إلا أنه كان يرى في صلواته خلاصا، ورغم أن ديفيد كان يتعجب كثيرا من ذلك بل ويسخر في نفسه منه في كثير من الأحيان إلا أن كلمات مايك ما زالت قائمة في صدره، لم يعلم لم تذكرها في تلك اللحظات، ربما حينما تذكر دخول صديقه عليه وهو يلهث: «لقد كنت على حافة الموت ولكن الله أنقذني، إنها صلواتي، بالتأكيد إنها هي ما أنقذني من بين أنياب الموت الجائع دائما وأبدا، أتعلم يا ديفيد، إن الله يحبني رغم ما أفعله من خطايا لأنني لا أنساه وأشعر

به دائما بجواري، إنه ينتظر توبتي ويخلصني من أجل أن أصبو إليه، من أجل أن يرسل لي تلك الرسالة التي تقول: «إن الله مع راغبي التوبة يغفر لهم ويمنحهم الخلاص»». كانت فلسفة غريبة وكريهة في نظر ديفيد، كان يرى أيضا أنها كذب فاضح على الإله، تلون مقيت يجب صلب صاحبه، لكنه في لحظات صلواته كان يتلو ما يستطيع أن يقوله، شعر بأن «مايك بلوم فيلد» كان على حق، خطيئة وتحذير إلهي، خطيئة وعقاب ومن ثم التوبة، الترتيب الطبيعي، يعلم أنه يمر بمرحلة العقاب وعليه أن يطرق أبواب التوبة ولكن ما كان يؤلمه وبشدة أن خطيئته لم تكن واضحة له ولكنه كان يستشعرها، كان بكاؤه حادًّا ولكنه شعر براحة غريبة حينما انتهى من صلاته، حرر نفسه من كل تلك القيود التي وضعه فيها بيتر لدقائق وجدانية خالصة بعيدا عن الرعب والألم والشقاء، تذكر فترات غيبوبته حينما استفاق على أيدي بيتر سميث، الآلام والذل كانا يمران في مخيلته كأنهما واقع في هذه اللحظات، ولكنه واقع له شكل آخر ورؤية أخرى، كان يدرك جيدا أن يومين يفصلان بينه وبين النهاية، لم يكن يدري بالتحديد ماذا يفعل، ولكنه أيقن ذلك في ساعة متأخرة حينما كانت روكسانا تقف في مواجهته داخل الصيدلية، لم يشعر بكل هذا الوقت الذي مضي! لم يتذكر متى وكيف فتح الصيدلية! لم يكن يدري أيضا إن كان هناك زبائن جاءوا إليه أو لا! ولكن هذا

أمر مفروغ منه، بالتأكيد جاء الكثيرون، بالتأكيد تحدثت إليهم ولكن الغيبوبة داخل أفكاري وهواجسي أنستني كل ذلك.

نظر إليها تلك النظرة الفزعة، تلك النظرة الممزوجة بالألم والخزي، لا بد أنه رأى حينئذ ما حدث لها، تخيله في لحظات قليلة؛ لأنه بعد لحظات سالت منه دموع دون أن يشعر، كانت عينها اليمنى متورمة قليلا تحيطها هالة بنفسجية قاتمة، لا بد أنها لكمة قوية أطاحت بها، أفقدتها جمالها وأكسبته هو ألما دفينا، شعر بألم رهيب يتوغل داخل رأسه، ينخر بشدة، بلا توقف، لم يستأذن أو يفكر، أخرج قرصا ودسه في حلقه، يحمل الكثير من الأقراص في جيب سترته، لم ينسَ ذلك، اعتقد للحظة في البداية بأنه لا يوجد معه ثمة أقراص وعلم أيضا أن بيتر سميث لن يعطيه شيئا؛ لأنه يدرك بأنه أخذ ما كان موجودا في الخزانة، اللعين الماكر، تبا له ولأقراصه.

كانت مبتسمة ابتسامة رقيقة باهتة وحزينة للغاية، تلك الابتسامة المتمسكة بآخر ذيل للحياة، الابتسامة المستسلمة للقدر، ألقت تلك الابتسامة بالحزن الشديد في قلب ديفيد، ألقت في قلبه الرعب أيضا من ذلك المريض الذي لا يرحم حتى ذلك الكائن الضعيف الرقيق الماثل أمامه، سرى الغضب في رأسه، في جسده، في أفكاره، حاول أن يقول شيئا ولكنه اكتفى بالصمت قليلا، بادلها ابتسامة حزينة مواسية، كانت هناك ومضات تلوح أمام عينيه، حاول إخراسها

وإبعادها عنه بقدر ما استطاع، ولكن بدا ذلك الأمر مستحيلا، كل شيء ملفع بإحساس قاسٍ وصعب مرير، إن الحديث في مثل هذه الثواني يعد أمرا لا حاجة له، لا تقولي لي ما حدث، لا تخبريني بالحقيقة المؤلمة، إنه يعلم كل شيء ولكنه يتلاعب بنا، ذلك المريض يتمتع بالذكاء الحاد والقسوة المفرطة، يتمتع بعبقرية الشر، القسوة التي تنتزع القلوب من الأجساد التي ما زالت تنبض بالحياة، إن كان يعلم أنك أنت من ساعدني فلم كل ذلك؟! يعلم أنه تم بيننا اتفاق لنصل إلى الحقيقة، أنني أسير على عكس ما يريد، لا أنفذ له مطلبه الوحيد الذي يساوي حريتي، حريتي الكاذبة، أنت مخطئ يا ديفيد، تكذب على نفسك، فإن القساة والسجانين لا يمنحون أحدا الراحة أو الحرية، إنها كلمات ومفاهيم لا توجد في قواميسهم، لا وجود لها على الإطلاق في معاجمهم الطاغية، فمن أين سيحصلون على لذتهم من الحياة إلا من خلال أمثالنا نحن الضعفاء، المستسلمين لأقدارهم؟! لن يمنحني شيئا سوى الموت وسينتهي الأمر، ولكن تلك الحقيقة التي لا أفهمها! أين هي؟! ومن أين أمسك بطرفها؟! إنه باتريك بلامر، لقد أعطاني الكثير ولكنني لا أفهم ما يرمي إليه، ذلك المجنون ليس مجنونا، إنني أستطيع أن ألمس ذلك، أنا مجرد لعبة، ولكن ما الغاية من اللعب بها؟! تنفيذ خطة الموت؟! دفعي إلى الأمام بقوة وقسوة للنيل مني؟! لا لن يحدث ذلك.

بعد أن فكر في نفسه كل تلك الأفكار اكتشف أنه يسير بجانب روكسانا في شارع كارسون، كانت المحال جميعها مضاءة، الكل يحضر لليلة رأس السنة، أشجار أعياد الميلاد منتشرة في كل مكان، يستطيع أن يرى المحالَّ الممتلئة بالهدايا، الصخب الدافئ الذي امتلأت به الشوارع، سانتا كلوز وهداياه، الأطفال الذين تلوح منهم الابتسامة الموسمية الدافئة البريئة، تذكر أيام طفولته وهديته الأخيرة التي أهدتها له أمه، ما زال يحتفظ بها رغم ما يكنه لها من كره، رغم ما يكنه في صدره من ألم تسببت له به، لأول مرة يرى ديفيد جونز حياته من ناحية أخرى، شعر بوخز غريب في ضميره يؤنبه على ذلك الكره الذي حمله على مدار كل تلك السنوات، ابتسم ابتسامة حزينة ولكنها بدت له راضية وقانعة بالحياة، كانت روكسانا في هذه اللحظات تنظر له باهتمام شديد، ترتدي نظارة تخفي بها عينيها، لكنها لم تجفل عنه لمجرد ثانية واحدة، وقفا في مواجهة كازينو ناجتس، لاحظ ديفيد تلك الدموع التي سالت من أسفل النظارة، كانت تسيل بشكل منتظم ومؤلم، لم يدر ماذا يفعل! حاول أن يتكلم ولكن توقفت الكلمات في اللحظة الأولى، شعر بغضب أيضا وقلة حيلة أصابته بالحزن والذل والعجز، «لقد حجز لنا في فندق (Gold Dust West Carson City) ليلة رأس السنة، إنه يفعل ذلك كل عام منذ زواجنا، لا أدري يا باتريك ولكن يبدو أنه لا ينوي

خيرا على الإطلاق، لا أستطيع أن أقص لك ما حدث معي، فلقد دخل عليَّ اليوم وكان هادئا ذلك الهدوء المخيف الذي تعودته، وبعد أن أشعل سيجارة قام وأطفأها سريعا»، وجهشت بالبكاء، ربت على كتفيها شاعرا بالألم لها، محاولا تهدئتها، ولكن ذلك لم يقلل من انهمار دموعها، بكت بشدة وكأنها كانت تفتقر إلى ذلك، تفتقر إلى أن تقص معاناتها وشقاءها، إلى أن ترمي دموعها وحتى إن كانت في أحضان الرياح الباردة، «أطفأها في فخذي الأيسر من الداخل بعد أن كتم أنفاسي حتى لا أصرخ، بعد أن طوقني بيديه القويتين، وحينما نهضت بعد ذلك الألم الرهيب، تلك النار التي أوقدها في جسدي، الذل والإهانة، لكمني لكمة قوية فقدت على أثرها وعيي... وحينما استيقظت لم أجده، ارتديت ملابسي ولم أعلم إلى أي مكان أذهب، أخاف من الهرب، فلقد حاولت قبل ذلك ولا تعلم مدى الألم الذي ذقته بعد ذلك، وجدت نفسي واقفة أمامك، قدمي هي من أرسلتني إليك»، صمتت للحظة وهي تتنفس بصعوبة بالغة ثم صاحت قائلة وهي تجهش بالبكاء: «أنا خائفة يا باتريك.. أنا خائفة»، وانهمرت دموعها بغزارة وألم.

رغم أن القرص الذي تناوله ديفيد منذ فترة كان كافيا لأن يزيح عنه آلامه إلا أنه أيقن بأن الآلام التي يشعر بها الآن لا علاقة لها بالإدمان، رفع رأسه إلى السماء وكأنه يستنجد بالملائكة، بالله

المنقذ، بأي شيء، نظر إليها متألما، تعجب من نفسه، إنه الآن للمرة الثانية ليس ديفيد جونز، ليس باتريك بلامر المزيف، إنه الإنسان الذي يرق إلى البؤساء أمثال روكسانا، شرع يرى الحياة بمنظور آخر لم يره من قبل، رغم أنه في البداية رأى أن ذلك أفضل كثيرا إلا أنه أيقن بأن ما يمر به الآن هي حياة حقيقية بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، البؤس والعذاب هذا هو التعريف الطبيعي لكلمة الحياة، وهذا الأمر الأخير، الحرمان منه نقمة كبيرة، هكذا رأى ديفيد الأمر في هذه اللحظات، أومأ برأسه بهدوء وبطء، كان راضيا رغم كل شيء.

47

في طريقه إلى غرفته، كان يرى ثمة أشياء تلوح في فكره، لم يستطع أن يقبض على أحدها لتكتمل له رؤيته؛ لذلك ظل شاردا مشتتا غير آبه بشيء، في الحقيقة لم يستطع ولو للحظة أن يعود بخطوات عقله بشكل سليم ليرسم الخطة التي قرر أن يسعى إليها خلال تلك الدقائق الأخيرة العسيرة والمؤلمة، وجد نفسه في غرفته حينما كان يطالع وجهه أمام المرآة، اكتشف ذلك حينما واجه عينيه، خلفهما كان يقبع شيء يريد التوغل إليه، نظراته كانت متحيرة ومستطلعة وكأنه ينتظر شيئا يخرج منهما، بالتأكيد لا ينتظر ذلك الشعاع الذي يدمر الأشياء المواجهة له، فإنه لا يعيش في عالم ساذج كما يتصور بعض الحالمين والأغبياء من وجهة نظره، إنه يعيش في عالم بيتر سميث اللعين، العالم الذي يضع له مهلة لا تتعدى سبعة أيام ليختار خلالها بأي طريقة يموت، الانتحار أو الكهرباء، كلها أشياء تبدو له واحدة لأن النهاية بالتأكيد واحدة، اختلاف طرق الموت لم يعد يهمه في شيء في هذه اللحظة، أراد أن يبكي ليس على ما يلاقيه

أو ما وصل إليه، ولكن بسبب شعوره في تلك اللحظات تجاه حياته البائسة، لم يكن يدري أنه عاش ميتا وعندما دبت الحياة فيه قُرِّر الموت، إنها الكوميديا السوداء المعهودة، تجد ما نحب في اللحظة الأخيرة، أو هكذا يبدو الأمر دائما، نجري في جميع الاتجاهات عدا الاتجاه الوحيد الملائم لنا، نعيش كل شيء عدا الحياة نفسها.

تذكر أن عليه أن يكتب عن اليوم الخامس، اليوم الذي يسبق لقاء حتفه بيومين، هل للأمر أهمية كبيرة؟! فإن كانت النتائج مقررة فلم بذل كل ذلك الجهد؟! إن كانت الصلابة لا تلين فلم الطرق عليها بقوة؟! حدث نفسه في نفور وألم واستياء، ولكنه سرعان ما أدرك أن تلك الأوراق التي يكتبها تمثل له الحياة الحقيقية رغم ألمها، فهي الشيء الوحيد الذي يمثل له معنًى في حياته. أمسك بالقلم بعد أن جلس على الكرسي الذي شهد أقسى لحظاته وأكثرها حياة والتفت إلى السرير متذكرا ذلك المسدس الذي يغوص في أحشائه، أطرق برأسه إلى الأرض مفكرا محاولا تجميع أفكاره رغم أن الأمر بدا له مستحيلا، علم أنه لا سبيل إلى الالتزام بمحاولة التفكير في ظل صراعه النفسي هذا، كان ديفيد واعيا بالقدر الكافي ليقرر ذلك، شرع يكتب في هدوء.

اليوم الخامس

الورقة الخامسة

بيتر سميث

أعتقد أنني قريب للغاية من فك رموز ذلك اللغز الذي أرهقنا معًا، وأعتقد أنني قريب بما يكفي من نيل حريتي، أؤكد لك ذلك، فلقد قابلت روكسانا وأستطيع أن أقول إنها منحتني الكثير من الأسرار، فعلى سبيل المثال هي تذهب يوميا من الساعة الرابعة عصرا إلى السادسة عصرا إلى مكان لم تخبرني عنه، أو هكذا أرادت، ولكن أؤكد لك أن هذا الأمر يرتبط بموضوعنا المشترك تمام الارتباط، كما أنها أخبرتني بطريقة غير مباشرة بأنها بالفعل لا تحبك، لا تطيقك إن سألتني عن رأيي، فأنت تبدو لها مقرزا ولا تستحقها على الإطلاق، يبدو أنها نالت منك ألوانا متعددة من العذاب، أرجوك لا تفهمني بالطريقة الخاطئة، فلقد أخبرتني بأن أقص لك كل شيء وأي شيء، ويبدو ذلك واضحا مثلا من عينها المتورمة التي اكتشفت أنك كنت سببا في إتلافها، لا عليك، فنحن الرجال مجانين حينما نشعر بأن هناك مغتصبا يطرق باب شرفنا، بأن هناك مجرما يهدد أمن حياتنا، وأعتقد أن الأمر بالنسبة لك ليس منوطا بالشرف فقط، أعتقد أنه الحب الأبله والمجنون الذي قاد العديد من الأشخاص إلى الجنون أو إلى... الموت.

أعتقد أنني سأظفر بما تريد، فلقد أخبرتني بأن هناك مفاجأة لك في ليلة رأس السنة، وعلمت أيضا أنكما ستقضيانها في فندق «Gold Dust West Carson City»، هذا لأؤكد لك كلامي فقط، لقد استراحت لي كثيرا، وهذا واضح مما أذكره لك، أنت تعلم أن علاقتي بك هي علاقة أقراص وأوراق موثقة، أليس كذلك؟! كما أخبرتني يا بيتر، إن الأمر لا يتعدى كونه مصلحة متبادلة، تمنحني حريتي وفي المقابل أمنحك ما تريد، لا تقلق، وأكرر لك مرة أخرى، إني قريب جدا من نيل حريتي، أعتقد أنك مستعد لهذا الأمر، رغم أنه سيعز عليَّ كثيرا فراقك، ولكن الفراق هو سمة من سمات الحياة، أليس كذلك؟! فهو يوضح أهمية الأشياء والأشخاص لنا، إنها فلسفة غريبة ولكنها كل الحقيقة.

أوه، كدت أن أنسى، إنني لن أذهب إلى الصيدلية غدا، فلديَّ الكثير من العمل بشأن روكسانا، عليَّ مراقبتها لكي أحصل لك على ما تريد، سنتقابل قريبا بكل تأكيد، هناك أشياء كثيرة لا بد أن تبرزها وتوضحها لي حتى أعلم ماذا سيحدث بعد ذلك، هذا حقي بكل تأكيد كما تعلم.

ديفيد جونز

2011 /12 /29

اليوم الخامس

الورقة الخامسة

ديفيد جونز

أعتقد أن ليس هناك مفر مما أفكر فيه، فإن الآلام التي لحقت بي في الفترة الأخيرة كانت كافية لتوقظني من أشياء عدة، أعتقد أن ما أراه من ومضات غريبة هي أشياء بالفعل مرت بي خلال تلك الأشهر اللعينة التي وقعت من ذاكرتي والتي أوصلتني إلى هذا الحال، ليتها تكون واضحة أكثر من ذلك، لا أستطيع أن أقول إنني أكره ما مر بي أو أحبه، ذلك رغم أن الأيام القليلة أوضحت لي أشياء كثيرا لم أفقهها، بل لم أكن أعلم بأنها موجودة من الأساس، على الأقل في نفسي، لديَّ الكثير لأقوم به خلال يومين، بيتر سميث يستحق الموت، ولكن من منا لا يستحق الموت؟! أستطيع أن أقول إنني أيضا أستحق الموت، ولكن ليكن موتا آتيا بعد رضا واقتناع، الموت الذي يسبقه ذلك الشعور بأن حياتنا كنا نستحقها بكل تأكيد، هكذا سيكون الأمر مقبولا.

روكسانا أصبحت تمثل لي هيلدا البريئة، الضحية التي لا أدرك بالضبط ماذا حدث لها ولكنني بكل تأكيد أستطيع أن أقول بعدما قابلت باتريك بلامر وبمعرفتي ببيتر سميث إن هناك مؤامرة قذرة

دبرها ونفذها مجانين للوصول إلى ما أنا عليه الآن، بيتر سميث شخصية مريضة ويجب أن تعالج أولا قبل أن تموت، أخاف كثيرا من أن يتخذ خطوة مباغتة لا أتوقعها لذلك عليَّ أن أكون مستعدا دائما، سيكون المسدس دائما بحوزتي، الآن عليَّ أن أقرر اختيارين أقسى من بعضهما البعض، الحياة أو الموت.

الحياة أو الموت..

ديفيد جونز

2011 /12 / 29

كان ديفيد جونز يكتب الحياة أو الموت بعيون لامعة، مستغرقا بعمق فيهما، لم يكونا مجرد كلمتين، بل كانا أكثر من ذلك بكثير، فإن الحياة كانت تعني له أبعادا أخرى غير تلك التي تقرؤها في مقالة أو كتاب ما أو ربما رواية درامية، إنها الحياة التي سيمنحها لنفسه إن حقق ما يسعى إليه في دواخله حتى وإن كانت النهاية الموت، حتى وإن كان الأمر برمته يقذفه بقوة إلى باطن الأرض ليرسم لوحة تحمل اسم مقبرته، لم يكن آبهًا بذلك بقدر ما كان معنيا بالحصول على تلك الحياة، أما الموت بالنسبة له كان عكس كل ذلك، التوقف، اللا إحساس بما تعلمه، كان سيموت بالفعل من أثر الصدمة لو لم ير ما يجب تحقيقه، فإن الموت بالنسبة له بعد هذه

الأيام هو عدم الانخراط في المعاناة الإنسانية والألم، عدم النظر في صورته الحقيقية التي تقبع خلف عينيه رهن الإشارة لتتضح له جلية وساطعة، كان يرى أصول الحياة ومعانيها تدب فيه، التحول الأخلاقي والحسي خلال تجربة مؤلمة وقاسية أضحت بالنسبة له أسمى صور الحياة، تمنى كثيرا برغبة كبيرة لو أنه يحل أحجية الجزء المفقود، كان يدرك جيدا أن ما تخفيه الأشهر الثمانية اللعينة التي خرجت عن قضبان ذكرياته ليس إلا كابوسا مخيفا أو كارثة كبرى؛ لذلك يأبى عقله استرجاعها دفعة واحدة وبشكل مباشر؛ ولذلك سلم الأمر برمته لما تبقى، لقرار القدر.. لليومين الأخيرين..

ديفيد

«حينما نشعر بأننا لا نستحق الحياة، فإن الموت في هذه الحالة يستحقنا».

ديفيد جونز

48

في اليوم التالي شعر بأنه إحدى شخصيات العمل الشهير «في انتظار جودو»، شعر بأنه «جودو» نفسه الذي لم ولن يأتي على الإطلاق، سيذهب الجمهور إلى بيوتهم لمواصلة حياتهم الروتينية الرتيبة متسائلين لماذا لم يأت جودو؟! وهل سيأتي يوما ما؟! إن جودو يمثل القيمة الحقيقية للحياة، الوعد المتبقي لديفيد جونز، الذي أصبح هو بحد ذاته وتركيبته «الجودية» ديفيد جونز نفسه، كان يرى أن وعد الله له سينفذ قريبا، كان يراه ضوءا ساطعا في مكان ما وما عليه إلا الاقتراب بحذر ومن ثم التأمل، فلقد أسلم ديفيد جونز وأقر بأن الله يعطي وعدا لجميع العباد، وما على العبد المطيع إلا البحث ولكن قبل ذلك عليه الإقرار بأن ذلك الوعد ليس بعيدا، ليس بعيدا على الإطلاق إن آمن بذلك.

لقد دعم أفكاره تلك حياة المؤمنين المتلفعة بالرضا وتلك النظرة العارفة والواثقة من الأمور، النظرة التي تخبرك بشيء واحد: «بأن الحياة حياة حينما نعلم الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة»، كان يدرك من نظراتهم أنهم يعرفون الحقيقة، القيمة الحقيقية للحياة،

الرسالة العظيمة التي تبرز من خلال معاناتنا، اللغز الحقيقي لكل شيء الذي لا يطفو جليا إلا من خلال آلامنا.

بينما على الجانب الآخر كان يرى التيه في عيون المتمردين، المتحذلقين الذين يرون أنفسهم فلاسفة في الحياة، بينما هم ليسوا أكثر من عميان ضلوا سبيلهم وسط العتمة الأبدية، نعم هو كان أحدهم، الرجل الذي كان يعيش على حافة العالم وكاد يسقط من عليها، اعتبر نفسه أحد البحارة الذين رافقوا كولومبس في رحلته التاريخية، فقد كانوا يعتقدون أنهم سيسقطون من على حافة العالم إن تمادوا في رحلتهم الاستكشافية ولكن يا ترى أين سيكون السقوط؟! بالطبع لن يكون أبدا في الجنة الموعودة، بل بالتأكيد سيكون السقوط في سعير جهنم وإلا لاختار هؤلاء السقوط لا محالة.

لم يدر متى ولا كيف وصل إلى هذا المكان بالتحديد، آخر مكان قد يتخيل أن تسحبه قدماه إليه، إنه وببساطة تامة يقف أمام منزله الذي جمعه بهيلدا، شعر بألم في صدره، رمى السيجارة بفتور وهو يلامس صدره بيده اليمنى وكأنه يربت عليه، يبدو أنه دخن كثيرا خلال رحلته الطويلة على قدميه، علم بأن القدر أرسله هنا لسبب ما، سبب لا يعلم كنهه وما عليه إلا الاكتشاف، فلا شيء يحدث له هباء، بلا سبب، في الحقيقة إن ديفيد يؤمن تماما بأن لا شيء يحدث لأي شخص دون سبب ولا يوجد أبدا قانون يسمى قانون المصادفات.

نظر حوله في حذر، أخذ نفسا عميقا، اتسعت حدقتاه، لمعت عيناه، تحسس نفسه من عند منطقة الخصر بيديه، امتلكه التردد والخوف، لم يجلبه معه.. تبا، لا، إنه هنا، المسدس اللعين لم ينسه، أخذ نفسا عميقا آخر شاعرًا ببعض الراحة والطمأنينة ثم بهدوء اتجه نحو الباب الخلفي للمنزل، المكان ساكن، يغط في الهدوء، كان يراقب منزل السيدة ويليامز التي لا يفوتها شيء على الإطلاق، المرأة الفضولية العجوز، تستطيع تلك المرأة التعرف عليه حتى وإن كان يرتدي وجها مزيفا، لم تكن هناك، لم تلاحظ وجوده، لكنه يستطيع أن يستمع إلى أغنيتها المفضلة، كانت تأتيه من خلف الجدران دافئة كما هي We will meet again.

شعر بألم شديد ومفاجئ في عينيه ورأسه، ذلك الألم الناتج عن مواجهة ضوء ساطع بعد مكوث فترة طويلة في الظلام، كان واقفا في المطبخ يفرك عينيه بهدوء بأصابع يديه، يمسح على وجهه كاملا من على جانبيه، لم يجد ما يريب بعد أن بحث بعينيه في كل ركن في المطبخ ولم يتطلب الأمر وقتا طويلا حتى خرج منه محاولا بقدر الإمكان إزاحة ذكرياته التي ستؤلمه جانبا بالتأكيد رغم دفئها مع هيلدا، لن تمنحه سوى الشقاء.

وقف في غرفة المعيشة، كل شيء كما يتذكره تماما، التلفاز الكبير، الأريكة المريحة التي طالما جلس عليها يقرأ بجوار هيلدا بينما تقرأ هي الأخرى، فلكم كانا يعشقان القراءة.

اللوحة!!..

إنها نفس اللوحة التي توجد في غرفته اللعينة، سجن بيتر سميث، الرجل والثعلب وهما يجريان سويا.

جلس ديفيد جونز على الأريكة، بالأحرى سقط عليها وهو ينظر مذهولا، الآن أدرك أين رأى تلك اللوحة، لطالما كانت هنا! بالتأكيد ابتاعها خلال الشهور التي لا يستطيع تذكر شيء منها، يبدو كل شيء واضحا الآن، ليس كامل الوضوح ولكن في الحقيقة بارقة أمل شرعت تطفو على وجهه، نعم فهناك شيء واحد وأكيد جاء من المنطقة الضائعة، حاول جاهدا أن يتذكر لمَ ابتاعها ولكنه لم يأبه كثيرا لذلك، انقبض قلبه وشعر بمضض لأنه لم يستطع أن يتذكر أو حتى يفكر لأن الآلام في رأسه شرعت تلح بقوة، لم يتألم كثيرا لأنه بعد ذلك شعر براحة بعد أن تناول قرصا، في هذه الأثناء وعلم أيضا - بمضض - أنه في مرحلة يرثى لها؛ لأنه أصبح شرها في تناول تلك الأقراص، تأكد بأنه وبكل بساطة أصبح عبدا لها.

نهض من مجلسه وهو يفكر وعيناه لا تفارقان اللوحة، محاولات كثيرة لاسترجاع النقطة الميتة ولكن بلا فائدة، كان عليه أن يكون حريصا أكثر ولكنه اصطدم بالترابيزة الكبيرة التي توجد في غرفة المعيشة، المزهرية الوحيدة سقطت محدثة ضجة كبيرة، صوتها أشبه بصوت رصاصة طائشة خرجت من مسدس ثائر، وضع يديه

على مسدسه بسرعة مضطربا، تأكد بعد قليل من الشعور بالرعب بأنها فقط المزهرية، لعن الخوف مرات عديدة في نفسه ثم - ودون وعي منه - ظل متأملا المزهرية المتحطمة التي كانت على ما يبدو تحمل زهورا ماتت كما مات كل شيء في هذا المنزل، يستطيع أن يتذكر جيدا متى ابتاعها، لا، في الحقيقة هيلدا هي من ابتاعتها وهو برفقتها؛ لتضع فيها الزهور الطازجة، فلكم كانت تحب الزهور، تذكر أيضا تعرض تلك المزهرية للعديد من السقطات ولكنها كانت وافرة الحظ دائما ويتم إنقاذها في اللحظة الأخيرة، ولكن أبدا الحظ الجيد لا يستمر، ولكل شيء عمر محدد في هذه الحياة.

وسط الأجزاء المحطمة لمح شيئا، ليس غريبا عليه، يبدو أنه نوع ما من الأقراص، اقتضب وجهه، وامتلأت عيناه بالأسئلة، اقترب بحذر، كانت الأجزاء المحطمة متناثرة في أماكن متفرقة من شدة السقطة، جثا على الأرض في توتر وتساؤل، أمسك بالقرص بين أصبعين، تأمله طويلا، حاول بقدر الإمكان ألا يذهل مما يراه ولكن أخيرا شعر بالذهول والتعجب الشديدين وانتهى الأمر بالفزع، نظر حوله على الأرض كالمجنون باحثا عن أقراص أخرى وبالفعل كان هناك أكثر من قرص متناثر في أماكن متفرقة، جمع كل ما استطاعه وما وصل إليه بحثه خلال دقيقة تقريبا، لم يكن فاهما ما يجري، ما الذي أتى بتلك الأقراص اللعينة هنا؟! وقف طويلا وهو يتأمل

أحد الأقراص وظهرت في عينيه لمحة من الذكريات، «عليك أن تعلم يا ديفيد بأن الأزهار مسئوليتي الشخصية ولك الحق في شمها والتمتع بمنظرها فقط، لا تقترب من المزهرية؛ لأنك في كل مرة تشرف على إسقاطها من يديك، ولكن العناية الإلهية تنقذها ولا أستطيع تحمل خسارة تلك المزهرية بالذات»، كان صوت الماضي، صوت هيلدا يرن عميقا في أذنيه كصوت دقات أجراس الكنيسة العميق، لكم كانت تحب هذه المزهرية، تثور لو اقترب منها، ولكن! هل؟! كيف؟! لماذا؟! لم تكن الأسئلة في الحقيقة كاملة، لم يكن شيء واضحا على الإطلاق، كان هناك الكثير من الهواجس، همسات الشياطين، الفزع والثورة، الانقباض والألم، حاصرته الومضات اللعينة، بدت له ابتسامة أمه مخيفة بشكل رهيب، وبدت رائحة أبيه كقبر نبشه كلب ضال، لم يشعر بأنه يلهث إلا لاحقا، لم يكن يحتاج للجري في هذه الأثناء ليصاب بذلك الألم في صدره، الذي لا ينتج إلا عن قطع مسافة طويلة من الجري خوفا.. بل رعبا.

حاول تجميع أفكاره ولكن بلا جدوى، دس الأقراص التي حصل عليها في جيب سرواله، اقتحم المطبخ مرة أخرى وفتح صنبور المياه، انتظر لدقيقة تقريبا، دقيقة طويلة ومؤلمة، حتى جاءت المياه لتتدفق على كفيه بعد شهقات متقطعة من صنبور المياه، بدا له الصنبور رجلًا عجوزًا لم ييأس من التدخين، جمع ما استطاع أن يحويه كفاه من الماء وغسل وجهه، قام بذلك مرات عديدة بحركات

عصبية سريعة، وقف منحنيا قليلا مستندا بيديه على ترابيزة المطبخ ورأسه مطأطأ محاولا بقدر الإمكان أن يجمع صورة مقبولة، صورة واضحة، صورة يمكن للعقل تقبلها، ولكن كانت كل الصور المجتمعة خيالية للغاية، باهتة بشكل مؤلم، رفضها تمام الرفض.

بعد دقائق معدودة لم يستطع أن يتذكر ما حدث بها، اتجه إلى الطابق العلوي، صعد الدرج حذرا للغاية، كانت يده اليمنى تقبض بقوة على المسدس المحشور بين سرواله والجانب الخلفي الأيمن من خصره، لم يكن ليفعل ذلك، لكن شيئا في صدره يخبره بأن المفاجأة القادمة لن تكون جيدة، لن تكون على الإطلاق، وقف في الممر، غرفتان وحمام، غرفة النوم هناك، إنها الغرفة الأولى على اليمين، لم يفكر كثيرا، انطلق تجاهها، كانت الغرفة في حالة فوضى عارمة، أخرج المسدس بسرعة، دلف الغرفة بتوتر وحذر، وجه المسدس في الفراغ منتظرا أن يظهر أي شيء ولن يفكر لثانية واحدة قبل أن يجهز عليه، سيطلق الرصاصات جميعها بأسرع ما يمكنه صارخا «لتذهب إلى الجحيم أيها اللعين»، كانت يده شبه ميتة رغم كونها مرتجفة، جامدة كالموت وهو يقبض على المسدس، ظل يدور دورات متكررة متوترة يبحث هنا وهناك في الغرفة، في الدولاب، تحت السرير، خلف الباب، وحينما تأكد من أن لا شيء هناك، خفض المسدس وزفر زفرة طويلة ثم تذكر ما أتى لأجله، لماذا أتيت يا ديفيد؟! بالتأكيد هناك شيء ما، ولكن ما الذي

فعل بالغرفة كل ذلك؟! في الحقيقة كان ديفيد يواجه بأفكاره ألمه، فجزء منه كان لا يستطيع أن يكون فكرة كاملة أو تصورا كاملا بفعل الألم الذي هاجمه بشدة في هذه الأثناء، ولذلك لم يتوانَ عن دس يده في جيبه واستخلاص قرص من الأقراص الأخيرة من جيب سرواله وابتلاعه، وبعدها ضرب بكف يده على منطقة حنجرته لكي يغوص القرص في جوفه، وقف منتظرا أن يحدث تغيير بعد تناوله للقرص ولكن على غير العادة لم يحدث أي شيء، بل إن الآلام كانت تطفو بلا أدنى عائق، تبرز دون أن يوقفها شيء، فبدا له أن ما تناوله ليس أكثر من حلوى للأطفال ولكنه لم يأبه كثيرا لذلك، بل شرع يدور بعينه وهو يتوسط الغرفة، ربما يصل إلى شيء ما، هذا فستان هيلدا الأسود مكشوف الظهر، إنه آخر شيء رآها به، ومضة قوية جعلته يداري عينيه في هذه اللحظات بذراعه، بعد ثوانٍ ظل مواجها الأرض بعيون مغمضة ووجه عابس، مد يده بين ملابس هيلدا المعلقة داخل الدولاب، ظل يبحث كالمجنون ويرمي كل ما تصل إليه يداه خارج الدولاب، لم يكن يفعل ذلك هباء، إنه يفعل ذلك لسبب ما، يشعر بذلك السبب يجري في دمه، في منطقة ما من تفكيره، أصبح حماسه كبيرًا، بل تحول إلى غضب كبير وهو يقذف بكل شيء خارجا، حتى فرغ الدولاب تماما من أية ملابس أو أية متعلقات أخرى، إن الدولاب من النوع الذي تكون خلفيته الحائط، ليس خشبيا كما في العديد من الأنواع الكلاسيكية، نظر إلى الحائط

طويلا، كانت نظرة واثقة ولكنها قلقة خائفة، يستطيع أن يرى شيئا ما، طاقة صغيرة تشبه الحفرة في الحائط مغلقة بباب صغير خشبي، فتحها بسرعة، لم تكن موصدة، لم يجد شيئا سوى مفتاح صغير يصلح لقفل صغير أو ربما لخزينة، وقف طويلا وهو يفكر، وبسرعة أعاد المسدس إلى مكانه، كالمجنون اتجه هرولة إلى الطابق السفلي ووقف في مواجهة اللوحة، لوحة الرجل والثعلب، نظر لها طويلا، تمعن النظر، شرد طويلا بل غاب عن الوعي، لا يعلم من أين أتته تلك الفكرة ولكن يبدو أنه شرع يتذكر أشياء عديدة، أشياء لم تكن موجودة على الإطلاق قبل هذه اللحظة، رفع اللوحة من مكانها بتوجس مفكرا، وضعها جانبا على الأرض، كانت عيناه لامعتين وهو ينظر إليها، حدقتاه واسعتان عن آخرهما، لقد وجد خزنة موصدة، خزنة توجد خلف اللوحة، أمسك بالمفتاح ونظر له طويلا، ثم بشيء من الشك وضعه في مكان فتح الخزنة، دار المفتاح بهدوء وسهولة، فتح الخزنة، وجد علبة، أخذها من مكانها بحذر ونظر لها طويلا، إنها علبة مسدس، فتحها ببطء وترقب، علبة قطيفة من الداخل، حمراء اللون، لم يكن هناك مسدس على الإطلاق، بل العلبة فارغة، فكر قليلا، شعر بألم كبير في رأسه ولكنه لم يأبه على الإطلاق، ظل متسمِّرا في مكانه شاردا للحظات محاولا جمع أفكاره، استعاد المسدس مرة أخرى وأمسكه في يده لثوانٍ وهو يتأمله بعيون متشككة، هل ما يفكر فيه صحيح؟! وضع المسدس في

المكان المخصص في العلبة، نعم إنه مطابق تماما، المسدس الذي حمله كل هذه المدة، هذه هي علبته، تقبع في خزنته الخاصة خلف لوحته التي ابتاعها في الفترة التي لا يذكر شيئا منها، كان مذهولا بالقدر الذي يجعله يجن، أو يطلق رصاصة على رأسه، ولكنه لم يفعل ذلك بل شرد بعيدا وسط أفكاره، لم يستطع ديفيد أن يتذكر متى تم بناء هذه الخزنة؟! وهل كان يملك خزنة بالفعل؟! وإن لم يكن كذلك! فكيف تذكر مكانها بهذه البساطة؟! ولكن المسدس؟! أسئلة كثيرة صارت تتردد في ذهنه، صداها يتردد في روحه المشردة، الحلقة تكبر وتتسع وديفيد لا يفقه شيئا، بيتر سميث، لقد وجدت هذا المسدس في خزانة بيتر سميث! ما هي العلاقة بين كون المسدس هناك وعلبته الخاصة هنا؟! ماذا حدث بالضبط خلال الثماني أشهر اللعينة ومن يكون بالتحديد بيتر سميث؟! هذا السؤال الأخير الذي طالما سأله ديفيد لنفسه في فترات خلواته بأفكاره لم يكن يطرحه الآن بنفس الطريقة، إنه السؤال الحقيقي الذي خرج حقيقيا لأول مرة، خرج مجردا، عميقا، مريحا رغم غموضه.

من يكون بيتر سميث؟!

49

كان هناك صوت آتٍ من المطبخ، صوت خفيف ولكنه هناك، انتبه ديفيد جونز لذلك الصوت سريعا وسرت في جسده قشعريرة، لم يلبث أن أمسك بالمسدس متوترا ووضع العلبة مرة أخرى داخل الخزنة ولكنه لم يغلقها، انتظر ساكنا في مكانه ومترقبا، كانت دقات قلبه تسرع بشكل ملحوظ، استرق السمع مرة أخرى، كانت خطوات خفيفة جدا وحذرة أيضا، تشبه تلك الخطوات التي تأتي ليلا داخل ممر في كابوس مرير، تأكد من ذلك بعد ثوانٍ، ثوانٍ ثقيلة للغاية، لم يجرؤ على الاقتراب، ولكن في نفسه تمنى ذلك كثيرا، إن الرعب والشقاء الذين نالهما خلال كل تلك الفترة السابقة وما يلاقيه وما هو في انتظاره كان كفيلا بأن يقضي على الشجاعة المتبقية في داخله، أغمض عينيه محاولا تهدئة نفسه، هكذا كانوا يقولون له دوما، أغمض عينيك لتهدأ، لا يعلم ما العلاقة الحقيقية بين الظلام والهدوء ولكنه أخيرا فعل ذلك لثوانٍ قليلة، القشة الأخيرة التي ربما تنقذ الغريق، ولكنه سرعان ما تراجع مستخفا بذلك الفعل، فإن من يسير متجها بحذر نحوه لا يؤمن بالظلام السخيف، بل يؤمن بأشياء أخرى، وبالتأكيد لن تكون في مصلحته.

ارتطم شيء في المطبخ أحدث جلبة كبيرة، وأحدث أيضا رعبا كبيرا في نفسه، تصبب عرقا في هذه اللحظات رغم برودة الجو جراء الألم اللعين الذي اجتاح كل جزء في جسده، في الحقيقة لم يكن الألم وحده بل أيضا الخوف، صوب المسدس نحو باب المطبخ الموارب، العرق يسيل من جبهته متجها إلى عينيه، اجتاحه شعور بالتناوب ما بين البرودة والسخونة، كان مؤلما، لكنه كان يدرك أن الآتي سيكون رهيبا، وربما ما يعانيه من ألم الآن سيكون الأخير.

صوت صرير الباب، الباب موارب، لا يظهر إلا القليل جدا من داخل المطبخ، إنه ينفتح بهدوء، صوته بطيء مرعب، بلع ريقه بصعوبة كبيرة، لعن كل كلماته اللعينة عن القتل وعن الانتقام، لعن ذلك الحماس الذي اجتاحه يوما بأنه قادر على فعل شيء، لقد كان بيتر محقا فيما فعله بي، فلقد اختار الضحية الملائمة للقيام بمهمة ساذجة، لقد كان بيتر يتلاعب بي، يعلم أن وحدهم السذج هم الأفضل على الإطلاق لإجراء أبحاث مجنونة عليهم، ذلك المريض اللعين يرقص مع الشيطان بينما أنا أرقص مع الموتى، لقد كان باتريك بلامر محقا، أنا مجرد لعبة لعينة يتلاعب بها الجميع، لست أكثر من ذلك، لقد كان ذلك المجرم الذي ركلني محقا حينما قال بأنه يكره الجبناء، فلمَ يعيش الجبناء أمثالي في عالم الذئاب؟! لقد ابتعت لوحة الثعلب، نعم لقد ابتعتها لكي أشعر بالانتماء لهذا العالم الشرس. دارت كل تلك الأفكار في رأس ديفيد في لحظات

معدودة، كان يعلم في نفسه بأنه لن يطلق رصاصة واحدة، سيتسمر في مكانه، مجرد أحمق في جسد رجل يلعب بمسدس كالأطفال، بل إن الأطفال يستطيعون في أوقات فارقة أن يطلقوا الرصاص ولكن بالتأكيد لن يكون هذا الطفل هو ديفيد جونز. ليكن ما يكون، تبا لكل شيء ولْيِنتهِ كل شيء..

كانت السيدة ويليامز تقف في مواجهة ديفيد جونز، تبتسم ابتسامة رهيبة أربكته، كانت واثقة تنظر له نظرة لا تحمل أي معنى، تلك النظرة ألقت بالرعب في جوفه، كان قابضا على المسدس، مصوبا باتجاهها، ينظر لها متوترا، مسح بكف يده العرق من على جبهته وعينيه بتوتر واضطراب شديدين، في الحقيقة أراد أن يقول شيئا ولكنه لم يستطع، كان ذلك واضحا من حركة شفتيه المرتجفتين، الهدوء والاطمئنان يبدوان عليها بشكل غريب، لا يبدو عليها الخوف، كأنه لا يحمل أداة قتل مصوبة في وجهها، لم تعلق على شيء، بل لم تكترث، وكأنه بالفعل طفل يلهو في الحديقة الخلفية لمنزلها، ومن وجهة نظر العجائز إن الأطفال أبدا لا يطلقون رصاصات إلا على الغرباء، والسيدة ويليامز ليست أحدهم بكل تأكيد، فقط تقف هناك مبتسمة ساكنة لا تتغير ملامحها، لم تختفِ تلك الابتسامة من وجهها أبدا وكأنها لقطة من صورة فوتوغرافية، بدت له مخيفة للغاية على هذا النحو وتمنى في أعماقه أن يقتلها بسبب تلك الابتسامة، وبصوت مهزوز متقطع وخائف عانى كثيرا

حتى يخرج منه «ما الذي...أتى بكِ.. إلى هنا يا سيدة ويليامز؟! ماذا.. تفعلين هنا؟!»، لكنها لم تجبه بل كانت تنظر له تلك النظرة الرهيبة، نظرة نافذة، ظلا هكذا لبرهة قصيرة حتى قالت، حيث تحولت فجأة بشكل غريب من وضعها المتجمد إلى الحركة: «عزيزي ديفيد أظن أنك تحتاج لكوب من الليمون، اتبعني»، نظر لها طويلا متعجبا وخائفا وهي تدير ظهرها له في هدوء وكأنها ما زالت لا ترى المسدس الذي كان مصوبا تجاهها، بعد أن سمع صوت الباب الخارجي والخلفي للمنزل يفتح، أسدل المسدس بتوجس وتعجب وأعاده إلى مكانه بعد دقيقتين تقريبا نهشه التفكير خلالهما، تأكد من أن المسدس موضوع بعناية، تحسسه ليتأكد أكثر وكأنه عضو من أعضاء جسده، لم يكن يدري بالتحديد ماذا يفعل؟! كان متعجبا جدا من تصرف السيدة ويليامز، شعر بالتوجس والرعب، أخذ نفسا عميقا، لا عليك يا ديفيد، إنها مجرد سيدة مسنة، لا تستطيع أن تؤذيك بأي حال من الأحوال، ربما سمعت الضجة في المنزل فجاءت لتقصي الأمر.

بعد أن انتهت أفكاره الخائفة والمتوترة قرر أن يذهب إليها، أخذ نفسا عميقا، بدا له صعبا لا يمر من خلال رئتيه، دخل من باب منزلها الأمامي في هدوء وحذر، حاول رسم ابتسامة ولكن بات ذلك الأمر مستحيلا، في الحقيقة كان يأمل أن يفعل ذلك، فإن الابتسامات في

حالته تلك ربما تزيح بعض العقبات ولكن كانت ابتسامة السيدة ويليامز سباقة وصادقة للغاية، كان هناك كوب من الليمون على المنضدة في غرفة المعيشة بينما كانت «فيرا لينن – Vera Lynn» تتابعهما بأغنيتها: سنلتقي مرة أخرى we will meet again ، جلس متوجسا وهو ينظر لها نظرات حذرة، كانت عيونه متسائلة، لم يكن يدري تحديدا لماذا هو هنا؟! ولم يعلم أيضا السر الحقيقي وراء كونه مطيعا إلى هذه الدرجة؟! هل حوله بيتر إلى هذه الدرجة من الشقاء؟! لا يملك من أمره شيئا! يلبي نداءات أي إنسان كان! بدا أن الأمر كذلك في بداية الأمر ولكن سرعان ما فكر في نفسه مرة أخرى بشكل إيجابي، لقد رأت المسدس، ربما تعتقد بأنني بالفعل القاتل، لقد بحثت الشرطة في كل مكان في المنزل، ولكنها بالتأكيد لم تجد المسدس، المسدس الذي قتل هيلدا؛ لأنه كان يقبع في خزانة بيتر سميث اللعين، بل إنهم لم يجدوا الخزنة، الآن هذه السيدة تظن بأنني الفاعل، تستطيع أن تبلغ الشرطة لتخبرهم عن الجاني وعن أداة الجريمة الضائعة، تستطيع أن تتحول إلى بيتر سميث وترسلني إلى الجحيم بمكالمة تليفونية وبعد ذلك ستعيش كأن لم يحدث شيء، بل ستتحول إلى بطلة أنقذت العالم من شر ديفيد جونز اللعين.

«كنت أعلم بأنك ستأتي يا ديفيد، بل كنت واثقة من ذلك.. اشرب الليمون، لا تخف، إن كنت أريد إبلاغ الشرطة لأبلغتها منذ اللحظة الأولى التي اقتحمت فيها المنزل، أنت تعلم أنني أعيش بلا هدف، أنتظر نهايتي بفارغ الصبر، لذلك أنا أتابع الأمور جيدا، أتابعها عن كثب بعقل امرأة مسنة رأت من أمور الحياة الكثير وتستطيع أن ترى كل شيء بشكل جيد»، رشف ديفيد أول رشفة من الليمون كقطة هائمة جائعة وفجأة وجدت صحنا كبيرا من اللبن، لم يدر لمَ نهل من الليمون بهذه الطريقة ولكن اتضح له أنه في حالة ماسة لأي شيء يزيل الجفاف الذي حل بحلقه من هول الرعب في الدقائق القليلة الماضية التي بدت له كأنها نهاية العالم، كان يتابع كلماتها بتوجس وقلق، «لقد كنت عصبيا جدا في الأيام الأخيرة من حياة هيلدا المسكينة، فظا إن سألتني عن رأيي، ولا أعلم ماذا حدث بالتحديد ليلة مقتلها، أقصد طبعا لا أعلم من قتلها! ولا أستطيع أن أوجه لك هذه التهمة البشعة ولكن يبدو أن الشرطة وجهتها لك منذ فترة كبيرة، ولكن أستطيع أن أقول لك إن هناك أمورا كثيرة على المرء تتبعها لكي يجد الحقيقة»، صمتت مبتسمة ابتسامة ودودة ماكرة بعض الشيء وهي تحثه على شرب المزيد من الليمون، كان صامتا ومنتبها لها، لم تكن آلام رأسه في هذه الأثناء تشكل عائقا أمام التركيز معها، «هل تعلم قصة الجنية والحالم؟!»، تعجب كثيرا من سؤالها وبعد ثوانٍ من الدهشة هز رأسه بعدم المعرفة، فابتسمت قائلة:

«أستطيع أن أقصها لك إن شئت»، لم يبد عليه أي نوع من الرفض أو القبول، فلقد كان مستسلما على كل حال، ولذلك استرسلت في حديثها: «كان هناك حالم، يحلم دائما بأنه يحب جنية وتحبه، رغم أنه كان حالما وأنت تعلم أن الحالمين لا ييأسون، إلا أنه كان يعلم جيدا أن هذا الأمر مستحيل، في الحقيقة لم يدرك أن ذلك الأمر مستحيل إلا عندما تخلى عن حلمه، فإن الحالم الذي يتخلى عن حلمه يفقد كل شيء حتى هويته.. دعك من الألغاز الآن ولأكمل لك القصة، ظل يبحث طويلا في كل مكان تتجمع فيه الجنيات، في البحار والمحيطات، في الظلام، في العالم السفلي، بين ربوع الغابات المرعبة، في الأماكن التي لم نسمع عنها حتى في القصص الخرافية والأسطورية، وفي ليلة جميلة كان القمر يسدل أنواره على الأرض، كان يجلس حزينا بعد أن انقطع له كل أمل وأغلق في وجهه كل باب، ظهرت له امرأة آية في الجمال ويقال إنها كانت أجمل نساء الأرض، وقالت له ببساطة إنها الجنية التي أتت من الظلمة تلبية لطلبه بعد أن رأت فيه كل الصدق ليقع في حب جنية، المشكلة أن صديقنا هذا لم يصدق». هذا العالم سخيف للغاية، ألا تتفق معي في ذلك يا عزيزي؟! فئتان يمكن أن نقسِّم العالم من خلالهما، فئة إن حصلوا على أحلامهم اعتبروها شيئا عاديا فضاعت قيمتها، وفئة إن وجدت أحلامها لم تصدق وأضاعتها أيضا، أحيانا أتساءل ماذا يريد الإنسان بالضبط من حياته؟! في الحقيقة وبعد هذا

العمر الطويل أستطيع أن أقول بثقة بأنه لا يعرف، هو يريد أن يعيش ليعرف، بينما إن جاءته المعرفة أصيب هو بالجهل، تناقض يدفعك للجنون.. على كل حال، لم يصدق الحالم بأنها جنية ونفر منها بل وأهانها أيضا؛ لأنه يريد أن يصدق فقط ما يريد، ما يريده هو، أن يظل كل شيء مجرد حلم، انتهت الحكاية ولا أتذكر في الحقيقة ماذا حدث للحالم ولكن أستطيع أن أجزم بأنه ظل حالما، ولكن حالم بأن تعود الحقيقة، أن تعود الجنية، أترى؟!.. أحيانا تكون الحقيقة أعمق وأجمل من أي حلم.

نظر لها ديفيد جونز نظرات غير فاهمة، لم يكن يفهم بالتحديد ما الذي ترنو إليه، ولكنها بالتأكيد تقصد شيئا ما، نهض من مجلسه بهدوء وأومأ برأسه شاكرا، واتجه نحو الباب ثم نظر لها نظرة أخيرة، لم تكن عيناه تحمل ثمة شيئًا، ليس هناك معنى دقيق لما يجول فيهما من تعبير، ولكن يمكن الجزم بأنه ببساطة كان ضائعا.

ضائعا للغاية...

50

كم سيمر من الوقت حتى تكشف الحقيقة عن وجهها؟ كم من الوقت سيمر بين هذه الأحداث المبهمة؟! يومان؟! حلم بعيد يحلم به الأغبياء أمثالي، فالأغبياء وحدهم من يتصورون أن الأحلام البعيدة قريبة حتى مع الحظ السعيد، ولكن لا أدري إن كانت الحقيقة بالفعل تحمل ذلك الوجه الذي يدفعني للاطمئنان! ماذا إن كانت الحقيقة تحمل وجها بشعا كوجه بيتر اللعين؟! كرائحة أبي النتنة التي لا تفارقني؟! كابتسامة أمي الأخيرة؟! شديدة الحنان والقسوة معا، ماذا إن كانت الحقيقة لاذعة كتلك اللحظات التي عدت خلالها من العتمة لأصطدم بعالم بيتر الغامض والكارثي؟ ماذا إن كان كل ذلك عبثيا وأن الحقيقة واضحة أمامي ولكن وحدي لا أستطيع رؤيتها؟!

كانت أفكار ديفيد منتظمة رغم فوضويتها في هذه الأثناء، واقعية وموجعة، لكنه في جزء منه كان يعلم أنه الوقت المناسب لإلقاء مثل هذه الأسئلة، فالفارق بينه وبين النهاية لم يعد طويلا، لم يعد بعيدا، أصبح وشيكا أكثر مما يعتقد، لا يعلم في الحقيقة ما الجدوى

من كل ذلك؟! ما النهاية التي تنتظره؟! أو بالأحرى، ما النهاية التي ينتظرها؟! لكل شيء نهاية قابعة في جزء ما من الظلام وما علينا إلا رؤية ذلك الضوء الضعيف لتبدو لنا الملامح المظلمة أكثر وضوحا، كان يدرك تلك الحقيقة ولكنه في الحقيقة أيضا لم يكن يملك الوقود الكافي لإشعال النور، لم يكن يملك القوة الكافية ليفرك عينيه بقوة لتبدو له الملامح المبهمة جلية ساطعة، لم يكن يملك كل ذلك، وفي جزء منه أيضا كان يخشى أن يملك تلك القوة، الرؤية الغائبة، الوقود الكافي، كان يخشى ذلك تماما، ولكن في لحظات سيره خلال عبوره الشارع وخلال شروده وسط أفكاره أيقن بإيمان شديد أنه مهما كان الأمر مرعبا وقاسيا فإنه بالتأكيد سيكون مريحا، لقد اتضح له الآن المعنى الحقيقي للجملة التي تقول: «إن السقوط خير ألف مرة من التأرجح في المنتصف»، سيكون السقوط مفزعا بكل تأكيد ولكنه لن يكون مؤلما بالقدر الذي تؤلم به قاعدة الغموض العنيدة والمنفرة، سيستريح رغم الآلام.

رغم كل شيء..

تنهد تنهيدة فارغة من الحياة، مكتظة باليأس، شعر بألم يتخلل رأسه، لكنه لم يبال كثيرا، لم يكن منتبها لما حوله على الإطلاق، خطواته هائمة، عقله شارد في العديد من الأفكار، وقف أمامه مباشرة، استوقفه بود وهو يقول بلهجة حازمة لا تخلو من الود:

«سيدي، أعتقد أنني رأيتك من قبل، هل لي أن تطلعني على أوراقك؟! إنه أمر عادي ولا داعي للقلق»، بدا الصوت في هذه اللحظات لديفيد جونز آتيا من منطقة بعيدة، كأن شخصًا يستغيث به من داخل كهف في جبال الألب، خرج تصاعديا من غفوته الفكرية، محاولا بقدر الإمكان أن يعود إلى عالم الواقع، كانت الأصوات من حوله منعدمة، منعدمة في أذنيه هو فقط، ولكنها بدأت تعود تصاعدية صاخبة، نظر إلى المتحدث طويلا وكأنه ينظر في الفراغ، بعد ثوانٍ حضر العالم مرة أخرى أمام عينيه، الأصوات، السيارات، الجلبة الكونية الاعتيادية، إنه ديفيد جونز، باتريك بلامر المزيف، مطلوب من العدالة، مهدد بالإعدام، لا يملك من أمره شيئا، مدمن، أسير لشخص غريب اسمه بيتر سميث، نعم أنا ديفيد جونز، اكتشف ذلك الآن فقط في لحظة مرت غريبة عليه، رفع رأسه بعد أن ظهرت له معالم المتحدث، إنه شرطي، الكوارث تأتي بغتة، ألم يطلعك أحد على هذا؟! فكر في نفسه، بلع ريقه بصعوبة بالغة، بلغ التوتر ذروته، حاول أن يتمالك نفسه، فكر قليلا بصعوبة بالغة، آلام رأسه واضحة ومرهقة، تطن سعيدة كنحلة في موسم الربيع، مط شفتيه وقد وضح التوتر بشدة على ملامحه، مط شفتيه آملا أن يرسم ابتسامة، لكنها في الحقيقة لم تكن ابتسامة، بدت وكأنه يتألم، تذكر تلك البطاقة التي أعطاها له بيتر، أدخل يده في جيب سرواله الخلفي، اصطدمت يده بالمسدس فازداد توتره، إنها هي، البطاقة

الشخصية لباتريك بلامر، أخرجها ثم نظر لها للحظات وكأنه يتعرف على شخصه المزيف، يتأكد من مدى مصداقيته الكاذبة، كان متشككا وخائفا، ابتسم ابتسامة باهتة متوترة للغاية في وجه الشرطي ثم أعطاها له، أخذها الشرطي من يده دون أن يحول عينيه عنه، كان وسيما وطويلا، صاحب بنيان قوي، في الحقيقة لطمة واحدة منه على وجه ديفيد ستفقده الوعي، إن احتمالات الهرب في هذه الحالة معدومة للغاية، ليس بسبب الهيئة البدنية التي يملكها الشرطي الماثل أمامه فقط، إنما هو الرعب الذي يكفي بأن يوقف جميع نبضات قلب ديفيد في هذه اللحظات، لو قال له: اتبعني، دون مقاومة سيفعل، وإن قال له بهدوء: أنت محكوم عليك بالإعدام، سيعدم نفسه في الحال بكامل إرادته، ظل ديفيد منتظرا الشرطي وهو يتحقق من هويته، لعن ذلك الغباء، لعن الخوف المستبد به أيضا، لِمَ سمح للشرطي بهذه البساطة بأن يشك فيه؟! لماذا لم يعارضه ولو للحظة؟! شعر بمرارة تدب في جميع أنحاء جسده، شعر بأنه محصور بين فكي كماشة عملاقة، شرع العرق يظهر على جبهته غير آبه بالجو البارد، فجأة رفع الشرطي رأسه، نظر له نظرة حادة، وحينما شرع يتحدث كان يقف في مواجهتهما بيتر سميث، مبتسما تلك الابتسامة الصادقة اللعوب التي يعلمها ديفيد جيدا، الابتسامة التي تتبعها تقلبات موسمية غير متوقعة، غاب ديفيد عن الوعي، شرد بعيدا فجأة داخل أفكاره، اللعين علم الحقيقة، علم بأنني كنت هناك

أبحث وراءه، نفذ وعيده، الكرسي الكهربائي ولا حقيقة أخرى، النهاية التي وعدني بها، الحياة الجديدة ولكن في العالم الآخر، بعد نقاش لم يسمعه ديفيد دار بين بيتر والشرطي، اتجها نحو سيارة الشرطة وبقي ديفيد جونز وحيدا على بعد عشرة أمتار منهما، ينظر لهما تلك النظرات المترقبة المرتعدة، هل يجري؟! وما الفائدة؟! إن كان الجري حلا لجرى مئات الأميال منذ أن وقف على قدميه حين عودته من الظلمة، ما الذي يدور؟! وماذا يقول له بيتر؟! إنهما يضحكان سويا! الشرطي يشير إليه، بينما بيتر يومئ برأسه مبتسما ابتسامة عريضة، يسخران منه بكل تأكيد، هذه الحقيقة، العالم كله يسخر من ديفيد جونز، يكفي هذا، أرجوكما لا تتركاني هنا، خذاني سريعا إلى العدالة..

خذاني سريعا إلى الكرسي الكهربائي..

أومأ الشرطي إلى ديفيد جونز بود من مكانه، مبتسما، بعد أن أعطى البطاقة لبيتر وركب سيارته وانطلق في طريقه، كان بيتر يمسكها في يده مبتسما وهو متجه في طريقه إليه بخطوات بدت عصبية، وحينما اقترب منه على بعد نصف خطوة تحوَّل إلى وجه متجهم وحاد ثم تأبط ذراعه بشيء من الحدة وهو يقول بصوت هامس واضح: «يبدو أنك تتوق للكرسي أسرع مما تخيلت، تعال معي»، ركبا داخل سيارة بيتر، لم ينطق بيتر بكلمة واحدة، في الحقيقة، كان شاردا، يفكر في هدوء، يدخن سيجارة، أنفاس

ديفيد في هذه اللحظات متقطعة، لم يعلم لمَ تملكه هذا الإحساس المرعب في الدقائق القليلة الماضية؟! هل خوفا من العدالة؟! من الحكم الذي ينتظره؟! من بيتر سميث نفسه؟! هل هي الغريزة الإنسانية المتعلقة بالبقاء؟! لم يكن يدري على الإطلاق ماذا هناك! وكأنه فجأة توقف عن التفكير، بل توقف عن كل شيء، والغريب أنه لم يفكر كثيرا أو يسأل فيما حدث مع الشرطي بل لم يكن آبها، فإن الفزع المستمر لم يولد لديه في النهاية سوى التبلد، لم يكن تبلدا بالمعنى الحرفي ولكنه مخزون هائل من الغضب في منطقة منه، كان يخشى انفجاره، فإن انفجاره بالتأكيد سيحرق العالم، هكذا بدا له الأمر، وكان على دراية به حتى إنه فكر في نفسه للحظات وهو في صحبة بيتر نحو الغرفة، آه لو تعطيني رقبتك يا بيتر، لأعدت أسطورة مصاصي الدماء إلى العالم بحقيقة لا تقبل الشك، لقطعتك إربا وبعت كل قطعة منك بعشرة سنتات، بل لو هبتها مجانا للمحرومين، كان يخوض تجربة قاسية مع تفكيره، الانفعال الذي ساد كل جزء فيه على وشك الانفجار ولكن كان هناك جزء قوي وصلب يواجه كل ذلك، هذا الجزء ببساطة هو الحقيقة، الحقيقة الملعونة التي أذلته وجعلت منه مدمنا ومطالبا على أيدي العدالة، جعلت منه ذلك البائس الذي كره نفسه.

جلس على الكرسي بينما ظل بيتر واقفا ينظر إليه بعد أن أشعل سيجارة أخرى، كان الصمت ثقيلا بينما كان ديفيد مطأطئ الرأس

مفكرا في كل شيء، في كل ما دار خلال هذه الأيام القليلة، لم يكن يلعنها جميعا، بل كان يلعن بيتر وحده رغم أنه في الحقيقة وخلال فترة لاحقة أدرك أن بيتر سميث لم يكن بهذا السوء لأنه أطلعه على أشياء لم يكن ليعلمها دونه.

«اليوم هو اليوم ما قبل الأخير، أنت تدرك ذلك جيدا، عليك أن تحضر غدا في المساء في تمام الساعة العاشرة إلى فندق جولد داست ويست «Gold Dust West Carson City»، كما تعلم غدا ليلة رأس السنة، وأنت مدعو هناك، ستجد غرفة محجوزة لك، هذه المرة يا صديقي الغرفة محجوزة باسم ديفيد جونز، وعليك أن تأتي كديفيد جونز، وأنت تعلم ما أعني، لا تتعجب كثيرا، ولكن عليك أن تكون حذرا حين خروجك من هنا، فإن وجهك من أكثر الوجوه شهرة الآن في مدينة كارسون إن لم يكن في ولاية نيفادا كلها، وأنت رأيت ما حدث بنفسك، غدا ليلا سينتهي كل شيء، سينتهي تماما، وكن على ثقة صديقي العزيز بأن الأمر لن يكون مفزعا كما تتصور، أو كما ترسم لك خيالاتك الواسعة، فهناك مفاجأة في انتظارك، مفاجأة كبيرة، سأكون في انتظارك».

تركه بيتر مع أفكاره وهواجسه، مع وحدته القاسية وإدمانه اللعين، ولكن ذلك الأخير لم يكن مشكلة بالنسبة له فهو ما زال يملك العديد من الأقراص، ظل يفكر بكل كلمة قالها واكتشف أن الفندق الذي ذكره له هو نفس الفندق الذي ذكرته روكسانا قبل ذلك، إنه الفندق

الذي يقضيان فيه ليلة رأس السنة، ما الذي تخطط له يا بيتر؟! هل علمت كل شيء وتنوي القضاء علينا سويًّا؟! الخائنة والعاشق يقتلان على يد الزوج المغدور، هكذا سيتم الأمر، أيها المجنون، أيها الحثالة، أيها المريض النكرة، إن باتريك بلامر لا يستحق أن يكون هناك في ذلك المشفى، بل هو أنت، وأنت وحدك. شرعت موجة من الغضب تثور في نفسه، تملكت منه بعد ثوانٍ قليلة بشكل مفرط فشرع يضرب الدولاب بقبضته ضربات متتالية قوية، كان شبه غائب عن الوعي، لم يأبه إلى ذلك الجرح النازف في قبضة يده اليمنى، استمر هكذا يسدد ضربات بعنف وسرعة كبيرين حتى انتهى به الأمر وهو يجلس على الأرض، يبكي بقوة، بصوت يستثير العاطفة، متمتما والدموع تخنق صوته ويده تنزف: «لا يمكن أن يكون القدر قاسيا إلى هذه الدرجة.. لا يمكن أن يكون القدر قاسيا إلى هذه الدرجة».

فتح عينيه فجأة بشكل مفاجئ ومخيف وكأنه تذكر شيئا، مسح دموعه بكف يديه وأتى بملاءة السرير ثم بقوة قطعها وربط يده المصابة ثم دس يده وأخرج المسدس، ظهرت في عينيه نظرة انتقامية قاسية، نظرة تخلو من الحياة، لم يكن مكتوبا في عينيه في هذه اللحظات سوى جملة واحدة جلية وساطعة كالشمس.

الموت لبيتر سميث...

51

سيفترض أن القضية لم تغلق بعد، ولكن هذه كل الحقيقة، فإن القضية ما زالت تفتح ذراعيها تنظر تلك النظرة المتجهمة، تلعب بالجميع، ولكنها في الحقيقة وفي داخله لم تكن تلعب بشخص سواه، لم تكن تلعب ببائس آخر، فأي بائس آخر في العالم يستطيع أن يضاهي بؤس ديفيد جونز؟! ولكن في جزء منه كان يعلم تماما أن الحقيقة ستأتي بمحض إرادتها دون البحث وراءها، حتى عندما لا يكون ذلك مطلوبا، دون التوغل في طرق أخرى، دون أن ينبش المجهول بطريقة خاطئة، ستأتي جلية للجميع بجميع ملحوظاتها وكلماتها وصيغها البلاغية المفاجئة التي ستبهره وتبهر بؤسه بكل تأكيد، سيذهب أبعد مما تخيل، ويسأل نفسه في وقت لاحق، كان لا بد أن يحدث لي ما حدث ولماذا لم يحدث بطريقة أكثر عمقا وأشد ألما؟! وقتها سيكون ألمه مجرد ذكرى مبهمة غير واضحة المعالم، مفتتة التفاصيل، ضائعة في أجزاء ضحلة من الذاكرة، وستبقى الحقيقة وحدها ساطعة كالشمس عند الخط الاستوائي.

ها ها! ضحك ديفيد جونز وهو يستحم، ضحكات غير منتظمة أظهرت له وجها آخر غير ذلك الذي يعرفه في الفترة الأخيرة، وجها شريرا وراضيا في نفس الوقت وهو يفكر بكل تلك الأفكار، إن ما يحدث له يساير تقلبات الطبيعة وإن التأمل فيها هو الجزء المطلوب، إنها أكثر المرايا التي يجب التحديق بها، افترض أنه يراهن على الموت، وأن المراهنة على الموت تنتهي بالموت، وأن المراهنة على الحياة تنتهي أيضا بالموت، ماذا سأخسر إن مت؟! حياتي؟! ها ها! ماذا يوجد في الحياة لا ينطبق عليه سمة الموت؟! ماذا في الحياة يستحق أن نراهن عليه متبعين نظرية المخاطرة التي أيضا بسببها يموت الملايين حول العالم؟! لم كل ذلك؟! إن كانت الخسارة تعني الربح، إن كان الربح ببهائه وجماله وفرحته المؤقتة يعني في النهاية أيضا الخسارة!

معادلة سهلة ومؤلمة.. والحياة كذلك.

كان الصوت الخفي يأتيه متصاعدا ومنتظما في هذه اللحظات، مصاحبا لصوت تفكيره العالي والواضح، لحظات جنونية لم يتوقف فيها عن تفكيره بصوت مسموع وهو يواجه ذلك الصوت الذي يدفعه بقوة للهرب، إلى الخروج من تلك الأبواب إلى غير رجعة، أن يترك عالم بيتر بعيدا خلفه، أن يترك الحقيقة مبهمة ويعيش ما تبقى من حياته، لكن ديفيد أخرس ذلك الصوت، أخرسه بكل

عزيمة، كلما علا الصوت الخفي صاح قائلا: «الحقيقة يجب أن تكشف عن وجهها أولا»، واستمر على هذه الحال لفترة غير قصيرة حتى إن صوته اخترق جدران الحمام ومن ثم الغرفة وأصبح جليا في الخارج، ظل يهمس الصوت برتابة ضعيفا أمام صياح ديفيد المتكرر والقاطع لكل شك، القاطع لتلك الشكوك داخله، انسحب الصوت رويدا، مستسلما لرغبته في هذه الأثناء، مستسلما للقوة الساطعة في عزيمته، على إبقائه على نفسه في مواجهة المعادلة السهلة والمؤلمة..

معادلة الحياة.

ظل صوته يخفت حينما اتضح له بعد وهلة أن الصوت الذي يأتي من اللاشيء قد انسحب تماما، لم يكن يشعر بذلك في البداية وكأنه لاعب ملاكمة يسدد ضرباته دون وعي ناسيا أن خصمه قد سقط مهزوما بالفعل، وأن ما يفعله ليس أكثر من نوبة هستيرية حينما تضرب كل جزء في الظلام وتلوح بيديك آملا أن يبتعد عنك الأشباح، جلس على أرض الحمام منهكا شاعرا بكل ألوان الضعف والإرهاق، أراد أن يبكي، أراد ذلك بقوة، ولكنه لم يفعل، لم يستطع، كان الأمر شبيها بجر جبل من مكانه بواسطة يد كهل ضعيف وبرغبة نملة متهورة.

خرج عاريا من الحمام وهو يجول بعينيه في الغرفة، وكأنه يكتشفها لأول مرة، حدق طويلا في اللوحة أمامه، ثم نظر إلى السرير الذي لازمه دون تذمر، وابتسم ابتسامة باهتة للغاية، ثم نظر إلى المنضدة فوجد القلم والأوراق وكأنهما يحدقان به، كان مبتلا بشكل خفيف ولكنه لم يأبه رغم برودة الجو، في الحقيقة لم يكن يشعر بأي شيء، اقترب من المنضدة وأمسك بالقلم وظل يعبث به مفكرا دون أن يجلس وراح في منطقة بعيدة، لم يعلمها حينما عاد بعد وهلة؛ لأنه تلفت حوله بشكل غريب وكأنه استفاق في جزيرة بعيدة، لكنه بعد ذلك هدأ وجلس على كرسيه الوحيد وشرع يكتب.

اليوم ما قبل الأخير

الورقة السادسة

ديفيد جونز

إنه اليوم الأخير بكل تأكيد ولن يكون هناك ورقة لبيتر سميث، فما الفائدة؟! إذا كان كل شيء سيتضح في القريب، في الغد. لقد انتهى كل شيء دون أن أعرف، ولكنني لا أعلم ماذا عليَّ أن أعرف؟! السؤال، هل قتلت هيلدا؟! بعد كل ما مر بي وما رأيته لا أستطيع التكهن بأي شيء، فلقد أصبحت على الحافة الأخرى

من العالم، وأعتقد أن السقوط سيكون مميتا ولكنه لن يكون مميتا أكثر مما أنا ملاقيه، كل شيء يدعوني للحيرة، المظروف الذي أعطته لي السيدة ويليامز، كلمات ابن عمي توني جونز، إحساسي الغريب بكلمات روكسانا، الومضات التي تزورني من وقت لآخر، المسدس! ما العلاقة الحقيقية بين كون علبة المسدس في منزلي بينما المسدس في خزانة بيتر سميث؟! الخزانة التي كنت يوما أمتلكها! روبرت صديقي، إنه مشترك بشكل أو بآخر فيما يحدث لي! ولكنني لا أستطيع أن أصدق ذلك فإنه في كل مرة يساعدني أنا، يساعدني بشكل غير مباشر، غير واضح، إنني كاذب، إنه بالفعل يساعدني، يعطيني الأمل، وأحيانا أخرى يمنحني الخلاص بكلماته القليلة، أدرك أنها غير مفهومة في كثير من الأحيان ولكنني أكتشف عمقها فيما بعد، لكم أفتقدك يا روبرت، لكم أفتقدك يا هيلدا، اللعنة علي، لماذا لم أحاول الذهاب لزيارته؟! فإنه موجود بالفعل ولكنه لن يعطيني الكثير، فما الفائدة من زيارته؟! فأنا لن أتحمل صمته لمرة أخرى، أو حتى لو لمرة أخيرة، ما الذي كانت تقصده السيدة ويليامز بالتحديد عن قصة الحالم؟! وما الذي كان يقصده بالتحديد باتريك بلامر من كوني مجرد لعبة؟! هل سيجيب بيتر عن كل تلك الأسئلة؟! أتمنى لو أن يجيبها جميعا، أتمنى ذلك بشدة حتى وإن كانت النهاية هي الموت، ولكن ليعلم بيتر سميث جيدا،

أنني لن أتوانى عن قتله، ستنفذ تلك الرصاصات إلى قلبه، ليتوقف عن الحياة تماما، تماما.

ديفيد جونز

2011 /12 /30

أنهى ديفيد كلماته وهو ينظر إلى المسدس الذي كان قابعا فوق السرير يحدق إليه بشكل غامض، طأطأ رأسه قليلا بعد الكثير من التفكير وشعر برجفة تسري في جسده، استسلم لها وهو يشعر بسعادة غريبة، لم يعلم بالتحديد من أين أتت! لكنه كان يشعر بنشوة خالصة، لم يكن هناك أي ألم يذكر على الإطلاق، لكنه أدرك بعد قليل أن تلك السعادة لم تكن ناتجة إلا عن ثقته بأن معاناته ستنتهي في القريب، ستنتهي في الغد، هذا ما يوده ويرجوه، ورغم أنه كان يعلم بالشر الكامن في صدر بيتر إلا أنه كان يعلم جيدا أن هذا الرجل لا يكذب، يشعر بذلك بل وأكيد منه، لم يكن مكترثا كثيرا بالأمور التي ستحدث بعد ذلك بعد معرفة الحقيقة التي قذفوه بداخلها خلال غيبوبته، سيسأل بيتر عن كل شيء تحت تهديد السلاح ولا أحد يكذب في حضرة الموت، سيسأله عن تلك الأحداث التي حدثت له خلال الأشهر الضائعة من حياته، فهو بالتأكيد يعلمها جيدا فقد كان ذلك جليا في كلماته، وحينما ينتهي

من إجاباته سيفتح عليه النار، حتى وإن كانت الحقيقة بأنه بريء من دم هيلدا، سيطلق النار، فلقد مات الشخص الوحيد الذي يهتم لأجله، فلم الحياة بعد ذلك؟! ولكنه لن يموت دون أن يثأر لنفسه، دون أن يدفن الإذلال والإدمان مع جثة بيتر اللعين، تذكر روكسانا وابتسامتها البائسة الحزينة والرقيقة أيضا ثم ابتسم في نفسه ابتسامة صادقة ورائقة، سأنقذك يا روكسانا، سأمنحك الخلاص، لا بد أن يتبقى شخص لينعم بالحياة وهذا الشخص بالتأكيد لن يكون أنا، يستحيل أن توجد رواية أو فيلم سينمائي لا ينتهي بتلك الومضة التي تدفع القراء والمشاهدين للحياة، أن تمنحهم بصيصا من الأمل، فأنا لست القدر، ولكنني لن أكون قاسيا مثله، أنا لست القدر، ولكنني تلك الأداة التي يستخدمها ليمنح ولو بائسا واحدا جزءا من السعادة، ابتسم وهو ينهض من مكانه ثم بعد قليل غط في نوم عميق بجانب المسدس، في الحقيقة كانت تلك الليلة الأولى التي ينام فيها ديفيد جونز دون ألم.. دون اكتراث.. دون شعور بالذل..

أن تعيش مع المجهول شيء سيئ للغاية..

وأن تموت من أجل الحقيقة فهذه هي الحياة بنفسها..

ديفيد جونز

52

حدق إلى نفسه في المرآة بتلك النظرة العميقة المترقبة، عاريا، عاريا من كل شيء حتى من الخوف، كان المسدس متمسكا بيده وكأنه أحد أعضائه، لم يفهم ديفيد سر تلك القبضة التي تمسكت بعنوان النار، عنوان الدم، واضع كلمة النهاية لأية حياة، المسدس، ولكنه بعد لحظات أدرك أن السر وراء كل ذلك هو تمسكه واقتناعه بأن إسالة الدم أحيانا تكون حلًّا لبعض الأمور في هذه الحياة الصاخبة، المكتظة بالسخافات والظلم، حدق إلى نفسه مرة أخرى بعد وهلة ضاع فيها داخل أفكاره المتلاطمة، طأطأ رأسه ورفع المسدس يتحسسه بشفتيه، كان مذاقه غريبا لأنه بعد ذلك أنزله بجانبه، لقد شعر بمرارة، شعر بأن هناك شيئا لا يزال غائبا عنه ولكنه في الحقيقة أمامه، لا يستطيع رؤيته وهذا كل ما في الأمر.

طرقات على الباب أيقظته من كل ذلك فجأة، طرقات مهذبة، إنه لأمر غريب أن تكون هناك طرقات مهذبة على بابه! فهو لا يتوقع مثل هذا الاحترام! يتوقع مثلا قوات الشرطة وهي تقتحم المكان لترى مسدسا في يده فتطلق النار عليه بلا هوادة،

بلا رحمة ودون انتظار، ذلك المجرم الفار من أيدي العدالة، القاتل والسارق، الطبيب المجنون، ولا تتوقع من مجنون أن يسلم نفسه إلا لأفكاره الجنونية أو للموت، لا يتوقع أزهارا بمناسبة ليلة رأس السنة أو مباركة مثلا من سانتا كلوز، فهو لم يعد طفلا، أخذ نفسا طويلا، شعر ببعض الألم في رأسه، لم يكترث، اقترب من الباب عاريا بحذر، فجأة تنبه لذلك، عاد إلى الوراء وهو يتحرك بسرعة على أطراف أصابعه، طرق الباب مرة أخرى بصوت أعلى قليلا، نظر نحو الباب وأتى بمعطفه وارتداه، أمسك بالمسدس، أغمض عينيه لثوانٍ، وقف خلف الباب يسترق السمع، لا صوت، وفجأة طرق الباب ثانية، فانتفض في مكانه، دقات قلبه تعلو، من يكون؟! سؤال دار في خلده ولكن بلا إجابة، قرر أن يفتح الباب، استعد، لم يكن يعلم لأي شيء يستعد! ولكن عليه ذلك، أدار مقبض الباب قليلا بحذر وتوتر، فتح الباب قليلا حتى كشف عن وجه شاب لا يزيد على 20 عاما، يقف مبتسما يحمل في يده كيسا كبيرا أسود، يبدو أنه يحمل بدلة، نظر له طويلا ولكن ابتسامة الشاب لم تختفِ «أنت السيد باتريك بلامر، أليس كذلك؟! لقد أرسل لك السيد بيتر سميث هذه البدلة لترتديها الليلة، بالمناسبة إنه ينتظرك في تمام الساعة الحادية عشرة في المكان الذي أطلعك عليه، لقد أخبرني بأنه أطلعك على هذا الأمر»، نظر له ديفيد نظرات متوجسة

محاولا أن يستوعب ما يقوله الشاب الماثل أمامه، رمش بعينيه، حيث لم يكن ظاهرا من خلف الباب الذي أحكم إغلاقه بجسده سوى وجهه، فتح الباب قليلا وأخذ البدلة وهو يداري المسدس في جيب معطفه، أومأ برأسه إلى الشاب إيماءة بطيئة قلقة ولم يقل شيئا، كان شاردا أو ضائعا في المفاجأة التي أمامه، وانصرف الشاب، ظل ديفيد يراقبه بعينين مفكرتين وحائرتين حتى اختفى عن ناظريه، نظر إلى البدلة التي ترتدي كيسا أسود مصنوعًا من المشمع الأسود المطفي، ثم دخل إلى غرفته مرة ثانية ببطء مفكرًا ومتعجبا أيضا، فتح الكيس بهدوء فوجدها بدلة سوداء مكونة من ثلاث قطع ومعها ربطة عنق سوداء، بينما القميص يتمتع بلون رمادي متوسط لامع، ظل ينظر لها طويلا مقلبا أفكاره، الحادية عشرة، قبل إعلان السنة الجديدة بساعة، يا ترى ماذا تحضر لي مع السنة الجديدة يا بيتر؟! وما كل هذا الكرم؟! نظر ديفيد ثانية فجأة إلى البدلة واقترب منها وهو يتفرسها بعينيه، شعر بومضة قوية في رأسه، رأى نفسه يرتديها وهو يرقص مع هيلدا وسط العديد من الحضور في أحد الفنادق، إنها هي بكل تفاصيلها، نفس اللون، ونفس ربطة العنق، خلع المعطف، ثم اتجه سريعا وأخذ قرصا جديدا، كان يلهث، ألم رهيب يدب في كل ركن من جسده، ولكن كان الألم في رأسه لا يطاق، جلس على الأرض مستندا على جانب السرير، فأحدث صريرا رتيبا منفرا، بعد

قليل من الوقت قرر أن يكون جاهزا بكل ما أوتي من قوة، أن تكون تلك الليلة هي الليلة التي يعلن فيها لنفسه بأنه يستحق تلك الحياة، أن لا شيء يمكن أن يتحكم به حتى وإن كان ذلك الشيء هو... الموت.

53

زيارته إلى الطبيب كانت جزءا من السبب لما هو عليه الآن حينما كان يعاني كبتا غريبا يصيبه بالصداع، وفي الحقيقة كان الطبيب عضويا وليس نفسيا، جزء من السبب يتعلق بكونه ينظر بعمق شديد إلى انعكاسه في المرآة في هذه اللحظات وكأنه ينظر إلى شخص آخر، جزء من السبب هو تحوله الذي يبدو هادئا ولكنه في الحقيقة لم يكن أكثر من شرود غريب بعدما أعاد أمامه كل تلك الأحداث التي عقبت عودته من الغيبوبة الطويلة المرهقة والسوداء ليقع في أحضان عالم آخر أكثر سوداوية، ذلك السبب الذي جعله يرى كل ذلك الآن وكأنه شريط سينمائي، كان ذلك السبب مجرد سؤال منافس لهواجسه ومخاوفه، بل مشعل لها، لرحلته القادمة التي لن تستمر طويلا، لم يكن السؤال واضحا ربما لعمقه الشديد، أو ربما لهشاشة نظرته هو إلى الحياة حتى هذه اللحظة، ربما آلامه كانت كافية لتعيق ذلك، وآلامه لم تكن إصابة في ظهر عامل من المكسيك قرر أن يحمل كيسا يحوي ألف كيلو جرام من الأرز، بل إن إصابته أشبه بالخروج حافيا من الأرض والوصول سيرا إلى

الكوكب الأحمر، جلس بعد أن ارتدى بدلته وتخلص من كل آثار القناع الذي يرتديه، لقد عاد ديفيد جونز مرة أخرى، لم يعد هناك باتريك بلامر على الإطلاق، ولكن تبقى من ذلك الأخير جملة شهيرة لم ينسها «أنت مجرد لعبة»، السؤال الحقيقي الذي خاف أن يذكره لنفسه في هذه اللحظات، هل أنا ديفيد جونز؟! هل فعلا عدت؟! وهل سأعود بما يكفي لأكتشف وجودي الحقيقي؟! كلها أسئلة تحمل معنى واحدًا، أن ديفيد كان مشوش التفكير إلى أقصى درجة، كان يشك في نفسه كما تشك كل حقيقة في نفسها، حيث تبدأ حياتها بهجمات متتالية من قبل المتمردين على واقعهم الجديد حتى تثبت للعالم أنها الحقيقة، كالحب الذي يولد جنينا فيحاول كسره الحاقدون ثم يصير رجلا ويطيح بهم بمطرقته في النهاية.

تأكد من وجود المسدس، وضعه على جانبه الأيمن من الوراء كعادته، محشورا بين خصره والسروال، بدا أنيقا للغاية رغم إرهاقه الشديد الذي بدا عليه، ورغم محاولاته المستمرة للفوز ببعض الوقت في النوم ولكن ما هو الجحيم؟! أن تنام ولا شيء يأتي سوى من تخافهم، ولم يأتِ ديفيد في أحلامه سوى صور متكررة لومضات لعينة أيقظته بمجرد النوم، فقرر أن ينام نصف نوم، يحصد نصف يقظة وذلك الأخير أيضا بات مستحيلا.

تدق الساعة العاشرة والنصف وهو داخل تاكسي، لم يتفوه بكلمة، وتأكد بأن السائق لم يتعرف عليه، مما أكسبه بعض الراحة، فكر كثيرا فيما ستؤول إليه الأمور، فيما سيفعل بيتر سميث، هل سيطلق علي غضبه؟! هل سيطلق سراح حريتي؟! هذا شيء مستحيل، أغمض عينيه حينما جاءته هيلدا في حلم يقظة صامتة وجهها لا يحمل أي تعبير، في البداية كان الأمر كذلك ولكن بعد لحظات قليلة كان وجهها يحمل وجها معاتبا حزينا، نعم يا هيلدا أدري تماما أنك حزينة، لأنني فشلت في كل شيء، أدري تماما أنك غير مستريحة في قبرك الذي لا أعلم مكانه، لا تعاتبيني يا حبيبتي، فلقد حاولت فعل كل شيء، ولكن... ماذا أقول؟! نعم أنا جبان وهذه كل الحقيقة، ولكن هذه الليلة لن أكون جبانا، سأطلق الرصاص، ولكن لا تنظري لي كما تنظرين الآن، فأنا لا أتحمل شقاء فوق شقائي، لا أتحمل كوننا انفصلنا بلا وداع، وأعدك أنه حين اكتمال كل شيء، سآتيك بملء إرادتي راضيا، وداعا يا حبيبتي، وداعا يا هيلدا.

«لقد وصلنا».

تطلع إليه ديفيد جونز بعيون خالية من كل شيء إلا الدموع وهو بنفسه لم يكن يشعر بذلك، بتوتر ارتبك وهو يبحث عن النقود بعد ثوانٍ من اكتشاف عودته إلى عالم الحقيقة، لقد غادر عالم الأموات

حديثا، ولا أحد يعود من هناك دون أثر منهم، إما رسالة عتاب أو شوق مغلف بالدموع، أعطاه النقود وترجل من السيارة بهدوء وهو يطالع الفندق، يعتبر المكان هادئا مقارنة بليلة رأس السنة، لم يكن هناك الكثير بالخارج ولكنه يستطيع أن يرى أن هناك العديد يتوافدون على المكان ويستطيع أن يسمع بعض الصخب في الداخل، إن لم تكن تلك الليلة صاخبة تصنع الذكريات التي تستمر حتى النهاية فماذا يكون صاخبا؟! دخل بهدوء إلى البهو الذي أخذ شكلا دائريا، بينما هناك نجفة عملاقة رائعة التصميم والجمال تتوسط البهو. يبدو المكان كلاسيكيا يشعره بالدفء رغم أن هناك شيئا غريبا يدفعه للنفور منه، ظن للحظة أنه رأى ذلك المكان سابقا ولكنه بعد ثوانٍ تأكد من ذلك، ولكنه لا يعلم متى وكيف؟! كان حذرا، متوترا، وأنيقا أيضا، كان هناك الكثير من الناس حوله، مما أكسبه بعض الطمأنينة، ظل يتلفت يمينا ويسارا، يبحث عن بيتر سميث، الكثير من الشراب والكثير من الرقص والضحكات الصاخبة ترن في أذنيه، شعر بألم رهيب في رأسه مما جعله يغلق عينيه، كان الألم شبيها بصوت صفارة قطار ترن في أذنه هو وحده، لكن ديفيد لم ينسَ شيئا كهذا، لم ينسَ الأقراص، دس يده في جيب سرواله وأخرج قرصا والتقطه سريعا، أصبح ذا خبرة كبيرة في بلع الأقراص، لم يعد هناك حاجة للماء، رفع رأسه وهو ينظر حوله بهدوء، محاولا أن يكوِّن رؤية حقيقية، وبمجرد أن عاد كل شيء إلى طبيعته رأى روكسانا

بفستانها الطويل الأسود، في قمة جمالها، زهرة ربيعية تسحر عيون المتواجدين، حتى من يملك جمالا متجسدًا في امرأة ترافقه، كانت عيناه تستسلمان إلى روكسانا، ولكن الفستان مفتوح من الجانبين من أسفل حتى بداية خصرها، بينما تطل ساقاها الرائعتان كجدولي مياه رائقين، كانت تقترب منه ولكن ملامحها، التي تبادل من يقابل عينيها ابتسامة ساحرة، متوترة، ملامح لا تنذر بالخير على الإطلاق، فهو يعلمها جيدا، يعلم سر تلك الملامح وأنها لا تتحول إلى ذلك بسهولة، اقتربت منه وهي تنظر له نظرة غريبة، لم تكن نظرة خوف أو نظرة حب، بل نظرة مواسية تحمل الكثير من التوتر، أحس برجفة تسري في جميع أنحاء جسده وهي تمد يدها إليه مبتسمة ابتسامة باهتة ودودة.

«لترقص معي يا باتريك»، قالتها بطريقة غريبة، وكأنها تحبه منذ أن عرفت ما معنى الحب، ضمته إليها وهناك كانت أغنية يعرفها جيدا، أغنية لم ينسها ولن ينساها «you're breaking my heart»، شعر بتعجب شديد وهي تتمايل معه في هدوء وجاذبية وكأنها فراشة في موسم الربيع، حاول أن يتكلم ولكنها برقة وضعت سبابتها على شفتيه وهي تبتسم له نفس الابتسامة، لا يمكن أن تكون روكسانا أصيبت بالجنون، هل أحبتني لكوني فاشلا لا يستطيع أن يمنحها شيئا؟! ربما تناولت الكثير من الأقراص وقد منحها ذلك بعض النشوة! مهلا! كيف عرفتني بملامحي الحقيقية؟! كان متوترا

رغم كل شيء، حاول إيقاف أفكاره في هذه اللحظات ليتأكد من حقيقة الشعور الذي يعانقها، من حقيقة كونها تعرفه، ولكنه أيقن أن ذلك مستحيل الآن، من ذا الذي يستطيع أن يفكر وامرأة كروكسانا تعانقه وهي تتراقص كفراشة حزينة، ولكنها في النهاية تظل فراشة. حدقت في عينيه وابتسمت ابتسامة باهتة، كان مركزا على عينيها، تفاصيلها كلها تذكره بهيلدا المسكينة ولكن جزءًا منه كان فزعا حتى أنه تحسس مسدسه.

«إنها الليلة الأخيرة لكلينا»

نظر لها بغير إدراك في بداية الأمر، ثم شعر بفزع يتسلل إليه في كل ركن من أركان جسده، شعر أيضا بألم رهيب في معدته وكأن أحدهم وجه إليها لكمة قوية، تقوضت ملامحه وسرعان ما تمالك نفسه ثم ابتسم دون أن يسأل لأن السؤال كان واضحا في عينيه، ماذا تعنين يا روكسانا؟!

«أرجوك يا ديفيد، لقد عرفتك جيدا وأعرف من تكون، سامحني إن كنت راقبتك لفترة لأكتشف غموضك، أعلم لماذا أنت مختفٍ خلف ذلك القناع المدعو باتريك بلامر؟! أعلم كل شيء عنك، لا تتعجب وسامحني، فأنا لا أستطيع أن أثق بأي كائن كان، وكان عليَّ أن أعرف تلك الحقيقة التي جعلتك تختفي خلف هذا القناع، إنهم يبحثون عنك في كل مكان، لا تنظر لي هكذا، فأنا لست مثلهم

ولا أصدقهم، إنك تحاول مساعدتي، والقتلة لا يساعدون، لقد أوقعك حظك العسر في يد بيتر، لقد أوقعنا سويا، ولا أستطيع أن أشرح أكثر من ذلك، لن أطلب منك الكثير، لكن أرجوك لن أطلب منك شيئا آخر سوى أن تخلصني وتخلص نفسك من شقائك، إنها الليلة الأخيرة، لن أموت على يده، لن أموت إلا على يد ترأف بي، على يد من أحب، خلصني من عذابي هذا، لم أعد أستطيع الاحتمال».

كانت عيناها مغرورقتين بالدموع ولكنها كانت تحمل ابتسامة لا تفارق وجهها، والغريب أيضا أنها كانت مركزة تماما مع نغمات الأغنية الكلاسيكية فلا تخطئ قدمها موضعا، لم يفهم تماما ما تقصده روكسانا، لكنها بعد لحظات قالت: «اقتلني، امنحني تلك الحياة التي طالما خفت من امتلاكها، أنا أكيدة لا أحد غيرك سيمنحني هذا السلام، لا أحد غيرك سيمنح قلبي ذلك الحب المجرد من أي شيء آخر، الحب الصافي»، حاول أن يتكلم رغم توتره ورغم اندهاشه مما يسمع إلا أنها أفقدته القدرة على الكلام مرة أخرى وهي تتمايل والدموع تسيل على خديها، وهي تضع سبابتها على شفتيه، «لا تتحدث كثيرا يا عزيزي، ولن أسألك كثيرا، كل ما عليك هو أن تجهز على المدمنة روكسانا، على البائسة التي تتعذب كل يوم في صحبة ذلك الوحش، أما روكسانا الطيبة الجميلة فستعيش إلى الأبد»، هذه المرة ارتجف جسده وهو ينظر لها فاغرا فاه قليلا، عيناه جاحظتان، رأسه يؤلمه، في الحقيقة كان كل شيء يؤلمه.

«لقد وضعت في جيب سترتك مفتاح غرفتي، إنها الغرفة 313، سأكون هناك في انتظارك لتمنحني الشيء الوحيد الذي أرغبه بشدة من هذا العالم، ولا تتخيل أنني مجنونة أو تحت تأثير أي نوع من الأقراص، أنا في قمة جمالي اليوم، مستيقظة جدا كشمس بلاد الشرق، في أبهى صوري؛ لأنني سأفارق ذلك العالم سعيدة، لن يكون الأمر مؤلما أكثر مما تألمت، إن كنت تريد أن تساعدني، حبا بالله امنحني هذه الراحة»، ترقرقت الدموع في عينيه، شعر بمدى المعاناة التي يتعرض لها، الألم الذي يدب في كل جزء منه، الخوف الذي شرع يحرك يديه بحركات مرتعشة لا إرادية وجعل عينيه تريان بشكل غريب ودميم كل من حوله، كان يراهم دُمًى لعينة خرجت من مسرحية مرعبة، شعر بأن الحياة تحكم قبضتها عليه، لم يتخيل للحظة أن يحدث ما حدث معه الآن، حاول أن يسألها عن بيتر ولكنه لم يفعل لأنها كانت تمشي منسحبة بين الجموع في رشاقة غريبة، لا يمكن أن يكون القدر قاسيا إلى هذه الدرجة، هكذا إذن هي الحكاية، هذا ما كان يريده اللعين، يا الله، لا يمكن أن تكون قاسيا إلى هذه الدرجة، امنحني ولو بصيصا من الأمل، ولكنه في الحقيقة كان يدرك أن ذلك مستحيل، تبا لك يا مايك بلوم فيلد أنت وصلواتك، فالله لا يمنح البؤساء أمثالنا سوى الشقاء والألم.

كان مطرق الرأس يفكر في كل شيء، أفكاره مشوشة وبدا الغضب واضحا على ملامحه رغم الحزن، يتوسط ساحة الرقص، بينما

الجميع يتراقص من حوله، الأغنية التي أشرفت على النهاية، لا تبدو له أغنية لائقة بنهاية عام مضى واستقبال عام جديد، ولكنها تبدو لائقة بنهايته هو وحده.

I wish you joy, though teardrops burn But if some day you should want to return Please hurry back and we'll make a new start Till, till then you're breaking my heart

لماذا لم أحاول أن أنحيها عن هذا القرار؟! أي غباء ذلك؟! أي مزحة سخيفة تلك التي أتعرض لها؟! أي نوع من الألم يصب في قلبي الآن؟! رغم كل تلك الأسئلة إلا أنه وفي جزء منه كان منساقا وراء رغبتها، هناك شيء يدفعه بشدة إلى تحقيق أمنيتها، شعر بأنه جاء من أجل ذلك، لم يأتِ اليوم فقط بل جاء منذ خروجه من تلك الغيبوبة اللعينة فقط ليفعل ذلك، شعر بأن هناك فكرا غريبا يتملك منه، يعلم ذلك وأكيد منه بشكل كبير، علم أن تلك هي الحقيقة التي طالما بحث عنها، فهو لم يأتِ من أجل حقيقة أخرى، بل جاء لينقذ روكسانا، ليعوض ما لم يفعله مع هيلدا، أن يمنحها الحياة، وتلك الحياة هي الموت متجسدا، لا توجد حقيقة أخرى الآن، إنها حقيقة مفزعة ولكنها تبقى الحقيقة، بيتر لن يرحمهما ولن يكون هناك خيار آخر، لن يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل، ليقتل روكسانا، ليقتل بيتر ويريح العالم منه، وليجرِ ما يجري، لينهر العالم، لتفقد الحياة روحها، ولكنه في النهاية سيكون سعيدا، بما سيقدمه إلى تلك

البائسة التي لا تقل عنه بؤسا، وبعد أن ينهي كل ذلك سيمنح نفسه هو الآخر الموت، سيمنحه لنفسه مبتسما وراضيا، الموت الذي بدا له شيئا جليا وعذبا في هذه اللحظات، كزهرة جميلة قطفت بأيدي هيلدا، سيتخلص من عذابات حياته، من كل تلك الذكريات اللعينة، رفع رأسه ليجد روكسانا هناك تقف أمام المصعد الذي يؤدي إلى الغرف تنظر له بعيون متوسلة وابتسامة صادقة، بادلها ابتسامة باهتة للغاية، حزينة بشكل شديد، اختفت من أمامه والمصعد ينغلق، نظر حوله فوجدهم يترقبون الساعة التي أوشكت على إعلان نهاية العام ونهاية ديفيد جونز أيضا.

54

وقف ديفيد أمام الغرفة يلهث، دقات قلبه تتعالى مع كل ثانية، في الحقيقة كان ديفيد في هذه اللحظات وكأن شخصا يتحكم به، كأن هناك من يحرك إحساسه، ورغم أنه حاول ببسالة مقاومة ذلك إلا أنه كان مستحيلا، لم يعلم السر الغامض خلف كونه يقف في هذه النقطة، حول انسياقه وراء كلمات روكسانا التي دفعته إلى التفكير بهذه الطريقة، مطأطئ الرأس، تبدو نظرات عينيه غريبة، شاردة، جسده يرتجف ولم يكن هذا ناتجا بسبب البرد الذي غلف تلك الليلة وجعل كل شيء جامدا كالموت بل لإحساسه بأن التفكير الذي يقوده الآن لا يقوده إلى ما سعى إليه، إلى الحقيقة، بعد ثوانٍ معدودة من تداول الأفكار المشوشة بينه وبين نفسه اعتقد بأنه كان على خطأ وأن أفكاره قبل أن يركب المصعد كانت صحيحة، بل إنها الحل الوحيد، فخلاصه وخلاص روكسانا يكمن في أن يمد يده ويفتح تلك الغرفة، في أن يطلق الرصاص، في أن يطلق عنان حريته التي ستدوم للأبد.

رفع رأسه وهو ينظر إلى رقم الغرفة، الغرفة 313، الرقم الذي يعني له عنوان الجحيم، الرقم الذي تكرر متعمدا بكل تأكيد لكي

يسخر منه، شعر بأن الرقم يتحدث إليه في هذه اللحظات، اكرهني كما شئت، عنفني كما تشاء وانبذني مع جميع أفكارك، ولكن ستظل ابتسامتي الساخرة تنال منك، ستدخل إلى عالمي، ستنفذ ما أشاء دون مقاومة كذليل مكبل بالأصفاد يقع تحت سطوتي، كلعبة صغيرة، فأنت لست أكثر من لعبة، شعر ديفيد بغيظ شديد وغضب ثائر من ذلك الحوار الذي تخيله، لا، لن أظل على تلك الشاكلة، لن أمنحك ما تريد، سأدخل من خلالك وأطلق الرصاص عليك، لن أكون مجرد لعبة، سأكون أنا المتحكم هذه المرة، وأتخلص من عذاباتي، سأتخلص من بيتر سميث، سأتخلص من تلك الذكريات المرهقة، سأتخلص من كل شيء.

أدار المقبض بغضب ودلف إلى الغرفة، كانت هناك موسيقى كلاسيكية، إنه يعرفها جيدا، بالتأكيد أن هذه المقطوعة لشوبان «Frédéric Chopin»، إنها المقطوعة Prelude in E-Minor «op.28 no. 4»، قال في نفسه: الغرفة خالية تماما، لا سرير، لا دولاب، ليس هناك سجادة، ولا يوجد أيضا شرفة، الغرفة عبارة عن مربع كبير، مساحته تصلح لمحل كبير، ربما لصيدلية كصيدلية دكتور إيفان، الجدران مطلية باللون الرمادي الفاتح، وشوبان يعزف من مكان ما، إنه هناك خلف جدار من هذه الجدران أو أنه هناك أمامه ولا يستطيع رؤيته، آلام متتالية تأتيه مباغتة في رأسه، كأمواج عاتية غاضبة تصفع الشاطئ بلا رحمة بينما تظل بقاياها

على الطرقات، أغمض عينيه من قوة الألم، كان التعجب هو سيده في هذه اللحظات، فتح عينيه فوجد روكسانا تقف في مواجهته على بعد مترين تقريبا، لم تكن ترتدي ذلك الفستان الجميل، في الحقيقة لم تكن ترتدي شيئا، عارية تماما، اندهش ديفيد وهو ينظر لها بعينين متفحصتين مذهولتين، لم يبد على ملامحها أي تعبير، بل كانت هناك صامتة، ساكنة في مكانها، وكأنها تمثال من عصر اليونان المجيد، تشبك يديها فوق نهديها، تنظر له نظرة ألقت بالرعب في نفسه، حاول أن يتكلم ولكنه لم يستطع لأنه لا يدري ماذا يمكن أن يقول، فجأة تحركت شفتاها برجفة، كان يتابعها بكل جزء فيه والتعجب يخر من عينيه، بهدوء تحركت وكأنها لم تتحرك منذ عقود طويلة، «الآن خلصني من عذابي، الآن امنح نفسك الحرية»، كانت موسيقى شوبان تتصاعد رويدا في هذه اللحظات، يعزف هائما بين نغمات نوتته التي أتى بها خصيصا اليوم من أجل ديفيد جونز، نظر لها ديفيد وهو يحرك يده ببطء شديد حتى لمس مسدسه في هدوء وترقب، صدره يعلو ويهبط بشكل ملحوظ، شعر برجفة قوية تهز جسده كاملا، شعر بأن الأرض تميد من تحته، أخرج المسدس وأسدل يده بجانبه وهو ينظر لها، كانت الدموع تترقرق في عينيها، كان المشهد كاملا في عينيه يستثير أي عاطفة، رأى هيلدا فجأة أمامه تباغته، تأمره بأن يتوقف ولا يقتل روكسانا، «لا تقتلها وانجُ بنفسك، حبا بالله يا ديفيد لا تفعل ذلك»، هز رأسه وهو يغمض عينيه بقوة

كـي يبعد هيلدا عـن أفكاره، كانـت عارية هي الأخرى، تسـيل منها الدمـاء، شـعرها منكـوش بينمـا الكحـل يتسـاقط مع دموعهـا فبدا وجههـا مرعبا، صورة مرعبة أخرى تتجسـد أمامه، هذا ليس الوقت المناسـب يا حبيبتي، دعيني أنقذ البائسة روكسانا، «أطلق الرصاص يا ديفيد»، قالتها روكسـانا بنبرة متحشـرجة مفعمة بالدموع، نظر لها بعـد أن اختطفتـه روكسـانا من أمام هيلـدا التي تقف فـي ركن آخر عارية، لـم يسـتطع أن يمحو صورتها الآتية من مكان بعيد، من مكان يعكـس الجحيـم بكل تأكيد، شـرعت دقات قلبه تعلو مع موسـيقى شـوبان التي صارت أكثر حدة ووضوحا وسـرعة في هذه اللحظات الصعبة، اقتربت منه روكسانا، اقتربت منه كثيرا، اقتربت بشفتيها من أذنه اليسـرى ثم قالت همسـا: «هل تذكر صديقنا الذي أخبرتك عنه مـن قبل، الصديـق الوحيد لي ولبيتـر؟! ثم عادت ونظـرت له نظرة مرتعـدة متهدجـة بالدمـوع وزمت شـفتيها ثـم عادت إلـى وضعها الأول وأردفـت: «لقـد قتلـه بالأمـس، قتله يـا ديفيد، لقـد ألقاه من الشـرفة في منزله، لقد كنت هناك ورأيت كل ذلك بنفسي، لقد شك بـه هـو الآخر، وهذا مصير من يشـك بهـم بيتر، مصيرهـم جميعهم الموت، لقد فقدت الشـخص الوحيـد الذي كنت أثق به في حياتي، الشـخص الذي حاول مسـاعدتي، الذي حاول كثيرا أن يعالجه من جنونه، أنا لم أخن بيتر، لم أخنه، أنا مشفقة عليه»، ثم عادت برأسها قليـلا إلـى الوراء وهي تبتسـم ابتسـامة باهتـة للغاية، حزينة بشـكل

رهيب والدموع تسيل من عينيها، ثم عادت مرة أخرى وهمست، «أترى يا ديفيد؟! ها هي الحقيقة متجسدة أمامك، أنا الحقيقة التي طالما هربت منها، لقد كنت دائما تبحث في المكان الخطأ، لن تكون نهايتك مؤلمة ولا أنا يا ديفيد كذلك؛ لأننا سنستريح، سنستريح للأبد، أحصل أنا على راحتي وتحصل أنت على حريتك، أفهمت اللعبة الآن؟!»، ثم احتضنته، طوقته بيديها بشدة وهي تقول: «الآن امنحني راحتي الأبدية»، كان ديفيد يبكي في هذه اللحظات، دموعه تسيل لتسقط على كتفها، احتضنها بشدة وهو يكتم صوت بكائه فجهش بالبكاء، شعوره بالألم فاق كل ألم شعر به قبل ذلك، هيلدا تقف هناك أمامه، يراها من خلف ذراع روكسانا الذي يحيطه وهي تومئ برأسها فزعة «ألا يفعل»، «لا أريد أن أتألم أكثر من ذلك، لا أريد أن أصبح مدمنة أكثر من ذلك، لا أريد أن تطفأ السجائر في جسدي، حبا بالله خلصني الآن وامنح نفسك الحرية»، طوقها بشدة، بينما قفزت قفزة رقيقة وطوقت خصره بقدميها، فجلس على ركبتيه وهو يبكي بينما كانت هي تحيطه بشدة وجسدها يرتجف، وشوبان يعزف بلا انقطاع، بسرعة جنونية، وكأنها الليلة الأخيرة، رفع ديفيد المسدس ووضعه ملاصقا لقلبها وهو يحتضنها بشدة، ثم همست له والدموع تسيل منها «الآن يا ديفيد»، أغمض عينيه الباكيتين ثم ضغط على زناد المسدس، خرجت الرصاصة الأولى فزم شفتيه محاولا احتواء الحرقة التي تسري في وجدانه، خرجت

معهـا رائحة أبيه النتنة، الرصاصة الثانية، رأى أمه تبتسـم أمامه بحنو وألم، الرصاصة الثالثة، الشـاب العراقي واقف أمامه مهشـم الرأس بينمـا هناك ابتسـامة محفورة على ملامحـه، الرصاصة الرابعة، رأى مايـك بلوم فيلد صديقه وهو يصلي من أجله، الرصاصة الخامسـة، رأى هيلـدا وهـي ترقص عارية بجـواره في الليلة الأولـى التي رآها بهـا، كانت تضحك سـعيدة، الرصاصـة السادسـة، رأى ملايين من الأقراص يحرقها في موقد كبير يشـبه المحرقة، الرصاصة السابعة، رأى روبـرت صديقـه واقعـا على الأرض مهشـم الجسـد مبتسـمًا ابتسـامة راضيـة، الرصاصة الثامنـة، رأى باتريك بلامر وهو يبتسـم ابتسامة صادقة، الرصاصة الأخيرة، رأى بيتر سميث مبتسما ابتسامة رقيقة راضية وهو يهتز بقوة فوق الكرسي الكهربائي.

ظل مغمض العينين يرتجف بشدة بينما شعر بتراخي ذراعي روكسانا، فأغمض عينيه وهو يبكي بشدة، بل كان يعوي كذئب أصابه صياد في قلبه، يعوي العواء الأخير، أراح يديه قليلا وهو مغمض العينين حتى تأكد من أنها الآن نائمة على الأرض، نائمة في مكان ما، بالتأكيد أكثر راحة من هنا، كان هناك شعور قوي يهز كل جزء فيه، تلك الرؤى التي أتته مع إطلاق الرصاصات، لم تكن رؤى مفاجئة، بل إنه شعر بأنه مع كل رصاصة كان هناك شيء يخرج منه، شعر براحة غريبة، ورغم ذلك لم يستطع أن يتوقف عن البكاء؛

لأن البكاء هو السبيل الوحيد للتعبير عما يدور بداخله الآن، فهناك شيء اكتشفه ديفيد مع كل رصاصة، شيء كان يبحث عنه طيلة هذه الفترة، لم يتوقع أن يجده في هذه النقطة بالذات، لم يكن يتخيل أن الحقيقة بشعة ومفزعة إلى هذا الحد، رفع رأسه وهو يفتح عينيه بهدوء، مسحها، فتح عينيه فلم يجد روكسانا، مسح عينيه بسرعة ثانية، ليتأكد من أن ما يراه حقيقة وليس مزحة ثقيلة، نظر حوله فوجد العديد من الأشخاص يقفون في شكل دائرة، كان مصدوما، لم يكن يفهم، رغم إدراكه الأخير للحقيقة إلا أنه لم يكن فاهما، أو بمعنى أدق، لم يكن يريد أن يفهم، كان يرفض تلك الفكرة تمام الرفض، نهض من مجلسه وهو ينظر في وجوههم نظرة فزعة، مفعمة بالدهشة.. حاول أن يهرب، ولكن جزءًا منه أبقاه؛ لأنه لم يعد هناك مكان للهرب.

55

هذا توني جونز ابن عمه، ويستطيع بالكاد التعرف على هذين الشخصين، إنهما الرجل والسيدة اللذان كانا بجواره في المطعم حينما كان ينتظر روكسانا ويستطيع أيضا أن يتذكر حوارهما الذي بدا قريبا جدا من حياته، وها هي أيضا السيدة ويليامز تقف مبتسمة ابتسامة رائقة ودودة ومتحسرة أيضا، كما أن هذا الشاب الواقف بينهم يستطيع أن يميزه، إنه ذلك الشاب الذي كانت تبحث عنه الشرطة والذي أنكر وجوده حينما سأله عنه أحد الضباط، الشاب الذي يكره الجبناء والذي ركله وتسبب له بالألم، يا للمفاجاة إن ضابط الشرطة الذي سأله عنه هو الآخر هنا! ومن يكون هذا الآخر بجواره الذي يبدو مبتسما ابتسامة يستطيع تمييزها جيدا؟! إنه جون الممرض الذي يعمل في المركز الطبي لمدينة كارسون، الذي تبادل معه الحديث والذي أرشده إلى غرفة باتريك بلامر الحقيقي، كما أنه يستطيع أن يميز الشاب الذي أعطاه البدلة التي يرتديها الآن، كما أن سائق التاكسي الذي جاء به إلى هذا المكان يقف محدقا به بنظرات ذات معنى.

الرجل العجوز، الذي يعمل في الفندق والذي تعرف عليه، هنا هو الآخر، يقف منحنيا تلك الانحناءة ويحمل نظرة مختلفة تماما، نظرة لا تحمل سوى الود والإشفاق، ورجل الشرطة الأخير الذي شك به وطلب منه الاطلاع على هويته، يذكر ذلك جيدا حينما أنقذه بيتر منه، اللعنة، ماذا يحدث هنا؟! شعر بأنه مستغرق في حلم يقظة غامض، بلع ريقه بصعوبة وهو ينظر نظرة جنونية لهم، يتفرّس ملامحهم، ظهر على شفتيه تعبير ذاهل، بدأت أفكاره تضطرب، لم يعلم كيف يكون التفكير؟! في الحقيقة كان التفكير شيئا مستحيلا، وفجأة ذهبوا جميعا إلى الجهة اليمنى من الغرفة، تحركوا بهدوء وكأنهم في عرض مسرحي حتى انكشف ما خلفهم، بيتر سميث يجلس خلف مكتب صغير وأمامه بعض الأوراق، بينما تقف على يمينه روكسانا، وعلى يساره شخص آخر يدخن، شخص لا يعرفه، روكسانا تقف هناك بثوبها الأسود، لا تنزف الدماء، لا تبكي، لم تمت، نظر فجأة إلى المسدس في يده، نظرة مندهشة متسائلة، بينما كانت موسيقى شوبان قد هدأت قليلا ولكنها لا تزال هناك، جميعهم يحدقون النظر فيه، لا أحد يتكلم، كان كل منهم يحمل معنى معينًا تنقله ملامحه، وكل منهم يرتدي نفس الثياب التي كان يرتديها حينما قابلوه، شعر بأنه سيُجَنُّ، تذكر ما حدث منذ دقائق قصيرة، الرصاصات التي أطلقها، نقل بصره بشكل ذاهل بينهم وبين المسدس، ثم نظر إلى بيتر الذي كان يجلس متكئا بساعديه على المكتب، يشبك أصابعه وقد بدا عليه الهدوء، ينظر له نظرة خالية

من أي تعبير، يرتدي بدلة رائعة، وسرعان ما ابتسم قائلا: «كان يجب أن تتأكد من وجود طلقات بالمسدس يا ديفيد»، كانت لهجته ودودة وجادة في نفس الوقت، نهض من مجلسه ثم اتجه نحو الباب وفتحه ثم أشار بيده إلى الجميع بالانصراف، انصرفوا جميعا حتى روكسانا ولم يتبق في الغرفة إلا بيتر سميث والرجل المدخن، أغلق الباب ثم نظر له نظرة طويلة وهو يقول: «ديفيد، لقد أرهقتنا جميعا، أتمنى أن تكون مدركا لهذا الأمر»، نظر له ديفيد نظرات متشككة لم تخلُ من الذهول، كانت يداه ترتجفان وكانت الكلمات ترفض بشدة الخروج ولكنه استطاع أن يقول بعصبية: «من أنت.. يا بيتر؟! من أنت؟!».

ابتسم بيتر ابتسامة ودودة «ألم تعلم الحقيقة حتى الآن يا ديفيد؟! مع كل ما مر بك ومع وصولك إلى هذا المكان، ألم تعِ حتى الآن من أكون؟ ألا تتذكرني؟!».

نظر ديفيد بعيدا وكأنه يحاول تجميع أفكاره بينما كانت ملامحه ترتجف بشكل ملحوظ، حاول أن يفكر ولكن فكرة واحدة كانت تسيطر عليه، بأن البقاء هنا سيكون مؤلما، ولكنه أدرك أيضا أن الهرب سيكون أكثر إيلاما، رغم المرارة التي لا تطاق والتي شرعت تلف كل جزء فيه وتغلفه بموجة غاضبة تركله يمينا ويسارا، ورغم أنه أحس بصخور تتهاوى من فوق جبل فوق رأسه، إلا أن لحظة صادقة ظهرت من بين كل هذا الألم وتملكت منه، جعلته يثبت في

مكانه ويطرد هاجس الهرب، وقف في مواجهة بيتر وهو ينظر له وقد ضاقت عيناه، شفتاه ترتجفان، قلبه يدق بصوت يكاد يتخبط في الجدران - لو استطعنا الجزم بذلك - شعر بأن قدميه لا تستطيعان أن تحملاه، كان مطرق الرأس وهو ينظر بذهول إلى المسدس الذي كاد يقع من يده من فرط الرجفة، خرجت دمعة دون وعي منه، تسيل بهدوء على خده الأيسر ومن ثم شرعت دموعه تسقط، ها هي الحقيقة التي طالما بحثت عنها، ها هي تتضح جلية مؤلمة، بل أكثر إيلاما مما تخيلت، الآن فقط اكتشفتها، كانت هناك ولكنني كنت أحجبها بملء إرادتي، أنظر إليها بعين مغلقة وأخرى مفقوءة، وجهش بالبكاء وهو ينظر إلى الأرض، كان بكاؤه يستثير العاطفة بشكل كبير، لم تستطع قدماه أن تحملاه أكثر من ذلك فنزل على ركبتيه وهو مطأطئ الرأس يبكي بكاء حارًّا، يجهش بشكل متقطع، ترك المسدس من يده، هوى ببطء شديد حتى أحدث صوتا مكتوما وهو يرتكز على الأرض بجواره في النهاية، لم يعد هناك حاجة لمزيد من القتل، لم يعد هناك حاجة لمزيد من أي شيء.

نزل بيتر أيضا بركبتيه على الأرض، كان حزينا للغاية، محاولا بقدر الإمكان أن يواسيه، فكر كثيرا في انتقاء كلماته قبل أن يتفوه بلفظ واحد، يدرك جيدا معنى الحقيقة التي توصل إليها ديفيد، يدركها ويعلم مدى مرارتها، ولكنه في أعماقه كان سعيدا بذلك، سعيدا بالشكل الذي لم يكن ليتخيله، رغم أنه حاول مرارا تخيل

تلك اللحظة وردة فعله منها، إلا أن جميع ما تكهن به باء بالفشل مقارنة بهذه اللحظة الحاسمة في حياة ديفيد جونز.

«لا عليك يا ديفيد، أعلم جيدا أن الحقيقة موجعة ولكن الأهم يا صديقي، أنك اكتشفتها».

لم يكن ديفيد يسمعه، لم يكن يسمع أي شيء على الإطلاق، كان في منطقة بعيدة، مؤلمة وقاسية، تمنى لو أنه لم يعرف، لو أنه لم يأتِ هنا، لو أنه لم يولد من الأساس، لقد وصل إلى هذه المنطقة بفضل من تخيل أنه مجنون ولكن للأسف هو المجنون، الطبيب المنحرف والمريض الذي قتل زوجته، الذي قتل أيضا صديقه، إنه ليس بيتر سميث من فعل كل ذلك، بل إنه أنا ديفيد جونز، ديفيد جونز ولا شخص آخر...

«ديفيد، انظر لي، لا تبكِ، فقد انتهى كل شيء الآن، وهذا شيء جيد أننا وصلنا إلى ما تعبنا من أجله».

رفع ديفيد رأسه ببطء شديد، عيناه لم تتوقفا عن ذرف الدموع المالحة البائسة، كأنه يرفض مواجهة الواقع من جديد، يأبى كل شيء، يأبى حتى وجوده نفسه، ثم قال وهو يجهش بالبكاء والكلمات ترتجف بين شفتيه: «لقد قتلت هيلدا يا بيتر، لقد قتلت روبرت، نعم إنها الحقيقة، أنا من فعل كل ذلك»، وأجهش بالبكاء بعنف في هذه اللحظات، يصدر آهات متقطعة رهيبة، وضع بيتر يده على رأسه وهو يربت عليه وضمه له قدر ما استطاع، وبعد قليل شعر بأن ديفيد كان

يهدأ في هذه اللحظات، ساعده بهدوء ومعه الرجل المدخن حتى جلس على الكرسي، استند بمرفقيه فوق ذلك المكتب، ووضع رأسه بين كفيه، ينظر للاشيء، دموعه تسيل بهدوء بلا صوت، كان بيتر حينها يهمس له بشيء ما، ثم وقف في مواجهة ديفيد وهو يقول: «بما أنك أدركت الحقيقة، فإنه من حقك أن تعلم أنني الطبيب المسئول عنك واسمي هو فعلا بيتر سميث، بيتر سميث اللعين كما وصفته في تقاريرك»، وابتسم ابتسامة هادئة صادقة، ثم أردف يقول: «لقد أعدنا كل ذلك مرارا وتكرارا يا ديفيد منذ عامين، منذ عامين وأنا أحاول معك بلا توقف، أعيدك إلى نقطة البداية ولكن للأسف، كان يحدث شيء ما، ونعود إلى ما هو أسوأ، الصدمة التي تعرضت لها بعد قتل هيلدا وروبرت كانت قوية، أصبت على أثرها بفقدان الذاكرة الانشقاقي «Dissociative Amnesia»، لم نمل يوما منك أو من حالتك، إنهم يعتقدون بأنك من تدعي فقدان الذاكرة لهذه المنطقة بالذات حتى تتهرب من المحاكمة، ولكننا جميعا وقفنا بجوارك، ما مررت به خلال حياتك كان لا يطاق يا صديقي، لقد عدت من العراق وقد تمزق منك ما تبقى، تمزق تماما، لكنك لم تدرك ذلك، لم تدرك بأنك كرهت العالم بالشكل الذي حولك إلى إنسان آخر، تخيلت أن روبرت سينتزع منك هيلدا كما انتزعت الحياة منك كل شيء، فتحولت إلى شخص آخر، أصيب بالمس الأحادي، وهو الذي أوصلك إلى هذه النقطة التي نحن بصددها الآن».

سكن للحظات بعد أن رفع ديفيد رأسه وهو ينظر له، كانت عيناه تشعان حزنا وألما، تضخان بكل معاني الأسى والألم، ولكنه كان مستسلما تماما، مستمعا له على موسيقى شوبان الحزينة التي لم تتوقف، استرسل بيتريقول: «لقد اعتقدت بأن هيلدا ستذهب بلا رجعة هي الأخرى ككل من فعلوا فحوَّلتها إلى مدمنة، لقد أعدنا حياتك مرة أخرى، بنفس الألم الذي شعرته هيلدا، من خلال روكسانا، أقصد الطبيبة ساندرا ريان، وهي أحد المشرفين على حالتك، كان علينا أن نقيم فيك القيم الربانية من خلال جرعة زائدة من الألم، من إعادة تلك الذكريات كما حدثت بالقدر الذي نستطيعه، من إحياء القيم الربانية التي ماتت بداخلك، وتلك طريقة للعلاج وهي إعادة المنطقة التي تسببت للشخص بالصدمة بشكل واقعي تماما، والتي أودته في النهاية مريضا كحالتك، إنها نوع من أنواع العلاج النفسي وتسمى السيكودراما «Psychodrama»، ولنعد إلى حديثنا، حاول روبرت منعك، باسم الصداقة والواجب، ولكن كانت نهايته سيئة للغاية، قتلته قبل قتل هيلدا بساعة واحدة وقبل بداية العام الجديد منذ عامين في هذه الغرفة بالتحديد، وحين هروبك، حدث ما لم يخطر لك على بال، لقد وقع حادث لك، وتم علاجك ولكن اكتشف الأطباء فيما بعد بأنك لا تتذكر شيئا، ولكن في الحقيقة لقد كان المحامي العام قاسيا وجزم بأنك تدعي، ولكننا حاربنا وأكدنا أنك

لست طبيعيا لتقدم على مثل هذه التصرفات بكامل إرادتك، وقدمنا أدلة تفيد بأنك لست مؤهلا للجلوس أمام المحاكمة ومقاضاتك على جرائم وقعت تحت تأثير المس الأحادي، وبعد أن أفقت وأنكرت كل التهم، تأكدت بأن عقلك لا يدرك الحقيقة، لا يقبلها، وأنت مصاب بفقدان ذاكرة انشقاقي لهذه المنطقة ولا يصاب بها أحدهم إلا تحت تأثير صدمة رهيبة، لهذا أرسلوك لنا، استعنا بكل تفاصيل حياتك، بكل شخص تعرفه، استعنت بكل شيء، كما أننا أقنعناك بأنك مدمن، وفي الحقيقة أنت لم تكن تتناول سوى عقاقير من نوعية أموباربيتال وثيوبنتال، تساعدك على التذكر وهي لا تؤتي أكلها بشكل كبير، ولذلك كانت تأتيك ومضات، وتصاب بهلاوس متكررة؛ مثل رؤيتك لروبرت على الدوام وكذلك هيلدا، أنا آسف يا ديفيد، كنت أتمنى ألا تكون الحقيقة قاسية إلى هذه الدرجة، ولكن تأتي الحقيقة دوما من الألم».

تنهد ديفيد تنهيدة عميقة، كانت المرارة مفجعة، أجهش مرة أخرى بالبكاء، شرع يبكي، اقترب منه بيتر وحاول تهدئته، واستمر هكذا لوقت ليس بقصير، وحينما شعر دكتور بيتر سميث بأنه أصبح أكثر هدوءا قال: «في الحقيقة يا ديفيد، كانت تلك هي المحاولة الأخيرة؛ لأن المحامي العام قرر أن تمثل أمام المحكمة بعد يومين، ولكن في حضور المفتش جيمس بلاكمان، ومع شهادته هذه

سيتضح أنك كنت غير طبيعي حين ارتكاب هذه الجرائم وسنثبت ذلك أمام المحكمة، ومن ثم سيتم نقلك لمكان يتم فيه تأهيلك من جديد، لتبدأ حياة جديدة في القريب، أظن أن الحقيقة حتى وإن كانت موجعة فإنها أكثر رأفة من أن تحاكم على جرائم أنت بنفسك لا تتذكرها، ترفض حتى الاعتراف بها تمام الرفض، ما أقسى أن يكون الإنسان ملوما على شيء لا يتذكره».

نظر له ديفيد نظرة ثابتة متأملة، كان حينها يفكر، لم يكن يعلم بالتحديد في أي شيء يفكر، يشعر بغليان غريب ومرهق في رأسه، شعر بأنه يدور في دوائر عنيفة، الكرة الأرضية أعلنت عصيانها على البشر، وقررت أن تصب عليهم غضبها، بل عليه هو وحده، ارتجف بشدة، رغم العرق المتصبب منه في هذه اللحظات، وضع رأسه بين كفيه، لم يكن يبكي، لكنه كان أكثر من ذلك بكثير، تراءت أمامه صورة هيلدا وروبرت في هذه الأثناء، تأكد من الحقيقة في هذه اللحظات القاسية، نعم الحقيقة بشعة، ثم نهض من مجلسه وهو يترنح، قدماه لا تتحملان الوقوف، شعره مبتل نتيجة للعرق الذي تصبب خلال تلك المواجهة القاسية، لم يلبث بعد ثوانٍ إلا أن سقط على الأرض مغشيا عليه، غائبا عن الوعي..

غائبا عن كل شيء..

عزيزي ديفيد

إن الحقيقة لا تأتي إلا من خلال الألم، فكلما كان الألم عميقا، كانت الحقيقة أكثر وضوحا.

بيتر سميث

56

يرقد هناك وحده في وسط الظلام الذي يغط هو الآخر في هدوء غريب، ليس ذلك الهدوء الذي ننتظره حينما نعود من العمل، أو بعد فترة طويلة من المعاناة مع مرض الحمى الخطير، كان هدوءا له حس عميق وفاتن، أمام السرير كان هناك منضدة صغيرة مصنوعة من الألمونيوم يجلس خلفها كرسي يحدق فيها بنظرة متجهمة، بينما كانت هناك بعض الأوراق وقلم تمكث في سكون ودون حركة فوقها، لا توجد سوى نافذة واحدة تغطيها قضبان حديدية في مواجهته، بينما السرير مفروش بملاءة بيضاء، نظر خلفه فوجد لوح السرير الرأسي ومن خلفه لا يوجد شيء سوى الحائط، لم يكن هناك شيء آخر، أمسك برأسه وهو يعتدل في جلسته حيث كان يشعر بصداع رهيب في هذه اللحظات، ولكن انتشله من ذلك شيء يقيد قدميه، إنها أصفاد، تشبه تماما الأصفاد التي كانت معلقة بين قدمي باتريك بلامر، لم يتطلب منه الأمر وقتا طويلا ليكتشف أنه يجلس الآن في غرفته التي عهدته لمدة عامين، لم تشتك منه، لم تشعر بالإرهاق أو الضجر من جنونه ونسيانه، إنها بالتأكيد الغرفة 313، الرقم الذي ترك علامة لن ينساها طالما عاش، أحس بأن القسم

الأوسط من رأسه بالتحديد هو ما يؤلمه، شرع يستعيد ذكرياته بهدوء بعد أن تملكت منه حالات متباينة من الاندهاش والتفكير السطحي عن كيفية وصوله إلى هنا! ومن أتى به! وماذا حدث بالتحديد له! لكنه جزم بأن كل ذلك أمور تافهة، تفاصيل غير مهمة على الإطلاق، واجه الحائط بنظرة طويلة لا تعني شيئا، الذكريات تأتيه رويدا عميقة وأليمة، كان يستطيع أن يرى روبرت وهو يسقط من فوق المبنى حينما دفعه، تذكر أنه انتهز تلك الفرصة اللعينة حينما استدار له دون أن يعلم الأخير بأن تلك هي الاستدارة الأخيرة، تذكر جيدا أفعاله القاسية والمريرة التي ارتكبها في حق هيلدا، وتذكر أيضا مذكرات روكسانا، التي لم تكن في الحقيقة إلا مذكرات هيلدا زوجته، بكى في صمت دون أن يتحرك، فقط عيناه لا تفارقان الحائط، تذرفان الدموع، لم يكن عليه أن يعي ما يجب أن يفعله، لم يكن عليه أن يفكر لأنه بعد وقت طويل من التفكير والتأمل، نهض من مجلسه وبصعوبة بدأ يحرك قدميه، اتجه بهدوء نحو المنضدة، كان يستطيع أن يسمع صوت الأصفاد وهي تصطك بالأرض، كانت تأتيه رؤى غريبة، فعلم في تلك اللحظات بعدما استعاد جزءا ضائعا بأن باتريك بلامر كان صديقه على طول أيام العلاج، كان هو من يدفعه للهرب، لذلك لم يحاول أن يدفعه أو أن يقتله حينما هاجمه، هذا إذن الرابط الذي يجمعهما؛ لذلك أيضا أحس بأنه رأى تلك الرسومات على الحائط؛ لأنه هو بنفسه من رسمها، فلم يكن الفأر الصغير الحزين سوى تصوير لذاته، كان يشعر حينها بأنه فأر سجين في مصيدة

صغيرة، وتلك الخرائط اللعينة، هو من رسمها أيضا لكي يستطيع الهرب، دبر لكل ذلك مع باتريك بلامر، ويبدو أنهما فشلا ولذلك كان باتريك محطما يائسا من كل شيء، ولذلك يصفه باللعبة، في الحقيقة كان كل شيء في نظره في هذه الأثناء مجرد لعبة، الحياة برمتها مجرد لعبة سخيفة، وأيقن بأن من يتلاعب بها تكون نهايته أكثر إيلاما من نهايته التي هو بصددها الآن، جلس على الكرسي وأمسك بالقلم ونظر إلى الأوراق طويلا، الآن علم تحديدا لم توجد تلك الأشياء هنا، إنها المرة الوحيدة التي سيكتب فيها دون ضغط، دون أن يشعر بأنه محتاج لأقراص لعينة، بأنه غير مهدد من قبل إنسان مريض، دون أن يشعر بأنه مهدد بالإعدام.. بالموت.

شعر برضا كبير لأول مرة، بإحساس لم يكن ليتخيله على الإطلاق بعد كل هذا الكم من الألم، وشرع يكتب، لم يكن ديفيد يعرف أن الفجر قادم، فجر جديد تسطع معه الأفكار وتدب فيه الحياة من جديد في الكرة الأرضية الميتة..

اليوم الأخير

الورقة الأخيرة

أنا ديفيد جونز، أعترف بإرادة حرة بأنني ارتكبت جريمتَي قتل، قمت بقتل زوجتي هيلدا جونز وكذلك صديقي روبرت هارسون، مساء الخميس الموافق 31 / 12 / 2009.

ديفيد جونز

31 / 12 / 2011

بعد بضع ساعات قضاها ديفيد مستلقيا على سريره، يقلب ذكرياته، يبحث هنا وهناك، يشعر بمرارة أحيانا وبألم أحيانا أخرى، وبابتسامة راضية بين الحين والآخر، كان النور يستطيع التسلل إلى غرفته من بين القضبان الحديدية، سمع صوت باب غرفته ينفتح، فدخلت هالة قوية من النور، وضع ذراعه على عينيه، وبعد ثوانٍ، أزاحه بهدوء وهو يتطلع في وجه بيتر الذي كان يرتدي معطفا أبيض، يضع شارة تحمل اسمه ومهنته في المركز الطبي، إنه الآن الطبيب بيتر سميث، يحمل ابتسامة ودودة صادقة بشكل كبير، طأطأ ديفيد رأسه قليلًا وكأنه يفكر، ثم رفع رأسه ثانية وهو ينظر له بنظرة ذات معنى وأومأ له إيماءة خفيفة برأسه، ورغم المرارة التي كانت تبدو في نظرته والبؤس الذي يلفعه، كانت نظرة تحمل العرفان والشكر، وإيماءة تنم عن الاحترام، ابتسم بيتر بدوره دون أن يتفوه بكلمة واحدة؛ لأنه علم الحقيقة التي تدور في نفس ديفيد في هذه اللحظات، أيقن بأنه قبل بالواقع، أصبح راضيا عنه رغم دمامته، ويستطيع بالتأكيد مواجهته، اتجه نحو المنضدة ثم نظر إلى الأوراق، فوجد ورقة وحيدة وفوقها القلم على جانب المنضدة، أزاح القلم وألقى نظرة عليها، ثم ابتسم ابتسامة مستريحة، الآن مريضه يستطيع التعافي، إنها الخطوة الأولى الحقيقية على الطريق الصحيح، الخطوة الأولى منذ عامين من العلاج والألم والتخطيط لكل شيء، نظر إلى ديفيد نظرة أخرى فوجده سارحا، اتجه نحوه

ووقف في مواجهته ثم قال بهدوء شديد: «الآن يا ديفيد، أنت قبلت الواقع، عقلك استطاع الآن أن يخرج من الدائرة التي كان يحبسك داخلها، كن متأكدا أنك على الطريق الصحيح الآن، ولن أتحدث عن التعويض، فأنا لم أكن طبيبك فقط، بل كنت بالنسبة لي بمثابة صديق، وأعرف جيدا ما يدور بداخلك، ولن أتحدث عن تعويض ما فات وتلك الأمور الأخرى؛ لأنك بالتأكيد تعرفها، ولكن كل ما أود منك أن تعرفه، هو أننا أحيانا علينا أن نستمر، رغم أي شيء علينا أن نستمر، تلك هي الحياة، قد تكون سخيفة، مؤلمة، لكن في الحقيقة إنها لن تنتظرك تحت ادعاء أنها مؤلمة وسخيفة، ستسحقك إن أعطيت المساحة لها، لن تتوانى عن ذلك، كما أننا يجب أن نكفر عن أخطائنا؛ لأن العيش مع الخطيئة أعظم ألما من الخطيئة نفسها، على كل حال، سيأتي فريق غدا في الصباح ليصطحبوك ليتم إعدادك حتى تكون جاهزا للمحاكمة وبالتأكيد سأكون بجوارك ولن أتركك، كن على يقين من ذلك، بأنني معك حتى النهاية».

نظر له ديفيد وأومأ إيماءة شاكرة، مبتسما ابتسامة باهتة، ابتسامة تحاول النهوض من بين كوم من البؤس والعذاب، تركه بيتر ولكنه قبل أن يغادر وقف عند الباب وألقى نظرة أخيرة على ديفيد، فنظر له الأخير في نفس الوقت، فالتقت عيناهما في هذه اللحظات، كانت نظرة طويلة تحمل العديد من المعاني.

57

هل كانت الرغبة في الحياة قوية بحيث لا يمكن دحرها؟!

شرع ديفيد جونز يفكر في هذا السؤال، صامتا وشاردا بين أفكاره المتلاطمة، في الحقيقة لم يشعر ديفيد بأنه سؤال سخيف أو مؤلم كما كان يرى كل شيء في السابق، لم يكن عليه أن يرى الحياة بمنظور هارب، صلواته كانت أكثر قوة وقربا من الله، يداه مرتجفتان، جسده أيضا، ولكن بعد ذلك شعر بهدوء غريب، لم يفهم في البداية، لم يكن يفهم في نفسه أن القرار الذي اتخذه بأن يكمل كان قرارا نابعا في الحقيقة من ضعف في شخصيته، لم يعرف لماذا لم يختر الانتحار مع وجود فكرة القتل المفزعة؟! مع أن ذلك كان أكثر رفقا وأقل إيلاما له، لكنه علم في نفسه أن فكرة الانتحار هي فكرة سوداوية للغاية، وأن فكرة القتل كانت أقوى وأقرب إلى أفكاره التي غطتها سحابة سوداء لا يمكن النفاذ منها، ورغم أنه شعر بمدى سوء ما وصل إليه في هذه النقطة إلا أنه أخذ في الاعتبار كل الحقائق، واجهها بشكل لم يكن هو ليتخيل أن يواجهها به، رغم الآلام ورغم الدموع التي ذرفتها عيناه بحرقة في ليلته هذه.

«أنا أكره الجبناء».

ترددت تلك الكلمة على مسامعه، ترددت كثيرا وعلم في النهاية أن إنسانا شجاعا لا يجب أن يخشى الخزي، وأن مواجهة الحقائق لا تأتي إلا بالألم، وأن الإنسانية في حد ذاتها نابعة من ذلك الألم، هل هو الكبرياء الذي استطاع أن ينفذ إليه فيخلصه من فكرة إنهائه لحياته بيديه؟! أم أنها فكرة الجبن اللعين والخوف الشديدين معا؟! علم في النهاية أنها فكرة اللامعقول، اللامعقول الذي جعله فجأة ينسحب لينام تحت تلك الصدمة، ليغشى عليه بعيدا عن صورة الدماء التي أصبحت لا هروب منها، الدماء التي كان سببا في إراقتها، شعر بوخز ثقيل ومؤلم في قلبه، فبكى، بكى كثيرا، كانت دموعه في هذه اللحظات هي الشيء الحقيقي الذي احتاج إليه بجانب أفكاره التي بدت ولأول مرة واضحة جلية، لم تكن كالشمس ولكنها كانت في الحقيقة أكثر من ذلك، ورغم أن وهج النور كان قويا مؤلما إلا أنه كان يستطيع الرؤية.

مر ديفيد بنوبات متقطعة ومتتالية أيضا من الاستذكار، كلما أعاد مشهدا شعر بالألم، تذكر ابن عمه والسيدة ويليامز وحتى الشاب الذي سلمه البدلة، تذكرهم جميعا وعلم أنهم جميعا ساعدوه، لا ينتظرون منه شيئا، يعلم أيضا أنهم قاموا بذلك ليس من أجل الواجب، ليس من أجل المساعدة فقط، وإنما من أجل الإنسانية، وذلك الأمر الأخير جعله يبكي بشدة، علم أن الحب الصافي يؤتي ثماره حتى وإن طال الوقت ومهما كان ذلك الأمر

مضنيا ومتعبا، علم أنه في الحقيقة لم يملك الحب بل كان يملك تلك الظاهرة اللعينة التي خلقتها أفكاره السوداء، تلك الظاهرة التي أدمت شعوبا، وجعلت من محبين عقلاء مجانين، ومن ملائكة شياطين، تخيل هتلر وهو يزحف متألما بعد تناوله للسم، وتخيل في ركن بعيد من غرفته تلك الجيوش التي خرجت بلا سبب لتحارب من أجل إنسان مسموم بأفكاره قتلته سموم كبريائه، وعلم أنه لا يختلف عن ذلك الرجل كثيرا مع الأخذ في الحسبان اختلاف القدرة، شعر بأنه لو كان يمتلك القدرة سابقا لحرق العالم، وشكر ربه على ذلك، شكره بأنه لا يملك وكفى ما حدث له، كان مقتنعا تماما بأن أخطاءه كانت كثيرة، وأنه خلط حادثا مع آخر وغيّر نتيجة بأخرى ليخرج في النهاية بنظرية أودته إلى ما هو عليه الآن.

«الحالم والجنية».

الآن فهم القصة جيدا، فهم أن السيدة ويليامز كانت ترسل له تلك الرسالة بطريقة تشبه قصص الأطفال، نعم هو الحالم الذي لم يقتنع بأن امتلاكه للواقع سيجعل حلمه أجمل ولكنه أبى، رفض بشدة أن يؤمن بأن هيلدا كانت بالفعل تحبه دون أن يملك تلك النظريات السخيفة عن الامتلاك، الخوف الذي بلّل حلمه بالدموع، وجعل منه حالما قاسيا غير مؤمن بما هو عليه، غير مؤمن بما أرسله له القدر.

تذكر والدته بابتسامة تبللها الدموع، ودعا الله بأن يمنح والده الغفران، وبكى بشدة حينما حاول أن يطلب السماح والغفران من

الراحلين روبرت وهيلدا، تلا تلك الصلاة الهندية القديمة، وجال في خاطره صديقه مايك بلوم فيلد وعلم أنه بالتأكيد يصلي في مكان ما من هذا العالم، وأنه بالتأكيد وصل إلى تلك المرحلة التي جعلت منه قديسا رغم أخطائه، رغم خطاياه ورغم كل شيء.

بعد سنة أو أكثر سيعود إلى الحياة، بلا شيء، وحيدا مرة أخرى، ما الهدف؟! وأي هدف؟! العيش من أجل البقاء؟! فقد كان في الماضي مستعدا للتخلي عن الماضي من أجل محبوبته، من أجل أمل، من أجل انسحاب حياته القاسية في بؤرة معدومة منسية، ولكن في النهاية حدث أنه تخلى عن نفسه فتخلى عنه كل شيء، انتهى الأمر بالحزن والدموع، بالألم، ولكنه أخيرا انتهى برؤيته الواضحة للأمور، وتلك هي الحياة.

خطرت له فكرة عابثة ولكنها شرعت رويدا تتحرك من مكانها كطفل يتعلم خطواته الأولى، كلما نهض وقع، ولكنه في النهاية كان مصرًّا على النجاح، ابتسم في نفسه وهو يمسح دموعه، راضيا، يشعر لأول مرة بالهدوء، بالاطمئنان الذي ربما لم يشعر به على مر حياته، كانت تلك الابتسامة تعبيرا عن عمر طويل من الألم والعذاب، رغم أنها كانت قاسية وبائسة إلا أنها بدت له الأجمل على الإطلاق، كان شعوره كذلك وكان راضيا مقتنعا به.

جاء الصباح ساكنا هادئا في اليوم التالي، كان السكون يخيم على المكان، لم يكن الجو سيئا، في الحقيقة كان دافئا، هناك وميض من البرد، ولكنه لذيذ رائع لمن يشعر به، حينها كان بيتر سميث في

صحبة بعض رجال الأمن وبعض الأطباء ومن بينهم أيضا الطبيبة ساندرا ريان، روكسانا سابقا، كانوا متجهين جميعا نحو غرفة المريض الذي ينتظر الحكم عليه، القاتل المجنون، ديفيد جونز، أعطى لهم بيتر تعليماته وهو يقف في مواجهة باب الغرفة 313، ألقى عليهم نظرة أخيرة بعد أن تأكد أن كل شيء على ما يرام، فتح الباب بهدوء، نظر نظرة جاحظة، وقف الجميع خلفه وهم ينظرون نظرة مصابة بالصدمة في اتجاهٍ مائل إلى أعلى، ارتجف بيتر، تحرك فكه بشكل غريب، غير إرادي، اعتصره الحزن والألم، اقترب بخطوات وئيدة وضعيفة حتى أصبح في مواجهته تماما، نظر إلى وجه ديفيد، كانت هناك ابتسامة تلوح على وجهه، ابتسامة غريبة ولكنها بدت ابتسامة راضية، رغم أنها ابتسامة خالية من الحياة، إن الموتى دوما يبدون أكثر غموضا وأكثر عمقًا من مظهرهم وهم أحياء ولكن كان ديفيد يبدو حيا رغم موته، وهو معلق من السقف، جثته متدلية ماثلة أمامهم، منتحرا مستخدما ملاءة السرير، طأطأ بيتر رأسه للحظات وهو يشعر بالحزن الشديد، سمع همسات من خلفه فنظر ببطء خلفه فوجدهم جميعا ينظرون في اتجاه الحائط خلف جثة ديفيد جونز المنتحر، نعم كانت هناك رسالة أخيرة منه مكتوبة على الحائط بشكل واضح.

«إن الله يساعد فقط من يساعدون أنفسهم».

تمت بحمد الله

السيكودراما Psychodrama

(الدراما النفسية)

المزج بين الدراما وعلم النفس:

المزج بين الدراما كنوع من أنواع الفنون وعلم النفس كأحد العلوم التي تتعامل مع تشريح النفس البشرية، نجده متمثلًا في المصطلح الذي يُسمى بـ«السيكودراما»، السيكودراما ترجمتها (Psychodrama) حيث تتألف من شقين؛ الأول (Psycho) ويعني نفسي، أما الشق الثاني (Drama) وهو الدراما التي تترجم إلى التمثيل الحركي.

والسيكودراما نوع من أنواع العلاج النفسي ولكن بطريقة مبتكرة؛ حيث تكمن وظيفتها الأساسية في تفريغ انفعالات الفرد ومشاعره الدفينة من خلال تمثيل أدوار لها علاقة بالمواقف التي حدثت له في الماضي، أو التي تحدث في الحاضر، أو التي قد تحدث له في المستقبل؛ حيث تَوَافُرُ العلامات التي تنذر بحدوثها؛ ليتحقق له الشفاء من أي صراع نفسي يدور بداخله.

مؤسس علم السيكودراما:

هو ليفي مورينو، الذي أسس أول جمعية لهذا العلاج، والتي للآن تقدم هذا النوع من العلاج. كان مورينو مناهضًا لأفكار فرويد واهتم بدراسة العلاقات البشرية. عاش في ڤيينا ودرس فيها الطب والرياضة والفلسفة. شغل عدة مناصب في أمريكا أهمها في جامعة كاليفورنيا وفي المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي. حين حضر صفًّا لفرويد، كتب عن ذلك في سيرته الذاتية، وقال إن فرويد خصه من بين الطلاب وسأله عن ما يفعل فأجابه مورينو: «أنتَ تحلل أحلام الناس وأنا أعطيهم الدافع ليحلموا من جديد، أنتَ تحللهم لأجزاء وقطع نفسية، وأنا أساعدهم ليقوموا بإعادة هذه الأجزاء مع بعضها البعض». تزوج من زيركا مورينو الخبيرة في السيكودراما والتي قامت بإكمال عمل زوجها وأبحاثه بعد وفاته. توفي عن عمرٍ يناهز 84 عامًا.

عناصر وأساليب السيكودراما:

يقوم العلاج بالسيكو دراما على ثلاثة عناصر:

1 - المخرج:

وهو نفسه المعالج النفسي الذي يكون خبيرا بالسيكودراما، وظيفته تكون في اختيار الممثلين ووضع السيناريو واختيار المكان المناسب للعلاج، مع المحافظة على كامل السرية عن ما يحدث في جلسة العلاج.

2 - المجموعة:

وهم الممثلون الباقون المساعدون للمريض في أداء دوره بالقيام بأدوار أخرى في المسرحية، عادة يتراوح عددهم بين 10 و15 وقد يصلون لخمسة وعشرين شخصًا، وكلما قل العدد زادت فاعلية العلاج.

3 - البطل:

وهو المريض نفسه الذي تتمركز حوله أحداث المسرحية، ويقوم بتمثيل واقع حدث له من أجل إيجاد مشكلة ما.

أما الأساليب المتبعة في السيكودراما فهي أربعة: عكس الأدوار، والمرآة، والنموذج، والدوبلاچ.

عكس الأدوار:

هنا يقوم المريض بتمثيل دور شخص آخر ممن يرى فيه المشكلة، مثل أن يقوم المريض بأداء دور زوجته التي لديه صعوبات في التعامل معها. في عكس الأدوار يقوم المريض بمعايشة للواقع من زاوية أشخاص آخرين تساعده على رؤية المشكلة من وجهة نظر أخرى.

دور المرآة:

يكون المريض فيه متفرجًا سلبيًّا حيث يقوم ممثل آخر بتأدية دور المريض؛ بحيث يستطيع المريض من خلال المشاهدة والمراقبة رؤية صورة مماثلة له. من هنا يقتنص المريض أنماط حديثه ولغة جسده، والسلوك الذي ربما فاقم المشكلة وأبعد الحل عنها. هنا المريض يشاهد نفسه باختصار.

دور النموذج:

يكون فيه المريض أيضًا متفرجًا لكن من يقوم بدوره هنا يؤدي الدور بحلول نموذجية؛ أي كيف كان ينبغي للمريض أن يتصرف.

دور الدوبلاچ:

في هذا الدور يقوم شخص آخر بتأدية دور ظل المريض الذي يقوم بالتعبير شفويًا عن لغة جسد المريض. في الدوبلاچ سيقوم المخرج بإيقاف المسرحية؛ ليسأل المريض إن كان ظله قد نجح في التعبير عن لغة جسده. هذا النوع يتيح فرصة للمريض لكي يستنبط الحل غير المنطوق في حركاته.

المصادر:

- Introduction to Psychodrama Workshop for IASA Conference, Cambridge, 29th August 2010 Workshop leaders: Chip Chimera and Clark Baim.

عزيزي القارئ: فكرة السيكودراما هي فكرة عامة لم يحتكرها أحد، هي نوع من أنواع العلاج النفسي الذي تم توظيفه في العديد من الأعمال الروائية والسينمائية أيضا، وتلك المرة الأولى التي يتم تقديمه فيها للعالم العربي، أتمنى أن أكون قدمته بالشكل الذي أخرجت منه الكثير لتتضح لنا بعض صور الحياة جلية، وكما قلت إن الإنسانية نفسها نابعة من الألـم.

عمرو الجندي